يوسف الخطيب : حياته وشعره

إعـــــداد
أمل جمال أبو عيدة

المشـرف
الدكتور سمير قطامي

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في
اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا
الجامعة الأردنية

حزيران /٢٠٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أعضاء لجنة المناقشة

التوقيـــــــع

١- الدكتور سمير قطامي (المشرف)..... رئيسا

٢- الدكتور إبراهيم خليل ..... عضوا

٣- الدكتور هاني العمد ..... عضوا

٤- الأستاذ الدكتور خليل الشيخ..... عضوا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إهـــــــداء

إلـــــى

- من أعطاني من فيض علمه وحنانه وجهده .

والـــــدي الحبيب

- من جعل من درجة الماجستير منالا سهلا

زوجـــــي وليد

- نبض القلب ...رامي ...رانية ..محمد

- من استقرت بدعائها حروف الرسالة

أمـــــــــي

- المثل الأعلى والمعين الذي لا ينضب إخوتي

أحمد ...منى

- من تجسدت أمام أعينهم رحلة الكفاح فكانوا مثلا

للعـــــــون

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي الدكتور سمير قطامي ، الـــذي أجهـــد نفسه في قراءة فصول الرسالة، فكان لملاحظاته وإرشاداته وتشجيعه الدور الأكبر في رفع سوية البحث .

ويسعدني أن أتقدم بخالص الشكر لكل أساتذتي الذين جشـــموا أنفســـهم عناء قراءة الرسالة ومناقشتها ، وإغنائها بملاحظاتهم القيمة وهم : الأســـتاذ الدكتور خليل الشيخ ، الدكتور إبراهيم خليل ، الدكتور هاني العمد .

كما أشكر كل من مد لي يد العون فساهم بجهد أو قول أو نصـــح فـــي إتمام هذا البحث. لهم جميعا الشكر والعرفان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحتويات

الموضوع **الصفحة**

- قرار اللجنة ..... ب
- الإهداء ..... ج
- شكر وتقدير ..... د
- المحتويات ..... هـ
- ملخص الرسالة ..... ح
- المقدمة ..... ط

الباب الأول : ترجمة حياة الشاعر ١

أولا : الفصل الأول :

١- مولده ونشأته ٢
٢- عمله الصحافي والإذاعي ٥
٣- نشاطاته الميدانية ٧
٤- الأحداث البارزة في حياته ٨
٥- أعماله الشعرية ١٠

ثانيا: الفصل الثاني : تجربته الشعرية ١١

١- مفهوم التجربة الشعرية ١٢
٢- المرحلة الشعرية الأولى ١٤
٣- المرحلة الشعرية الثانية ٢٢
٤- المرحلة الشعرية الثالثة ٣٠
٥- المرحلة الشعرية الرابعة ٣٨
٦- المرحلة الشعرية الخامسة ٤٢

ثالثا : الخلاصة ٥٦

الباب الثاني : الدراسة الفنية

أولا : بناء القصيدة

١- البناء الخارجي

أ- البناء المقطعي اللوحات ٦٢

ب – البناء التوقيعي ٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع **الصفحة**

٢ – البناء الداخلي
أ – البناء الدرامي ٧٢
ب – البناء الملحمي ٧٦
ثانيا : اللغة الشعرية
١– مفهوم اللغة الشعرية ٨٤
٢– معجم الشاعر ٨٥
٣– ملاحظات حول المعجم ١٠٠
٤– سمات اللغة في شعره ١٢٠
ثالثا : الموقف من التراث
١– التراث المسيحي ١١٣
٢– التراث الإسلامي ١١٦
أ – القرآن الكريم ١١٧
ب – القصص والأحداث التاريخية ١٢٠
٣– الشعر العربي القديم ١٢٧
رابعا: الصورة الشعرية
١– مفهوم الصورة الشعرية ١٣٢
٢– مصادر الصورة ١٣٣
٣– أنماط الصور عند يوسف الخطيب ١٣٤
أ – صور عمود الشعر ١٣٥
ب – صور الطبيعة ١٤٠
ج – الصور النفسية ١٤٦
د – الصور المركبة ١٤٩
خامسا : الموسيقى الشعرية
أ – الإيقاع الخارجي : ١٥٣
أولا: الوزن :
١– الشعر العمودي ١٥٥
٢– شعر التفعيلة ١٦١
٣– السطر الشعري ١٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع **الصفحة**

ثانيا: ظواهر إيقاعية :

١- مزج البحور ١٧٤

٢- التدوير ١٧٥

ثالثا : القافية ١٨٢

١- القافية العمودية الموحدة ١٨٤

٢- القافية العمودية المتغيرة ١٨٦

٣- القافية الحرة المقطعية ١٩٠

٤- القافية الحرة المتعددة ١٩٣

٥- القافية المرسلة ١٩٧

ب – الإيقاع الداخلي : ١٩٩

١- التكرار ٢٠٠

٢- التقفية الداخلية ٢٠٧

خاتمة البحث ٢٠١١

المصادر والمراجع ٢١٣

الملحق ٢١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملخص

يوسف الخطيب حياته وشعره

إعداد

أمل جمال أبو عيدة

المشرف

الدكتور سمير قطامي

تناولت هذه الدراسة حياة الشاعر يوسف الخطيب وشعره ، هادفة إلى تحليل نتاجه الشعري في ضوء تضافر المناهج ، فتناولت الدراسة تجربته الشعرية مبينة أنه يملك صوتا شعريا خاصا في حركة الشعر العربي المعاصر ، فشعره يعكس حياته المليئة بالتعرجات ، كما أنه صورة لتجربته الثقافية الأيديولوجية .

وقد ركزت الدراسة على الجوانب الفنية المتمثلة بالتنوع البنائي للقصيدة ، وسمات اللغة في شعره ، كما سعت إلى بيان توظيف التراث في شعره .كما تناولت الدراسة أنماط الصورة الشعرية الموزعة بين الصورة المفردة والمركبة . وأخيرا فقد تناولت الدراسة الموسيقى الشعرية والتي تقوم على نمطين اثنين : الإيقاع الخارجي ويغلب عليه الوزن التقليدي والسطر الشعري ، والإيقاع الداخلي الذي يتبدى من خلال تكرار الأصوات والتقفية الداخلية في لحمة القصيدة ونسيجها الموسيقي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمـــــــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير المرسلين ، سيدنا محمد عليـــه الصلاة والسلام ، وبعد .

موضوع هذه الأطروحة يوسف الخطيب : حياته وشعره ، وقد بدأت صلتي بهذا البحث حين عثرت على ديواني " بالشام أهلي والهوى بغداد " و " رأيت الله في غزة " في مكتبة والدي الغنية بكتبها ومراجعها العديدة . فما كان إلا أن اســتوقفتني أشــعاره وقصائده الجميلة الرائعة . فعقدت العزم على المضي في تقديم دراسة نقديــة تتنــاول التجربة الشعرية عند ذلك الشاعر .

ولم تكن المسألة سهلة ، إذ لم أعثر إلا على ديوان واحد في مكتبة الجامعة وهو " العيون الظماء للنور " ، باكورة أعماله الشعرية ، مما دفعني إلى التنقل بين المكتبــات ثم السفر إلى دمشق ، حيث يقيم الشاعر طلبا للحصول على المزيد مــن المعلومــات وجمع أكبر قدر ممكن من المصادر والمراجع .

لكن أهم ما حصلت عليه بالفعل ، من خلال هذه الزيارة ، هو مجموعة " قصــائد مستقلة " كان انتقاها يوسف الخطيب من نخبة أشعاره ، وأدرج فيها أشعارا كانت فــي طي النسيان ، لكنها كانت في غاية الأهمية كما كان لهذه المجموعة أثر فــي زيــادة اهتمامي بمعالم التجربة الشعرية وظروفها عند الشاعر ، وقد وجدت أنه قسم التجربة الشعرية ، وفق تواريخ محددة ، ارتبطت بأحداث عاصرها شخصــيا ، وكــان لهــذه الأحداث أثر بالغ في إغناء شعره .

وبعد مضي شهر على زيارتي ، وباتفاق مسبق بيننا ، أرسل لي دواوينه الشعرية استكمالا لمهمتي البحثية . وبعد أن تجمعت لي الأسباب كي أقوم بالبحــث فــي هــذه الأطروحة ، استقرت خطتها على النحو التالي :

الباب الأول ، وقد خصصته لترجمة الشاعر ، وتجربته الشعرية بكــل ظروفهــا وملابساتها ، فتناولت في الفصل الأول منــه مولــده ونشــأته ، وعملــه الصــحافي والإذاعي، ونشاطاته الميدانية ، وأبرز الأحداث الهامة في حياته، ثم تعرضت لآثــاره الشعرية وركزت على الجوانب التي تخدم البحث . ثم تناولت فــي الفصــل الثــاني التجربة الشعرية التي كانت وثيقة تاريخية ، قسمت إلى خمس مراحل مختلفة ، حسب تواريخ زمنية محددة . أما الباب الثاني فقد درست فيه نتاجه الشعري دراســة فنيــة ، فرصدت الطرق الفنية لتشكيل القصيدة البنائي ، من خلال تقسيمها إلى البناء الخارجي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والبناء الداخل . كما عمدت إلى دراسة اللغة في شعره ، وذلك في الفصل الثاني ، حيث أبرزت معجمه الشعري ، وما اشتمل عليه من ألفاظ ذات حقول دلالية ، مثل ألفاظ: المقاومة والموت والطبيعة والمدن الفلسطينية والعربية، ثم تعرضت لسمات اللغة في شعر يوسف الخطيب .

أما الفصل الثالث فيدور حول التراث ، إذ أبرزت فيه اقتباس الشاعر من التراث بنوعيه المسيحي والإسلامي ، سواء عن طريق الاقتباس النصي أو التضمين . وأما الفصل الرابع : فقد خصصته للصورة الشعرية ، ومن خلاله تعرفت على أنماط الصور الشعرية عنده ومصادرها . أما الفصل الخامس والأخير فيدور حول الموسيقى الشعرية التي قسمتها إلى قسمين : إيقاع خارجي بما فيه من تشكيل موسيقى للأوزان ، وإيقاع داخلي أوليت فيه عناية خاصة لتكرار الأصوات ذات الجرس الموسيقي المناسب للحالة النفسية، كما درست أبرز الظواهر الإيقاعية التي تتمثل في مزج البحور والتدوير ، وألمحت إلى ظاهرة التدوير العروضي التي يعد يوسف الخطيب من أوائل روادها .

وجاءت الخاتمة لتلخص ما توصلت إليه من نتائج البحث لعلها تفتح آفاقا جديدة لدارس آخر يكمل ما لم يتم من الدراسة .

كما خصصت ملحقا أدرجت فيه القصائد التي قالها ولم يضمنها في دواوينه .

وبعد ، فإن بحثي هذا ، أضعه بين يدي الدارس وكلي أمل أن أقدم شيئا ذي قيمة للأدب العربي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباب الأول حياة الشاعر

الفصل الأول: ترجمته

١- مولده ونشأته
٢- عمله الصحافي والإذاعي
٣- حقائق وأحداث في حياة يوسف الخطيب
٤- نشاطاته الميدانية
٥- أعماله الشعرية

مولده ونشأته :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولد يوسف الخطيب في شهر آذار عام ١٩٣١ في بلدة دورا محافظة الخليل بفلسطين ، وهي بيئة ساحرة أثرت فيه منذ نعومة أظفاره ، إذ كانت تدفع به وهو لا يزال طالبا إلى الشرود في حصة الحساب عبر النافذة ليطالع تلك الطبيعة الفسيحة أمامه بدءا من أزهار حديقة المدرسة بجميع ألوان قوس قزح حتى التقاء السماء بخط فيروز البحر المديد في نهاية الأفق البعيد . وكم مرة رأى فيها بأم عينه إغارة الذئب على فلول القطيع المتخلفة وراءه وشاهد حمية الكلاب ودفاعها المستميت عنه ومطاردتها للذئاب ، وكم مرة أمسك بضرع النعجة وحلبه بفمه شرابا عذبا حتى الارتواء .

نشأ الشاعر في جو أسري متحاب متماسك ، فله من الأخوة والأخوات سبعة عشر موزعين على ثلاث زوجات لأب واحد .ولعل من التفاصيل التي استوطنت في ذاكرته ولم يستطع نسيانها مشهد أمه وقد وقفت لصلاة الفجر أثناء ما كان وشقيقه الأصغر فيما بين النوم والاستيقاظ ، وفجأة يخلع باب بيتهم الخارجي بجلبة، وصراخ شديدين فيندفع إلى داخل حجرتهم نفر من الجنود البريطانيين بأحذيتهم الثقيلة وبزاتهم العسكرية وهم يتصايحون برطانة ، ليس لاعتقال والدهم لأنهم يعلمون أنه كان قد وجد لنفسه مهربا مؤقتا إلى سوريا ، وإنما بحثا عن أية رائحة لأي سلاح حتى ولو كان في حدود الرصاصة الفارغة التي كانت في ذلك الزمان كافية للحكم على صاحبها بالأشغال الشاقة لسنوات وسنوات .

تأثر يوسف الخطيب بوالده الذي عرف عنه إيواؤه الثوار الفلسطينيين في منطقة جبل الخليل حتى أصبح أحد المطلوبين الكثر لسلطات الاحتلال البريطاني مما دفع به للتسلل هاربا في إحدى المرات عبر شرق الأردن إلى ريف دمشق .

وثمة شيء آخر لم ينسه الشاعر من ذلك الوقت وهو الطائرة التي سماها بالآلة الجهنمية التي أخذت تحلق فوق رؤوسهم لتمزق بنيرانها جسد رجل مطلوب كان قد التجأ إلى مقبرة البلدة ، فتتركه جثة هامدة إلى جوار أقرانه في دار الآخرة .

ومن مثل هذه المواقف والمشاهد والتفاصيل الصغيرة الكثيرة مما لا يتسع المجال لذكره في هذا السياق ..ولكن على اعتبار أن عهد الطفولة بالنسبة لكل إنسان هو مجرد حجر الأساس الذي تبنى عليه شخصيته إلى حد كبير في مرحلة الوعي والإدراك ، فاننا نستطيع أن نفسر الآن لماذا نشأ يوسف الخطيب ساخطا إلى حد الثورة على جميع أشكال الظلم والتعسف والطغيان .

كان والده رحمه الله ، يقف في الطليعة بين حفنة من الأشخاص الذين يقرأون ويكتبون جيدا،ولعل هذا ما دفعه إلى إيداع شاعرنا في الكتّاب وهو لا يزال صغيرا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لتأهيله للصف الأول الابتدائي فقد تعلم تجويد القرآن الكريم وحفظ جزء "عم" وجـزء "تبارك " عن ظهر قلب . ثم التحق بمدرسـة دورا لينهـي دراسـته فـي الصـفوف الابتدائية، ثم ينتقل إلى ثانوية الخليل التي تبعد عن دورا ستة كيلومترات عبر طريـق جبلية وعرة.

ومن الأساتذة الذين أثروا في يوسف الخطيب ، أستاذه "محمد العزة " ، الذي كان يتولى تعليمه تجويد القرآن وأستاذه "مخلص عمرو" ، كما تـأثر الشـاعر ، بالأسـتاذ الكبير " خليل السكاكيني " ، الذي قضى شطرا محسوسا من عمره يناضل في سـبيل استنقاذ الأرثوذكسية الفلسطينية من هيمنة الكهنة الأجانب .

لقد تعلق يوسف الخطيب بالشعر منذ طفولته بدءا بتعلقه بحصة الشاعر الشعبي التي كان يطرب لها حين كان والده يصطحبه معه في بعض السهرات ، وانتهاء بتعلقه بحصة اللغة العربية التي كان يتمنى أن لا تنتهي . أضف إلى ذلك قدرته الهائلة على حفظ الشعر والمحفوظات البديعة التي كانت من أحب الدروس إليه ، وتعلقه بالمعلقات السبع أو العشر التي طاب له التعامل مع أسطرها وفك رموزها في وقـت فراغـه ، حيث كان يقوم بقراءة القصيدة الواحدة أكثر من مرة ، إلى أن يشعر بأن البيت الـذي بين يديه قد عاد إلى سياقه النغمي المطلوب ، ليكتشف بذلك عالمه الشعري الفني بتعدد ألوانه النغمية وليكتشف أيضا أنه لا وجه للمقارنة الآن بين هذا العـالم وبـين شـعر الربابة الشعبي الذي غالبا ما يجري على وتيرة واحدة رتيبة ، كما أن القراءة السليمة بصوت مرتفع وفّرت له قدرا لا بأس به من استكناه السر في الموسـيقى الخارجيـة للشعر التي عرف فيما بعد أنها تعرف بالعروض . وقد كان يـذهب إلـى الحـاكورة المجاورة لبيته ليصرخ بأعلى صوته ضابطا مخارج الحروف مستفيدا بذلك من حصة التجويد التي كان يأخذها معطيا كل حرف حقه كاملا من النطق السليم .

مرة على الحاكورة وأخرى على أفرع شجرة الخروب المطلـة علـى الـوادي السحيق ملقيا أشعاره على جمهور خيالي من الأشجار والثمار ودوالي السفوح .

وكان لهذه التسلية المحببة له وفي وقت الفراغ فضل في تدريبه علـى الإنشـاد والإلقاء في سن مبكرة لا تتجاوز العشر سنوات ناهيك عن أنها حققت له عشقا طفوليا للغة العربية جعلته مخلصا لها ملتصقا بصدرها مستعذبا لمفرداتها وسائر جمالياتها .

لم تكن هناك بطبيعة الحال تلفزة في تلك الأيام ، ولعل تلك الميزة هي المنحـة الإلهية العظمى التي أنقذت طفولته وخيالاته من الوقوع في أسر هذا الجهاز الجهنمي ، وعلى أي حال فان كامل الوقت الذي كان باستطاعة الراديو والفونوغراف أن يختلساه من إنسان قروي في عهد الطفولة لم يكن بذلك الزمن المحسوس الذي يؤبه له ، فـي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حين يبقى لديه في تلك الأيام قدر هائل من الفراغ الذي يحار كيف يقضيه، فهب أنك الآن قد ذاكرت دروسك جيدا ، وأنجزت وظائفك المنزلية على أفضل وجه مستطاع ثم هب أيضا أنك لقد لعبت (البنانير) مع أقرانك أو خرجت لتوك غالبا أو مغلوبا من إحدى مباريات الزقاق " بالطجة " مما يعني (كرة القدم بكتلة محزومة جيدا من الخرق البالية) ..بل هب فوق ذلك أنك قد "نكشت" التربة جيدا حول جذوع الأشجار في "حاكورة" الدار أو ذهبت بسلة فارغة إلى كرمكم في قعر الوادي وعدت بها ملآي بعناقيد العنب الخليلي والتين والزيتون ..وما إلى ذلك من غلال طيبة مباركة يفيض بها صدر فلسطين ..ثم ماذا بعد ؟ تلك كانت بالنسبة له هي المسألة.

لذلك سرعان ما وجد حلا لمسألته الخاصة تلك عن طريق الخزانة الخشبية البسيطة التي كان يمتلكها والده في "العلية" الحجرية الخاصة به والتي قد لا يزيد ما فيها من الكتب على عشرين عنوانا رئيسيا ، ولكنها تضم ما بين أغلفتها ألوف الأخبار والأشعار لمئات الناس من مختلف العصور مثل "مجاني الأدب" للأب شيخو ومؤلفات المازني والعقاد وتوفيق الحكيم بالإضافة إلى سلسلة "إقرأ " ومجلة " المختار " وليكتشف بتلك السن المبكرة مقولة أبي الطيب المتنبي الشهيرة بأن خير جليس في الزمان كتاب إذ اهتدى بنفسه ومنذ عهد الطفولة المبكرة إلى هذا الجليس الرائع والصديق الوفي المؤنس والمزمن في آن واحد، ولربما كان من طبيعة الأمور بالنسبة لتلميذ صغير لا يتعدى عمره عشر سنوات أن ينفر بقوة من مصادقة مثل هذا الجليس الذي يبدو ثقيلا من فرط ما يختزن في إهابه من حكمه ووقار أو فنون وأشعار هي بكل المقاييس ليست من شأن الصغار . وبرغم ذلك فقد كان ذلك الطفل يسعى إلى مجالسته ليخطب وده وينهل من ينبوعه العذب تلك الحسوات الصغيرة الرائعة، وها هم أعضاء الهيئة التدريسية يشعرون بإعجاب غير عادي بذلك الطفل المعجزة ، ليرشحه أساتذة اللغة العربية ومدير المدرسة آنذاك، للمشاركة في أول مسابقة هامة في إلقاء الشعر ، حيث كان في الصف الخامس الإبتدائي، وسيشارك مع طلبة الثانوية العامة ، مما يعني أنه كان أصغر المتقدمين سنا ،ومع هذا فإن أساتذته كانوا قد وضعوا عليه الرهان كله .

وها هو يعتلي المنبر في مدرسة (عين السلطان) الثانوية ليقيم ذلك الجمهور ولا يقعده من شدة التأثير فيه ، لا بفضل تلك القوة الاستثنائية التي كانت لحباله الصوتية فحسب ، بل لتمثله القصيدة الملقاة تمثلا كاملا، ليعيش كل جملة وكل كلمة بحسب مؤداها الخاص ، وليفوز بذلك في المسابقة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يكن يعلم أن هذه المسابقة كانت المقدمة لاعتلاء منابر كثيرة بعد ذلك في المهرجانات الشعرية في مختلف المناسبات الوطنية والقومية، مثلما كان يحدث في مدرج جامعة دمشق في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي أو لدى جمهور المربد العراقي في السبعينيات ، وجمهور دار الأوبرا المصرية في مهرجان يوم الشعر العالمي ، أو لدى تلك النخبة العالمية في مهرجان (ستروغا) اليوغسلامي ، ومهرجان (بوشكين) الروسي .

عمله الإذاعي والصحافي :

بعد حصوله على الثانوية العامة عمل يوسف الخطيب مذيعا قارئا لنشرة الأخبار الرئيسية في إذاعة دمشق عام ١٩٥١م ولكنه لم يستمر في هذه الوظيفة سوى ستة أشهر، فقد تم إعفاؤه منها لأنه فلسطيني الجنسية وليس سوريا ، وكذلك لكونه من أعضاء حزب البعث العربي الاشتراكي، إذ كان أديب الشيشكلي ، وهو معاد لحزب البعث على رأس نظام الحكم في سوريا في ذلك الوقت.

انتقل يوسف الخطيب بعد ذلك للعمل في إذاعة رام الله الأردنية فيما كان يعرف بالضفة الغربية ، فكان يقسم السنة إلى نصفين ، نصف للعمل في تلك الإذاعة يستفيد من مردوده المالي حتى نهاية السنة ، والنصف الآخر على مقاعد الدرس بدمشق ، إلى أن انتقل للعمل في إذاعة مكة المكرمة في المملكة العربية السعودية وذلك عام ١٩٥٥م بعد تخرجه من الجامعة مباشرة ، إذ حصل على إجازة الحقوق ودبلوم اختصاص .

مكث يوسف الخطيب في السعودية عاما واحدا فقط لم يشأ أن يجدد عقده لفترات أخرى هناك حيث اكتفى بالمدة التي قضاها ، ليعود بعدها إلى الأردن ويعمل في إذاعة رام الله من جديد ولمدة عام واحد فقط أيضا غادرها إلى سوريا لاجئا سياسيا . وفي عام ١٩٥٨ تم انتداب بعض المذيعين في عهد الوحدة المصرية السورية من إذاعة دمشق ، إلى إذاعتي القاهرة وصوت العرب في مصر ، وكذلك العكس . وفي إطار هذا الترتيب المتبادل عمل الشاعر ثلاثة أشهر في إذاعة صوت العرب عام ١٩٥٨ ، وأربعة أشهر في إذاعة القاهرة عام ١٩٥٩ .

في أواخر عهد الوحدة وتحديدا عام ١٩٦٠ ، أصبح يوسف الخطيب عنصرا بعثيا غير مرغوب فيه ، الأمر الذي جعله يتعاقد للعمل في إذاعة الكويت براتب شهري مغر، ولكنه اكتشف أن هذه الوظيفة السخية لم تكن سوى خدعة، فلم يكد يعمل أسابيع قليلة في إذاعة الكويت حتى تم إيداعه في سجن الكويت العمومي من أجل

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تسليمه للحكومة الأردنية بناء على اتفاق كان معقودا بين سلطات الأمن في كل من الدولتين . ولكن جهودا حميدة حقا بذلها بعض أصدقائه من المحامين والصحافيين حملت السلطات الكويتية على إبعاده إلى دمشق بدلا من عمان .

وفي ذلك العام (١٩٦٠) لجأ يوسف الخطيب إلى لبنان وهناك عمل منذ أوائل عام ١٩٦١ رئيسا لتحرير الملحق الثقافي لجريدة الأنوار اللبنانية، وفي منتصف نفس العام عمل رئيسا لتحرير جريدة " السياسة " في بيروت لصاحبها عبد الله اليافي . كما عمل بجانب ما ذكرناه أعمالا أخرى وظيفية غير ثابتة في العديد من الصحف والمجلات العربية ، ولكن شجارا صحفيا حصل بينه وبين مجلة الآداب البيروتية ، ولعل هذا الشجار كان حول جائزة الشعر التي سبق ونالها يوسف الخطيب عام ١٩٥٤، إلا أنها منحت في هذا العام لشاعر آخر مما حذا بالشاعر إلى دخول في معترك مع هذه الصحيفة التي حالت دون بقائه في لبنان لأكثر من عام واحد فقط ، وبالفعل حددت له مشروعية إقامته هناك بثلاثة أشهر ، جرى تحديدها من قبل السلطات الأمنية اللبنانية، فغادر لبنان متوجهاً إلى هولندا عام ١٩٦١ ، حيث عمل مدة عامين في إذاعة هولندا العالمية.

وفي عام ١٩٦٣ عاد يوسف الخطيب من هولندا إلى بغداد مباشرة ليشغل منصب مدير البرامج في إذاعة بغداد ، وبعد مضي فترة لا تزيد على ستة أشهر انتقل للعمل في إذاعة دمشق حيث أسس فيها إذاعة فلسطين عام ١٩٦٤ ، وفي عام ١٩٦٥ شغل منصب المدير العام لهيئة الإذاعة والتلفزيون في سوريا ، وفي أواخر العام نفسه شغل منصب رئيس تحرير مجلة الطليعة السورية، وهذا يوحي بأن عمله الصحافي كان عملا جانبيا بجانب عمله الإذاعي .

وفي عام ١٩٦٦ هجر يوسف الخطيب الوظيفة الحكومية نهائيا ، متفرغا للعمل في دار للنشر أسسها وأسماها " دار فلسطين للثقافة والفنون والإعلام" وذلك ليتفرغ للأعمال الثقافية والأدبية ، ولا يزال حتى الآن يقوم على رأس عمله بها حيث يقوم حاليا بالإعداد لإصدار أعماله الكاملة ومذكراته من خلالها .

نشاطاته الميدانية :

- قام بتأسيس دار فلسطين للثقافة والإعلام والفنون في دمشق وهي مؤسسته الخاصة المستقلة التي لا يزال يقوم على رأس عمله فيها حتى الآن حيث هجر الوظيفة الحكومية نهائيا وكان ذلك في عام ١٩٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- انتخب في العام نفسه ليكون أحد أعضاء الهيئة التأسيسية لاتحاد الكتاب العرب في سوريا وأسهم في وضع نظامه الأساسي والداخلي .
- اختير عام ١٩٦٨ باجماع القوى والفعاليات الوطنية الفلسطينية في ذلك الحين عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني عن المستقلين وما زال يحتفظ بموقعه حتى الآن .
- عام ١٩٧٢ تم انتخابه لنيابة الأمانة العامة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين وكان ذلك في المؤتمر العام التأسيسي لذلك الاتحاد .
- عام ١٩٦٧ شرع لأول مرة في إصدار مؤلفه السنوي العالمي بعنوان "المذكرة الفلسطينية" وهي التي واصل إصدارها لتسع سنوات متعاقبة بكل اللغات العالمية الخمس وهي العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية وقد حظيت بانتشار عالمي لا نظير له في أي مطبوعة عربية مستقلة.
- عن دار فلسطين أيضا قام بإصدار عدد من المطبوعات المرجعية الهامة مثل " ديوان الوطن المحتل " الذي يعد إلى الآن المرجع الرئيسي لنشوء الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ وخصائصها وسماتها العامة ،وكذلك " فلسطين في الإعلام"ومشاهد البلدان الفلسطينية وسيناريو مذبحة كفر قاسم في كل من العربية والإنجليزية والألمانية والفرنسية وما إلى ذلك من مطبوعات هامة أخرى.

حقائق وأحداث في حياة يوسف الخطيب

- بعد نكبة عام ١٩٤٨ اضطر يوسف الخطيب للنزوح عن وطنه ليكمل دراسته ، حيث حصل على الثانوية السورية من المعهد العربي الإسلامي بدمشق وكان هذا عام ١٩٥١ وهناك تفتحت قريحته الشعرية ليشدو لنا بأعذب القصائد الحزينة الباكية التي يتذكر بها داره وقريته الجميلة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ولعل النكبة الثانية التي أثرت على يوسف الخطيب شعرا هي نكبة انفصال الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٦١ حيث صنفها لتكون في المرتبة الثانية بعد نكبة فلسطين ١٩٤٨م فقد أدت به إلى تغيير مساره الشعري لينظم لنا قصائد لم نكن نعهدها منه قبل الانفصال ، مثل قصيدة "دمشق والزمن الرديء" "ومطالع جزائرية" "والطريق إلى يافا" .
- أما النكبة الثالثة فهي نكسة حزيران الأسود عام ١٩٦٧ التي كان لها أثر واضح في شعره إذ عاد بعد تلك الهزيمة إلى جذوره التراثية ليستقي من التاريخ العربي رموزا ، متحديا بذلك مجموعة من النقاد الذين ألقوا بكامل المسؤولية عقب النكسة على تاريخ هذه الأمة وتراثها وقيمها الروحية السامية ، بادعاء أنها من مظاهر التخلف الذي قادنا للهزيمة ، متناسين بذلك أو متجاهلين الأسباب الرئيسية وراء تلك الهزيمة. وبذلك فقد عاد ينظم قصائده على النهج التقليدي أو العمودي ، وذلك من قبيل الإمعان في انعاش ذاكرة العصر بموروث ماضي الزمان ، لأنه بدون قاعدة متينة من الأصالة لن تقوم قائمة لأية حداثة حقيقية على الاطلاق .
- يعد انتماء الشاعر لحزب البعث العربي الاشتراكي عام ١٩٥٠ مصدر بؤس وشقاء للشاعر ، لما جلبه هذا الانتماء من ألم ، تبعه ترحال وتنقل بين أرجاء الوطن العربي ، وازداد هذا الشقاء لا سيما بعد انشقاق الأحزاب بعضها عن بعض مما دفع به إلى أن يتخذ لنفسه مسربا خاصا به . ونستطيع القول إن ليوسف الخطيب ثقافته البعثية الخاصة به حيث انقطع عن أنشطة البعث كتنظيم حزبي في أواخر عام ١٩٦٥ ، ثم انتهت صلته بالحزب نهائيا عندما انقسم الحزبيون على أنفسهم بصورة دموية قاسية في ٢٣ شباط عام ١٩٦٦ حيث كان لهذه الصدمة أثرها الكبير على الشاعر أصابته بالتمزق الداخلي .

وعموما فالملاحظ على هذه الأحداث أنها أحداث مؤلمة انعكست على حياة شاعرنا التي كانت مليئة بالتعرجات والتحديات ، إذ لم تكن تلك الحياة سهلة على الإطلاق حتى ان يوسف الخطيب أشار إلى ذلك بشكل غير مباشر في معرض حديثه عن موقفه من الأحداث السياسية المعاصرة .

(...من كل ذلك سيدي القارئ لا أجدني مدينا بالاعتذار إليك ناهيك عن اعتذاري لأي ناقد أدبي من سلالة كارثة حزيران ، بسبب انغماس قصائدي إلى حد الاستغراق في شتى مفردات الشأن العام وطنيا وقوميا، إلى أرحب آفاق الإنسانية الحقة المعافاة ...فذلك هو أنا ، أبعد ما أكون قريحة عن إبداع المؤانسة والامتاع ...ولهذا السبب أيضا ستجد أنني في مجمل هذه الأعمال الشعرية الناجزة في ثلاثة أجزاء (يقصد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدواوين الثلاثة الأولى التي أنجزها في ذلك الوقت) ، ما أكاد أفرغ من هم عام متأزم حتى أنتقل بك إلى ما هو أكثر تأزما ، فأرجو والحالة هذه ألا تكون قد انخدعت بمرافقتي في هذه الرحلة الشعرية منذ بدايتها عن ظن أو تصور منك أنها ستكون مهرجان احتفال على غير هذا المنوال !!)[١]

إذن لقد جاءت العبارات السابقة لتؤكد ما أشرنا إليه وتدعمه ، فحياته لم تكن بالهينة بل كانت طريقه معبدة بالأشواك والصعاب كما سيتضح من خلال أشعاره .

أعماله الشعرية

له خمسة دواوين شعرية هي على الترتيب :-

١- " العيون الظماء للنور " صدر عن المطبعة العمومية بدمشق عام ١٩٥٥م.

٢- "عائدون " – دار الآداب اللبنانية عام ١٩٥٩.

٣- "واحة الجحيم " – دار الطليعة اللبنانية عام ١٩٦٤.

٤- "رأيت الله في غزة " دار فلسطين للنشر والثقافة والفنون، الطبعة الأولى ،١٩٨٨.

٥- "بالشام أهلي والهوى بغداد " دار فلسطين للنشر والثقافة والفنون، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨.

٦- "مجنون فلسطين" – ديوان شعر سمعي سجل على أربعة أشرطة – المكتبة الإلكترونية – دمشق ١٩٨٠.

---

[١] يوسف الخطيب ، ذكرياتأولى ، من ضمن سيرته الأولى المهداة لي من الشاعر مباشرة ، وهي غير مطبوعة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالإضافة إلى مجموعة قصائد مستقلة وهي التي كانت موضع إفادة للإحاطة بمعالم التجربة الشعرية .

*يضاف إلى ذلك عمله القصصي الوحيد " عناصر هدامة "الذي صدر عن المكتبة العصرية اللبنانية عام ١٩٦٤م.

أما أعماله الشعرية التي لم تصدر بعد فهي تزيد في كمها وربما تتفوق في نوعها على كل ما نشر له حتى الآن . وهو يسعى حاليا لإصدار جملة أعماله الشعرية الناجزة قديمها وحديثها في ثلاثة مجلدات بصورة مختلفة عن السائدة من حيث محاولة الربط ما بين العمل الإبداعي ومناخه النفسي والسياسي والاجتماعي الذي قيل فيه كنوع من المزاوجة ما بين الشعر والفكر.

الفصل الثاني
تجربته الشعرية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١- مفهوم التجربة الشعرية
٢- المرحلة الشعرية الأولى
٣- المرحلة الشعرية الثانية
٤- المرحلة الشعرية الثالثة
٥- المرحلة الشعرية الرابعة
٦- المرحلة الشعرية الخامسة

مفهوم التجربة الشعرية

نقصد بالتجربة الشعرية ؛(الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور تفكيرا ينم عن عميق شعوره وإحساسه وفيها يرجع الشاعر إلى اقتناع ذاتي وإخلاص فني لا إلى مجرد مهارته في صياغة القول أو إلى مجاراة شعور الآخرين لينال رضاهم) .[١]

وهي أيضا (الحالة التي تلامس الشاعر وتوجه بصيرته أو ذهنه إلى موضوع من موضوعات الدنيا وتؤثر فيه تأثيرا قويا تدفعه عن وعي أو بدون وعي إلى الإعراب عما يرى أو يشهد أو يتأمل).[٢]

(والشاعر الحق هو الذي تتضح في نفسه تجربته ويقف على أجزائها بفكره ويرتبها ترتيبا قبل أن يفكر في الكتابة ... والشاعر يعبر في تجربته عما في نفسه من صراع داخلي سواء كان تعبيرا عن حالة من حالات نفسه هو أم عن موقف إنساني

[١] محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، ١٩٩٧، ص (٣٦٣)
[٢] مصطفى السحرتي ، الشعر العربي المعاصر ، مطبعة المقتطف ، ص ٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عام تمثله . لذا كان في طبيعة التجربة والتعبير عنها ما يحمل الجمهور على تتبعها ، لأنه يتوقع أن يرى منها ما يتجاوب وطبيعة التجربة التي جعلها الشاعر موضع خواطره ليجلو صورتها) .[٣]

(فالشاعر هو الذي يخلق موضوعه وتجربته في عقولنا حتى لنرى ما يراه فليس هو الواصف فقط للمرائي والمشاهد) .[٤]

وضمن هذا السياق لا يستطيع الشاعر العربي عموما والفلسطيني بصفة خاصة أن يخرج من ذاته فهو ابن بيئته ومناخها النفسي والاجتماعي والثقافي والوطني ، وحتى أولئك الذين ينادون بنظرية "الفن للفن " لا يستطيعون أن يتجاهلوا وجود الشاعر في كل زمان ومكان .

وعندما يكون الأمر متعلقا بشاعر فلسطيني شرد مع أهله بعد نكبة عام ١٩٤٨ ، فانه دون شك يكون قد تأثر تأثرا عميقا وقويا بهذا المحيط ولا بد أن يظهر ذلك في شعره وأعماله الأدبية .

(لقد تفجرت عواطف شعراء النكبة من أحداث تلك المحنة، وانبثقت من جوانبها واتسقت مع سيرها ، فهي تارة عواطف قلق واضطراب ، وأخرى عواطف هدوء واستقرار ، إنها عواطف متعددة ومتنوعة ، منها الأسى والأسف والحزن ، ومنها البهجة والسرور ، ومنها الإعجاب بالبطولة والشجاعة ، واحتقار الجبن وبغض الاستعمار ، ومن ذلك ايضا الغضب والحقد ، ومنها كذلك الحنان والإشفاق ، والفخر والحماسة والرجاء واليأس والتفاؤل والتشاؤم والرضا والسخط) .[١]

انتقل الشاعر يوسف الخطيب تدريجيا من مستوى إلى آخر وهذه عادة الشعراء الناشئين الذين عادة ما يبدأون حياتهم الشعرية مقلدين لسابقيهم وبعد ذلك يسلك كل منهم السبيل الخاص به.

وإذا كان الشاعر " يوسف الخطيب " قد نظم في مطلع حياته شعرا تقليديا فلا يعني هذا أنه من شعراء المدرسة التقليدية (إذ لا بد لكل شاعر في بداية حياته الأدبية أن ينظم على الشكل القديم ليثبت شخصيته ويحقق ذاته الشعرية ومن ثم سيكون له الصدارة في بلورة صورة الإنسان الفلسطيني وقضيته من خلال النمط الرومانسي والنمط الواقعي).[٢]

---

[٣] محمد غنيمي هلال ، مصدر سابق ، ص ٣٦٤.

[٤] مصطفى السحرتي ، مصدر سابق ، ص٢٨.

[١] كامل السوافيري ، الشعر الفلسطيني في مأساة فلسطين ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٣٧.

[٢] واصف أبو الشباب ، شخصية الفلسطيني في الشعر الفلسطيني ا لمعاصر ، دار العودة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨١،ص٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولهذا فقد رأينا أن نقسم تلك التجربة إلى مراحل متعاقبة يفصل بينها تواريخ محددة هي الفواصل بين هذه المراحل . ومع أن من البديهيات لدى الناقد الحصيف أن مثل هذا التقسيم الزمني لا يمكن إلا أن يكون اصطلاحا تقريبيا غير قطعي لأنه ما من شعر أو فكر يمكن أن يقسم على هذا النحو وفق تواريخ زمنية قطعية . ومع هذا فاننا نرى أن هذا التقسيم التقريبي قد يكون عاملا مساعدا في إظهار المفاصل الرئيسية لهذه التجربة .

المرحلة الشعرية الأولى
في سني التحصيل الجامعي
(١٩٥٠-١٩٥٥)

لقد استيقظ الوجدان العربي فجأة بعد الحرب العالمية الثانية على جرح هائل في كبريائه ، حيث اغتصبت فلسطين وتشرد أهلها في الداخل والخارج في مأساة غير عادية وغير عادلة، واندفع الجيل الأول لشعراء النكبة من واقع إحساسهم بخطورة المرحلة في حماسة للتعبير عن رفضهم لهذا الواقع .

وقد انطلقت تجربة يوسف الخطيب الشعرية في مطلع الخمسينات في الفترة ما بين ١٩٥٠-١٩٥٥ عند صدور ديوانه الأول " العيون الظماء للنور " مما يقودنا للحديث عن تلك المرحلة الشعرية من حياته .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كان من اللافت للنظر أن يصف نزار قباني يوسف الخطيب بأنه(أحد فتيان النكبة ومغني المأساة الأول الذي أعطاها نور عينيه ووهج شراييه) .[١]

ويحدثنا الشاعر بنفسه عن هذه المرحلة فيقول :

(تتزامن هذه المرحلة مع الذروة الفاجعة لأعظم مأساة وطنية وإنسانية ألمت بشعب عربي بأسره في منتصف القرن العشرين ، باصطناع الدولة الصهيونية قسرا على تراب فلسطين ، وما استتبع ذلك من تشريد لمئات الألوف من اللاجئين)[٢] . ثم يستطرد فيقول أيضا : (في هذه المرحلة كان جرحنا الفلسطيني ما يزال طريا وفائرا كيوم المعركة)[٣].

وبناء على ماسبق فقد كانت النكبة عاملا قويا في إثارة عواطف الشاعر وتفجر قريحته الشعرية . لذلك كان طبيعيا أن تبرز مظاهر النكبة في شعره في تلك الفترة ، ولا غرو في ذلك فهو الشاعر اللاجئ الذي عاصر النكبة وعاشها بدمه وأعصابه .

يقول الدكتور صالح الأشتر " إن النكبة كانت نعمة خالصة على الأدب العربي المعاصر والشعر منه خاصة " [٤].ولا شك أن النكبة قدمت للأدب مادة واقعية غنية ليعيش الأدب تجربة تلك الأمة ، ويكون أدبا هادفا صادقا حيا ، ويكون الأديب صاحب رسالة.

وهذا ما نلحظه مع الشاعر يوسف الخطيب حتى إنه لم يكتف بتصوير المأساة الفلسطينية بل إنه تجاوب مع أحداث التحرر في جميع أقطار الوطن العربي .

(وعند خيام اللاجئين تلاقى شعراء النكبة ومن الشقاء الرابض في الخيام السوداء استوحوا مادتهم الشعرية)[١] . فقد استوحوا اسماء دواوينهم من وحي خيام اللاجئين فسمى "أبو سلمى" ديوانه الأول " المشرد" وخليل زقطان سمى ديوانه " صوت الجياع " وهارون هاشم رشيد أرسل ألحانه الباكية " مع الغرباء " وأهداه إليهم . أما شاعرنا يوسف الخطيب فقد سمى باكورة أعماله الشعرية "العيون الظماء للنور " .وأهداه إلى العيون الظماء للنور ، العطشى للضوء (إلى أفراد أمتي الحائرين في ظلام الجهل والعبودية) [٢]. وقد عد بعض النقاد الإهداء بمثابة مفتاح للديوان ينبئ عن نظرة

---

[١] نزار قباني ، مجلة الآداب ، العدد العاشر ، ١٩٥٧، ص ٧٦.وقد جاءت هذه المقالة تعقيبا على إحدى قصائد يوسف الخطيب في باب "قرأت في العدد الماضي" .

[٢] يوسف الخطيب ، مجموعة قصائد مستقلة ، ص ١٥

[٣] المصدر السابق ، ص ١٥

[٤] صالح الأشتر ، في شعر النكبة مطبعة جامعة دمشق ، ط١ ، ١٩٦٠ ، ص٩٤.

[١] المصدر السابق ، ص ٥١.

[٢] يوسف الخطيب ، العيون الظماء للنور ، المطبعة العمومية ، ص١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صاحبه للفن والحياة ، (فقد يشير إلى نزوع الشاعر إلى الرومانسية أو إيثاره للشعر القومي والاجتماعي ، وقد ينم أيضا عن اتجاهه السياسي) .[٣]

بل (إن مجرد اهتمام الشعراء بوضع مقدمات لدواوينهم الشعرية أمر جديد لم يعرفه العرب قديما وهذا يدل من بعض الوجوه على أن الشاعر الحديث أخذ يعبر فيما ينظمه عن مفهوم أو رأي أو هدف أو اتجاه ، وأنه ازداد إدراكا لما ينبغي قوله أو عدم قوله) .[٤]

وقد قدم شاعرنا لديوانه الأول بمقدمة طويلة جاء فيها :

(في هذه الصفحات التي بين يديك رحلة أولى حذو الشاطئ . إن الزورق صغير، ولعله يجدر بالملاح أن يهمس في سمعك منذ الآن بأنه لم يزل في أول عهده بالتجربة).[٥]

في تلك المقدمة تابع حديثه عن الصورة الشعرية والأسلوب الشعري والمحتوى الشعري والموسيقى الشعرية مما يوضح أهمية تلك المقدمة في تفهم نتاجه ورصد اتجاهه لما تلقيه من أضواء على آثاره الفنية .

وقد علق الدكتور ناصر الدين الأسد على تلك المقدمة قائلا :

(لا يملك القارئ لشعر يوسف الخطيب إلا أن يقف طويلا عند تلك المقدمة التي كتبها لديوانه الأول " العيون الظماء للنور " . وقد تحدث شاعرنا في مقدمة ديوانه المذكور عن الصورة الشعرية والموسيقى الشعرية والأسلوب الشعري وكان شعره في هذا الديوان يتسق مع بعض ما ذكر عن هذه الأمور الثلاثة...وفي تلك المقدمة من العمق والشاعرية ما لا يستطاع عرضه ملخصا ، فالكلمة الشعرية والصورة الشعرية والموسيقى الشعرية كل ذلك له دلالاته الواضحة في نفس شاعرنا . أما مشكلة التجديد والتقليد فقد استطاع بحسه المرهف وذوقه السليم أن يلمس جوانبها وأن يكشف عن كثير من الزيف في فهمها ..ويتابع قائلا : وقصائد الديون لاشك أعلى منزلة مما توحي به الأسطر التي جاءت في مقدمة الديوان، فهذا الأداء الفني خير من كثير من الشعر الذي ينظمه بعض شعرائنا المشهورين هذه الأيام ".[١]

والواقع إن كثيرا من شعره في تلك الفترة كان شعرا إنشاديا قويا كالبركان الهادر، إذ أنه يعلو ويهدر كدوي المدافع . فلقد (كانت بدايات الموقف الاجتماعي بدايات

---

[٣] د. عمر الدقاق ، الاتجاه القومي في الشعر العربي المعاصر ، ط٢ ، حلب ، مكتبة الشرق ، ١٩٦٣، ص٣٩٥.

[٤] المصدر السابق ،ص ٤٢٥.

[٥] يوسف الخطيب ، العيون الظماء للنور ، ص٨.

[١] ناصر الدين الأسد ، الحياة الأدبية في فلسطين والأردن حتى عام ١٩٥٠ عمان ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، ط١،٢٠٠٠ ، ص٥١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انفعالية ثائرة نراها في أعمال عدد لا بأس به من الشعراء العرب الذين اتخذوا من الانفعال الثائر أساس موقفهم الاجتماعي)[٢] وكان طبيعيا أن يسمي الشاعر تلك المرحلة بمرحلة "الجرح الفائر " . إذ لا يستطيع المرء أن يهمس بأبيات غنائية إنشادية فجائعية ، وكيف يهمس المرء بأبيات مثل :

أنا مشعل أنا مارج جبـــــــار لا الريح تخمدني ولا الإعصار
سأمد في الآفاق ألسنة اللظـــى حمرا لها في الخافقيـــن أوار
ولأحرقن الليل حتى تنجلـــي أسدافه فتوقدي يا نـــــار
للميتين دموعهم وجراحهـــم ولجذوتي ساح الوغى والثـــار
ولسوف أغسل جبهتي حتى ترى مثل الضحى ويزول عنها العـار
ومشيئتي قدر على أقدامـــه تتمسح الأيام والأقـــدار
أنا مجرم أنا حاقد أناسيـــئ حتى تعود إلى ذويها الـــدار[٣]

وشاعرنا ينثر في شعره بعض القضايا الوطنية فينقلها من مجالها السياسي إلى رحاب التعبير الشعري ، فهو يشير إلى الدعوة التي ترمي إلى تخيير اللاجئين بين الاستيطان حيث هم أو في بعض البلاد الأخرى مع تعويضهم عن بعض ما فقدوه ، وبين عودة من لا يقبل منهم الاستيطان إلى بلدهم السليب تحت الحكم الإسرائيلي:

أنا للحياة ولن أظل مشردا أقسمت: لا أرضى ولا أختار

وهو بذلك يرد على دعاة التسليم الذين يتناسون ظروف وطننا بقوله :

قسما بفيض الدمع والدم والأنين على الرغام
سيعود أهل الدار رغم مخالب الظلم الدوامي
رغم الذئاب هناك في الكهف المبطن بالرخام
لا سلم إن اللاجئين اليوم أعداء الســـــلام
سيظل هاتفهم يعيد حكاية الدم والعظـــــام[١]

ثم يلمح قبره تطير بحرية عبر الحدود التي وضعها الاحتلال غير مكترثة بالقوانين فيشعر الشاعر بحرقة مأساوية لعجزه عن محاكاة هذا الطائر ، وهو يشير بذلك إلى قرار التقسيم الذي أقره اليهود ، فيخاطب اللاجئ بحرقة مأساوية باكية في قصيدة بعنوان " همسة إلى لاجئ":

---

[٢] السعيد الوراقي ، لغة الشعر العربي الحديث ، دار المعرفة الجامعية ، ط١، ١٩٩٨، ص ٢٧.

[٣] مشيئة الجبار ، العيون الظماء للنور ، ص ١٧-٢٣.

[١] مشيئة الجبار ، العيون الظماء للنور ، ص ١٧-٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تلك يا صاح قبره في الحدود
خرقت ألف حرمة للعهود
فهي تغدو طليقة وتروح
وأنا مثخن هنا بالجروح
ليتني كنت قبره فأطير
وجناحي مصفق في الأثير
فوق بيارة لنا وغدير[٢]

(لقد ألح الشعراء على تصوير مظاهر البؤس والفقر في مخيمات اللاجئين وما يرافق ذلك من شعور بالغربة والتمزق ، والخوف من المجهول وعدم الثقة بالنفس أحيانا).[٣]

وقد كان الدكتور ماهر حسن فهمي محقا حين وصف هذه الحالة التي عبر عنها الشعراء بأنها (غربة شعب ممزوج بعذاب لا نهاية له) .[١]

وفي هذه الغربة أخذ الإنسان الفلسطيني يعي أنه يعيش واقعا لا يستطيع أن يتآلف معه وقد راح الشاعر يستقصي ذلك ويعبر عنه وها هو يوسف الخطيب ينطق عن هذا الإنسان في قصيدته " جبهتي تنكر الخيانة" :

يالدنياي عالم مغلق السر عصي على اللبيب اللبيب
إن صحبي توزعوا الموت والذل بعيدا في كل أفق غريب
كم تأملت في سنيّ فأبصرت جدار الفناء جد قريب
ربما كنت آثما غير أني أسأل الحاكمين : أين ذنوبي![٢]

إن هذه التهمة تعمق الإحساس بالغربة وتجعل الإنسان موزع الذهن بين واقع مرير ونفس معذبة، ولعل كل هذا هو مصدر النغمة الرثائية التي تنبعث من كثير من القصائد وكأنها تذكرنا بالمقدمات الطللية في الشعر القديم :

في الظلام الحزين أقرع ناقوسي حدادا على الطلول الدواثر

---

[٢] همسة إلى لاجئ (العيون الظماء للنور) ، ص ٣٢.

[٣] خالد علي مصطفى ، الشعر الفلسطيني الحديث ، المكتبة الوطنية ،بغداد ، ١٩٧٨، ص ٨٨.

[١] ماهر حسن فهمي ، الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ط١ ، ١٩٧٠،ص٨٦.

[٢] العيون الظماء للنور ، جبهتي تنكر الخيانة ، ص ٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنادي في الريح أشتات قومي فيجيب الصدى وصمت المقابر
أتراني في خيمة الليل وحدي أيهذا الدجى أمالك آخر! [٣]

ثم يتوجه الشاعر إلى إخوته اللاجئين في خيامهم يعــزّيهم بمصــابهم ومصــابه وانفعاله هذا دافعه حرارة المصير ، من تشريد ولجوء وخيام :

إخوتي في الخيام قدمت إكليلــي عزاء ولم أزل في حـــدادي
أحسب النازحين لم يبرحوا الدار سوى أمس في الصباح النادي
يوم قالوا : غدا نعود وما عادوا وهاموا في كل قفـــر وواد[٤]

وبالرغم من بساطة القصيدة فان الشاعر يشير فيها إلــى معظــم الموضــوعات الشعرية التي تناولها الشعراء الآخرون والتي يكمن وراءها واقع مادي ،ونلمــح فــي قصيدته " الجحيم المفقود" ملامح واضحة لصورة فئة من جيل النكبة، فئة مثقفة شاعرة لم تحتمل أعصابها عنف الكارثة وأحوالها ،ففقدت إيمانها بكل شيء، واستبد بقلبها قلق جاحد كافر ، ففي تلك القصيدة نلمح روحا متمردة ناقمة على الوجود كله بسبب سلب فلسطين وتشريد شعبها،فهي معبرة إلى أقصى حدود الغضب والنقمة على الدنيا بأسرها فها هو يصف لاجئا بائسا حاله كحاله :

كم تنزت بين الضلوع كلومه
والقذى كأسه فأين نديمـــــه
ياله ميت الكرامة مرغـــــم
ضاع فردوسه وضاع جحيمه
ليس يدري فناءه من وجــوده
ليس يدري انتهاءه من خلوده
ليس يدري إيمانه من حجوده
.....
هكذا يا إله يشقى عبيـــــدك
أين وعد الأبرار أين وعيــدك
أين عدل الحياة فيم وجــودك؟[١]

لكنه ما يلبث أن يثوب إلى رشده ليتبرأ من كفره وتفيض من قلبه الجريح ثــورة روح سجينه تنشد الفكاك من قيود المذلة والتحرر والانطلاق:

---

[٣] من قصيدة "العيد يأتي غدا" "العيون الظماء للنور " ص ٨٣.
[٤] العيون الظماء للنور ، ص ٥٨.
[١] العيون الظماء للنور ، ص ٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لست بالكافر الذي يتجبـــــر
أنا روح يريد أن يتحـــــرر
أنا بالقيد والمذلة أكفـــــــر
.....
أأصلي لمن تكون صلاتـــي ؟
لاجئ ليس لي هشيم حيـــــاة
ليس لي حفرة تضم رفاتـــــي
موطني ..هذه بقية نفســـــي
كل شيء ضيعته غير رجسي
غير إثمي يحتل أرجاء نفسي

انفعالات حادة تتنازع نفسه نتيجة للظلم والاستبداد . وتلك الانفعالات كانت طبيعية كما أسلفنا خاصة في تلك الفترة العصبية من تاريخ أمتنا .

وها هو ينادي على نفسه بأعلى صوته باحثا عن أناه :

يا أنا يا سلعة هنية للمشتريـــــــــــن
يا أنا يا قدحا في سهرات المترفيـــــــن
في ضلوعي أي إعصار من الحقد الدفين
تلك آفاتي : دماء وخراب وسجـــــون
وجباه في الدجى تنزف خمر الحاكميــن
وأرى نفسي في سوق العبيـــــــــــد
يهتف البائع والشاري يزيـــــــــــد
ويمر الموكب الرسمي فينـــــــــــا
جاءنا اليوم رسولٌ يشترينـــــــــــا[١]

ويتجلى إبداعه في قصيدة " العيون الظماء للنور " والتي يصف فيها معاناة الأمة العربية متخذا من شعب فلسطين نافذة يطل منها على الشعب العربي :

سيدي هذه جماجم قتلانـــــا عروش مزهوة وقصـــــور
سيدي هذه قذارة أيدينـــــا رياش ومخمل وحريـــــر
والدموع التي نريق مع الليل كؤوس على الشفاه تـــدور

[١] يوسف الخطيب ،العيون الظماء للنور ،ص ٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نحن يا سيدي غذاء لياليـــك وهذا قرباننا والبخـــــور
كم عصرنا جراحنا ملء كفيــك ليشفى غليلُك المسعـــور[٢]

(والفن إما أن يسبق العمل كمبشر به وحافز عليه ، وإما أن يأتي بعــده يرجــع صداه ويصور الحنين إليه . ونحن الآن في عهد ممهد للإيمان ولا يزال للفن والفكــر دور خطير فيه) [٣].وهذا ما تنطق به الأبيات التالية:[٤]

لم نزل نرقب الخلاص ولا بــد سيأتي بعث لنا ونشـــور
يوم نمضي إليك يا أيها العاتـــي ويوم الحساب يوم عسيــر
وقديما كانت لنـــا هذه الأرض ولسنا أقنانها يا أميـــــر
وإذا نفخة من البعث في الصور فتهتز في الرحاب القبــور
ثم شعت أعماقنا البيض بالفجر وماج السنا ، وضج النفيــر

والعيون الظماء للنور في الكهف أفاقت وقد جلاها النـــور[١]

يقول مطاع صفدي : "إن يوسف الخطيب يضع المشكلة العربية وضعا شــاعريا ملؤه الإحساس والعنف والتجسيم لخطوط المشكلة كما يحياها عربي ينفعل بالأحــداث دون أن يمنعه هذا الانفعال من الانفصال عنها وإنارتها ومحاولة قيادتها، هكذا كما كان يفعل النبي ، عندما يسمي الحق فهو يوجده " ويتابع قائلا : "وإذا كان من شعر في تلك الفترة فهو الشعر الذي يجلجل به يوسف الخطيب ".[٢]

ومهما يكن من أمر فان شعر يوسف الخطيب في تلك المرحلة وهو يتصــل فــي معظمه بالروح العائد إلى فلسطين، ومن ثم بشعر قضيتها المقاوم، سواء مــن خــلال حديثه عن اللاجئين ، أو عن العودة إلى الوطن أو الدعوة إلى الثأر ، فان شعره كــان مصداقا لشعر الالتزام الثوري .

لقد قدم يوسف الخطيب منذ البداية صورة للواقع النفسي الذي خلفته النكبة – واقعا يحدده الشاعر بين الانكسار والذكرى الأليمة– . وقد تناول الشاعر معظم الموضوعات الشعرية التي تناولها الشعراء الآخرون والتي يكمن وراءها واقــع مــادي واضــح ، (وتصور قصائده هذا الواقع في كثير من الأحيان بطريقة يمكــن أن نطلــق عليهــا

---

[٢] العيون الظماء للنور ، ص ٩٤-١٠١.

[٣] ميشيل عفلق ، مقدمة ديوان العيون الظماء للنور ، ص ٦.

[٤] شهدت سورية في تلك الفترة سلسلة من الانقلابات العسكرية إذ كانت مسرحا للتقلبات السياسية .

[١] العيون الظماء للنور ، ص ٩٤-١٠١.

[٢] مطاع صفدي ، مقالة بعنوان (شعرنا القومي وديوان العيون الظماء للنور) الآداب ، يناير ، ١٩٥٥، ع١ ، السنة الثالثة، ص١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"قصص الملاجئ")[٣]، وهي صور غالبا ما تلح على الرغبة في العودة وتذكر الوطن ، وإن كانت عواطف معينة قد بلغت أعلى درجاتها في موضوع معين مثل الأخذ بالثأر والانتقام عند يوسف الخطيب .

وكما أسلفنا فان الحركة الشعرية التي تلت النكبة (تتسم بالغنائية الفجائعية التي أملتها خصوصية تاريخية وأحلت محلها خصوصية تعبيرية أحالت الفجيعة إلى أغنية راعشة يسكنها شيء من انتشاء الألم).[٤]

وعموما فقد كان شعره في تلك المرحلة صرخات عنيفة في وجه الظلم والاستعباد وثورة عاتية على الظلم والاستعمار وحضا على البذل والفداء وتقديم الضحايا والشهداء. وذلك يناسب الانفعالات القوية في تلك المرحلة التي ستبدأ بالفتور شيئا فشيئا في المرحلة القادمة، كما سنرى.

المرحلة الشعرية الثانية
في سني التشرد والاغتراب
(١٩٥٥-١٩٦٠)

وفي تلك المرحلة سنلاحظ جنوح الشاعر نوعا ما إلى الرومانسية في بعض قصائده ويظهر ذلك من خلال عناوين بعض تلك القصائد مثل ("العندليب المهاجر " ، "من بحر يافا النسيم" ، "نغم لم يتم " ، "النرجسة الحمراء "، "عائدون" ..) .

وقد أطلق الشاعر على تلك المرحلة " مرحلة العندليب المهاجر "حيث قال:(.....لم أطلق على تلك المرحلة تسمية "العندليب المهاجر" لمجرد واقعة عارضة، ...وإنما لانطباق تلك التسمية على واقع حي عشته بكل جوارحي أثناء ما كانت تتمزقني حالة من القلق الحاد: أين أتجه ؟ وأين أستقر ؟ محروما تماما من خياري الأساسي ، والطبيعي في وطن أحلامي وملعب صباي فلسطين !! ففي نطاق هذه المرحلة الوجيزة التي لا تزيد على ست سنوات، لم أبرح أحاول الإقامة والاستقرار هنا أو هناك ، فأضرب عصا الترحال من الشام إلى السعودية ...ثم من السعودية إلى الأردن ...فمن الأردن إلى الشام ...فمن الشام إلى مصر ...فمن مصر إلى الكويت (خاصة في سجنها العمومي) فمن الكويت إلى لبنان ...فمن لبنان إلى هولندا بمتاخمة القطب الشمالي (عندما نبذتني بضعة أنظمة عربية من نعمة الإقامة في حماها) . ولم

---

[٣] خالد علي مصطفى ، الشعر الفلسطيني الحديث ، ص ٨٤.

[٤] نظمي بركة ، الاتجاه الرومانسي في الشعر الفلسطيني المعاصر ،غزة دار الفجر ، ١٩٩٥ ،ص٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أكن أقرأ في الغيب عندما وضعت قصيدة " العندليب المهاجر" حزيران ١٩٥٥ أنني أنا الذي سأكون فريسة لكل هذه الهجرة والتشرد والاغتراب !!) [١]

ونستطيع أن نمثل لهذه المرحلة بديوان " عائدون "، والقارئ لهذا الديوان يجد موسيقاه الشعرية في كثير من الأحيان قد خف جرسها وهمدت حركتها أو كادت . ولا يكاد يعثر القارئ على الكثير من القصائد التي تتناول قضايا اللاجئين والحديث عن فلسطين سوى أربع قصائد من مجموع خمس عشرة قصيدة هي مجموع قصائد الديوان.

على أن من أجمل القصائد في ذلك الديوان وبإجماع معظم النقاد قصيدة "العندليب المهاجر " وللقصيدة مناسبة خاصة حدثنا الشاعر عنها قائلا : "كنت قد تخرجت توا بإجازة في الحقوق ودبلوم اختصاص في الحقوق العامة من الجامعة السورية في صيف عام ١٩٥٥م، ولم يبق لي إلا أن أقول وداعا يا دمشق ...ومرحبا يا أيها الأفق المجهول ...فها أنذا أهيم على غير هدى في عاصمة الأمويين شارد الفكر ، منسرح الخيال إلى أي شطر من ملكوت الله ، هكذا يمكن أن أشد رحال المستقبل ؟ ...ذلك عندما لمحت عندليبا يحط على شجرة الحور المقابلة ،فما كان إلا أن استردني من شرودي ثانية، وخالجتني على الفور خاطرة بارقة كلمح البصر بأن هذا العندليب أيضا ربما كان لاجئا مثلي من فراديس فلسطين، وقد أعطى جناحيه للريح يقتفي أثر الإنسان الفلسطيني فوق كل أرض وتحت كل سماء"..![١]

(لقد رأى يوسف الخطيب وطنه وشخصيته من خلال العندليب المهاجر) .[٢]

فما ذلك العندليب الذي هرب من الظلم إلى حيث الانطلاق والحرية سوى صورة لنفس الشاعر المعذبة ورمز لمأساة وطنه :

أتراك مثلي يا رفيق تمر في الزمـــن
عبر المهالك والليالي السود والمحـــن
تذرو بقيةعمرك الصادي بلا ثمـــــن
لكأن في عينيك بعض اللمح من وطني
أنا هاهنا يا صاحبي أقضي عشياتـــي

بي لهفة يا صاحبي مشبوبة النـــار

---

[١] يوسف الخطيب ، مجموعة قصائد مستقلة ، ص ٥٥.

[١] المصدر السابق ، ص ٥٥.

[٢] حسني محمود ، شعر المقاومة الفلسطينية في المنفى ، ج٣ ، الدار العربية للتوزيع ، عمان ، ١٩٨٤، ص١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كيف الحقول تركتها في عــرس آذار
ومتى لويت جناحك الزاهي عن الدار
عجبا تراك أتيتنا من غير تذكـــــــار

لو قشة مما يرق ببيدر الـــــــــدار
خبأتها بين الجناح وخفقة الكبـــــد
لو رملتان من المثلث أو ربى صفــد
لو عشبة بيد ومزقه سوسن بيـــــد

أم جئت مثلي بالحنين وسورة الكمــد
عهدي بدار طفولتي فردوس أحلامـــي
أنشودة هي جمعت من كل إلهـــــامِ
من ناي راعية ومن أجراس أغنـــام
وحفيف غاب واختلاجة جدول هـــام
داري وفي عيني والشفتين نجـــــواك
لا كنت نسل عروبتي إن كنت أنساك [١]

سيطرت على الشاعر خلال الأبيات السابقة رؤية رومانسية تنبع مــن تجربتــه الشعرية كشاعر فلسطيني عاشق لوطنه ، متأثرا إلى حد بالغ العمق والحدة بمأساة هذا الوطن وضياعه ، إذ صور يوسف الخطيب حنينه إلى الوطن،إحساسه بالغربــة مــن خلال الحوار الذي أجراه بينه وبين ذلك العندليب. وتجمع القصيدة السابقة بين نــزف الألم لهذا العندليب ، ورحيل العندليب ، وتزخر بكل تذكارات الغربة والنفي والتشريد مع بعد عن أي نزعة خطابية.

لقد لجأ الشاعر إلى الطبيعة من خلال اندماجه مع العندليب ، لكن لجوءه هنا لــم يكن لجوءً هروبيا كغالب الشعراء الرومانسيين بل كان يصور الطبيعــة مــن خــلال انفعالاته وأحاسيسه ورؤاه ، يصور صمود الفلسطيني بصمود (القبرة) فــي دفقهــا وقدرتها على النيل من عدوها (ويتسلل الشاعر برومانسيته لطيفا كصوت المزمار في ليالي الربيع محاربا اليأس والتشاؤم ليخرج بصورة رائعة للإنسان الفلسطيني الصادق

[١] قصيدة (العندليب المهاجر) – عائدون – ص ١٢-١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في كفاحه ونضاله وفدائيته التي تزداد التهابا عندما تهيجه الذكرى ، ذكـرى وطنـه السليب بعد معاناة الغربة) :[٢]

داري وفي عيني والشفتين نجواك لا كنت نسل عروبتي إن كنت أنساك

والواقع أن (بعض الشعراء استعان بحيلة فنية معروفة وشائعة لتهدئه عواطفـه الباكية وهي إسقاط ما في النفس على بعض مظاهر الطبيعة لوجود قرائن مشابهة لـه تشاركه عواطفه وتخفف شيئا من ألمه) .[٣]

وهذا ما حدث في القصيدة السابقة بين " العندليب المهاجر " والشاعر من خـلال الحوار الداخلي فكلاهما يعاني الغربة وكلاهما يتشوق لرؤية وطنه .

ثم تأخذ الشاعر يوسف الخطيب أمواج عارمة من الحنين إلى قريتـه ونسـيمها العليل ، فإذا نفسه ذائبة في جدائل الزيتون والخفافيش والغربان الخريفية :

أقريتنا ، سألت الريح إن مرت بأطـــــلالكْ
وأسراب الصقور المتخمات ، سألت عن حالكْ
تظل جدائل الزيتون طول العام مرخيـــــة
على دار لنا في وحشة الأطلال منسيـــــه
يلوح ركامها المهجور أشباحا ضبابيـــــه
تظل البومة الحدباء والخفاش والغربـــــانْ
تحوم على جدار ، كان للأحلام يوما ...كـانْ
أقريتنا نفرت إليك أسراب العصافيـــــرْ
رسائل من كنوز الشوق خضراء التعابيـــرْ
أقول لها ...إذا وافيت عند النهر قريتنـــــا
فحطي بعض ساعات وبثي الدار لوعتنـــا
لتحلم باللقاء العذب كل براعم الحقـــــل
وكل مدارج الشنار من تل إلى تـــــل [١]

تطالعنا في هذه القصيدة مسحة واضحة من الرومانسية حيث خفف الشاعر مـن غلوائه قليلا وتتضح فيما بعد صورة الإنسان الفلسطيني الحالم بالعودة إلى وطنه وهي قصيدة ذات نغم حزين باك .

---

[٢] الاتجاه الرومانسي في الشعر الفلسطيني المعاصر – مصدر سابق – ص١٢٣.

[٣] الشعر الفلسطيني الحديث ، مصدر سابق ،ص ٦٨.

[١] بحيرة الزيتون ، ديوان عائدون ، ص٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن ذلك الحزن العميق لم يمنع الشاعر من الدعوة إلى الصمود والثورة والتمرد على الظلم ، إذ إنه سجل الإصرار على العودة في وقت مبكر وكما أسلفنا فقد (تميز الاتجاه الرومانسي في الشعر الفلسطيني بعد نكبة ١٩٤٨ بالثورة على الواقع أو مايسمى بالرومانسية الثورية).[٢]

كانت تلك الرومانسية هي السبيل للتعبير عن تلك المحن ، وإلى جانب اللجوء إلى الطبيعة كما لاحظنا في قصيدتي "ا لعندليب المهاجر "و"بحيرة الزيتون" فقد (ظهرت بين الشعراء عموما نغمة حزينة مشتركة بين الشعراء الفلسطينيين والشعراء العرب، وإن كانت بين الشعراء الفلسطينيين أكثر حدة بسبب القلق والخوف على ضياع الأرض ، ثم الثورة فيما بعد على المحتل ، حيث اخذت هذه النغمة بعد النكبة تعلو وتطغى على النغمات الإيجابية الأخرى ، وقد بدأ هذا الخوف مستكينا مندهشا مصدوما في بادئ الأمر ،ثم بدأت تتسلل إليه نغمة تمرد حادة ومباشرة لم تأخذ طابع الشجى الذي كان لدى الشعراء العرب)[٣] . وقد كانت تلك النغمة ظاهرة وبارزة في شعر يوسف الخطيب في تلك المرحلة . وعلى أية حال تبقى الرومانسية في الشعر العربي معبرة عن تطلعات أبناء هذا الوطن لأنها تنظر إلى المستقبل ، وهي تمنح أملا لكل المكبوتين ، وتتطلع من أجل نظام اجتماعي جديد أو مجتمع مثالي ، وبذلك ربطت الرومانسية نفسها بالدفع الثوري ، وفي الحقيقة (لا نستطيع أن نسلم بأن الشاعر العربي قد تخطى الإحساس الرومانسي ونفض أعماقه من تطلعات الذات الرومانسية، وصفى قصيدته من غنائيتها نهائيا)[١] . ونحن نؤكد على ذلك لأن الشاعر العربي المبدع لا يستطيع الابتعاد عن الرومانسية ، فالارتباط الرومانسي بين الشاعر ونتاجه ظاهرة موجودة لأن الرومانسية (لم تنته من حياتنا نهاية حقيقية، وربما لن تنتهي لأن معنى انتهائها انتهاء الإحساس الرومانسي وهو متعذر).[٢]

"والرومانسية " وإن اتسمت أحيانا بالسلبية التي تظهر في التشاؤم واليأس لكنها تعطي روحا إيجابية تتجلى في التفاؤل والتحدي والتمرد والثورة على الظلم" [٣]. بل إن (من مظاهر التفاؤل في شعر النكبة أن تلتهب في جوانبه الدعوة إلى الثأر وأن تغلي فيه عزيمة التصميم على العودة إلى الوطن) .[٤]

---

[٢] الاتجاه الرومانسي في الشعر الفلسطيني المعاصر ، ص ٥٨.

[٣] المصدر السابق ، ص ٦٥.

[١] المصدر السابق ، ص٣٩.

[٢] المصدر السابق ، ص ٣٩.

[٣] الاتجاه الرومانسي في الشعر الفلسطيني المعاصر ، ص٣٩.

[٤] صالح الأشتر ، في شعر النكبة ، ص ٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كان ذلك العزم والتصميم على العودة واضحين في شعر يوسف الخطيب في معظم قصائده خاصة في تلك الفترة التي نتحدث عنها الآن ، حتى إن الانفعالات قد بلغت أوْجَها في موضوع الثأر والانتقام ، إذ سجل الإصرار على العودة في وقت مبكر في أشعاره مشيرا إلى الارتباط النفسي والعضوي للشاعر بالوطن وإلى توق اللاجئين المتقد للخلاص من عار الهزيمة والتشرد والانتقام من المعتدين ، وها هو في نهاية القصيدة السابقة " بحيرة الزيتون " رغم رومانسيتها ونغمها الحزين ، يطالعنا بأبيات تملؤنا عزما وأملا في العودة :

تكاد خيامنا – حتى الخيام يريبها الظن
سوى أنا وإن طال الزمان وشاخت السن
ففي أرحام نسوتنا بذور الثأر نجتن [٥]

(غير أن مرور الزمن على الكارثة خفف من جراح القلق والحيرة عند شعراء النكبة فخفت صوت الحقد والضغينة في نفوسهم وجدت عوامل كثيرة أعانت على كبح جماح اليأس في قلوب المنكوبين كانفجار الانقلابات الشعبية في كل طرف من أطراف العالم العربي)[١]

وبتقلص ظلال اليأس أشرق التفاؤل في شعر النكبة وأشعل من جديد حرارة الإيمان بالشعوب العربية :

غرة البعث أشرقت تسحب النور وعلى البيد والقرى والحواضر
فاعصري يا أكف منها نبيذا واستحمي في ضوئها يا نواظر[٢]

حيث حمل يوسف الخطيب في قصائده اللهب والدم والإيمان الذي لاينتهي بأمته وأرضه ، ولطالما تفجرت تلك القصائد بهمومها العربية:

اليوم يا تاريخ قف لحظة لحظة إجلال على النيل
وأنظر مدى عينيك هل تجتلي سوى مدى بالنور مغسول
تهادت الرؤيا على رحبه عرائسا خضر الأكاليل
أفراحنا...إما عجاج الوغى في الخطب أو موال حصاد
من ذروة الأوراس حتى الربى الخضر طلقا على آفاق بغداد
تحطم القيد الذي شدنا واشتعلت في كهفنا النار[٣]

---

[٥] بحيرة الزيتون، ديوان " عائدون " ص ٤٥.

[١] في شعر النكبة ، صالح الأشتر ، ص ٦٣.

[٢] العيون الظماء للنور ، ص ٩٠.

[٣] قصيدة "نفير البعث " ، ديوان عائدون ، ص ٢٨، وهي مهداة إلى الرئيس جمال عبد الناصر بمناسبة تأميم قناة السويس.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنا في مساء العمر أحمل ذكرياتي الباقيات
عن رافد النيل العظيم يصب في بحر الحياة
فلاحة ، ضحك المشيب على ذؤابتها وفات
عهد الشباب ، وفي جنازته الرؤى والأمنيات
وحبيب أيام الصبا "دنشواي" تذكر كيف مات
ويحدث السمار...أقنان المزارع والرعـــاة
في كل أمسية يلوح لهم على رحب الفـــلاة
شبح تنز على مناكبه الجراح الفائـــــرات
يا زارعي كرم الحياة وعاصريه إلى الطغــاة
الفجر يولد في الظلام وإن يوم البعـــث آت

ونلمح في أبياته التالية ميوله الحزبية في ذلك الوقت فيقول :

أنا في لواء البعث جندي على ساح الجزائــر
وخلقت يوم خلقت جبارا على الأحداث ثائــر
قلبي السلاح ...ويغدق الإيمان ملء يدي ذخائر

ويتضح وهجه القومي الطامح في قصيدته "فجر البعث والإنسان" فهو يهيب بأمته العربية ألا تهون وألا تذل والتي يتضح فيها تأثره بميخائيل نعيمة وشعراء المهجر :

أخي إن عشت ذل الأمس مغلوبا على أمرك
ذراعك هذه الشماء ، لم ترضخ إلى أســرك
حطمت بها الحديد، ورحت والتاريخ في إثرك
تصارع لجة الأقدار ، تمعن في خطى ثأرك
أخي في القدس ، ذاك جبينك المتطلع الأسمر
كلافتةٍ على درب المعاد الشائك الأوعـــــر
أخي في المغرب الجبار ، في بغداد ، في السودان[١]

ويتضح جنوح الشاعر العربي للاهتمام بواقع أمته وحرصه في كثير من الأحيان على التعبير عن واقعها وتصوير آلامها وآمالها من خلال نفسه لأنه جزء مــن هــذه الأمة ، وعواطفه منبثقة من عواطفها ومتفاعلة معها ، وشعره القومي أو الاجتمــاعي ليس إلا تعبيرا صادقا عن مشاعره وعن مشاعر قومه معا:

أخي في الخندق المخضوب أو في وحشة الزنزان

---

[١] ديوان عائدون ، ص٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جراحك حيث أنت وجرح قلبي هاهنا سيـــــــان
ميادين العروبة ما تناءت كلها ميـــــــــــــدان
ويولد من مخاض الليل فجر البعث والإنســـــان[٢]

ومن القصائد التي مثل بها على تلك المرحلة وبمغزى خاص قصيدة "نغم لم يتم " ولتلك القصيدة مناسبة خاصة عند الشاعر أوردها قائلا :

(إن الحري بالملاحظة في هذه القصيدة هو روح الصراع والتحدي إزاء فاجعـــة الشاعر الإنسانية التي يدفع فيها ثمن مواقفه المبدئية المثالية ثمنا غاليـــا جـــدا ...لقـــد التجأت في سنة ١٩٥٧ من الأردن إلى دمشق – باعتبار هذه الأخيرة فـــي اعتقـــادي الخاص – أو على الأصح في تمنياتي الخاصة ، قلعة انتمائنا القومي العربـــي التـــي ستنطلق منها جحافل التحرير باتجاه فلسطين !! أنشودة عمري فلسطين !!...وإنما الذي حدث فعلا من جراء هذا اللجوء هو أن "حبيبتي دمشق" التـــي كنـــت أحـــدس أنهـــا ستستقبلني بالأحضان، قد استقبلتني في ليلتي الأولى بأعقاب مسدسات " العناصر " في أقبية توقيف المشبوهين !!...وكان لا بد أن ينصرم عام بطوله قبل أن تُفضي عني ولو قليلا عيون التشكك والارتياب ...أو أن أتبلغ لقمة عيشي من كدحي وعـــرق جبينـــي دونما حاجة إلى استدانة ثمن الوجبة ، إثر الوجبة من هذا الصديق أو ذاك !! "نغم لـــم يتم" هي التعبير الرجولي البليغ في مواجهة الإنسان لقدره وهي القصيدة التي سأذكرها ما حييت بملء الافتخار ، ونشوة الصمود والانتصار !!).[١]

أقول أيها القضاء لن تذلني
وأيها القدر
أرح يديك
غير هذه الضلوع يستخفها الخطر
أظافري نشبتها لظى
وخافقي جبلته حجر
يا أيها الرفاق :
أشرعوا الجباه للغد الذي اقترب
من أين نشعل الدجى
إن نحن لم تكن عظامنا الحطب
يا أيها الرفاق لن نعاتب الزمن

---

[٢] المصدر السابق ، ص ٧٣-٧٧.

[١] قصائد مستقلة ، ص ٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بل له العتب
نحن الذين نعرف الشكاة دائما
ونجهل الغضب
ونوقد الشموع ، نحرق البخور
عند مذبح القدر
لكن جيلا صاعدا من العذاب
من حقيقة الألم
غير القديم
غير زمرة البلاط والحريم والصنم
جيلا من الحقول
موسما يفيض بالإباء والشمم
راسخ القدم
فلتنشر الحقول مدها على الربى
لفجرنا الذي أطل
حيث ندفن القضاء والقدر !![١]

المرحلة الشعرية الثالثة

في سني الغربة والبعد عن الوطن

(١٩٦٠-١٩٦٥)

خير ما يمثل هذه المرحلة قصائده في ديوانه " واحة الجحيم "وأعتقد أنه في تلك المرحلة قد تقدم بإسهامات إيجابية بالغة الأهمية في شعرنا العربي حتى انا نشعر بتلك القفزة الشعرية في تلك المرحلة ، إذ أنه طور من أدواته الفنية بشكل واضح ، وقد تحدث غسان كنفاني عن تلك المرحلة قائلا : (حين ترك يوسف الخطيب الوطن العربي بعد أن عزت فيه لقمة العيش ، انقطع في مهجره أكثر من عام لم نسمع منه، ...وبعد حوالي عام تدفق البريد بثلاث قصائد طويلة جديدة نشرت في "الحرية " ...على التوالي كان اسمها : الطريق إلى يافا ، مطالع جزائرية ، دمشق والزمن الردئ. والواقع أن صمت يوسف الخطيب لم يكن عبثا...لقد كان من الواضح أن "

[١] نغم لم يتم ، ديوان عائدون ،ص ٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"الطريق إلى يافا " حققت له قفزة كبيرة لاحظها كل المتتبعين لشعره ، وفي "مطالع جزائرية " استراح يوسف الخطيب قليلا ليتمكن من مكانه أولا ، وليحقق القفزة الجبارة ثانيا ، وبوسع القارئ أن يلاحظ هذه القفزة التي حققها يوسف دون كبير عناء فقصيدة "دمشق والزمن الردئ " مبنية على طراز لم يشهده الشعر العربي من قبل وقد يكون أهم ما في هذا التميز – بنية ومضمونا – هو الارتباط الناضج بكل ما في التراث من جمال ومن عمق).[٢]

ويحدثنا يوسف الخطيب في لمحات عن تلك المرحلة قائلا :

(لقد كان في خريف عام ١٩٦٠ م ، أن جردتني البابوية السلطانية العربية من حق الإقامة الحرة الشريفة ، أو حتى مبدأ الإقامة من أساسه في خمسة أقطار مشرقية، تشاء سخرية القدر أن يكون من بينها التوأمان الوحدويان سورية ومصر ...فها أنذا الآن ، فور أن اشترطت علي " دولة الوحدة " أن أشتغل عنصرا في مخابراتها ، أتسلل هاربا إلى لبنان – واحة جميع العرب المضطهدين في ذلك الحين) لكنني لم أمكث أكثر من عام حتى أقع في شجار صحفي مع مجلة "الآداب " ، فاذا هي تحرك ادعاءها الوشائي ضدي ، مستعدية بذلك " المكتب الثاني" علي باعتباري طريد " دولة الوحدة " وبادعاء أنني قد جئت فعلا إلى لبنان لكي استأنف "رسالتي البعثية التخريبية فيه ..)[١]. وفعلا ما عتم أن استدعيت بين أيدي العسكر "المكتب الثاني " الذين حددوا مشروعية إقامتي في القطر اللبناني بثلاثة أشهر قادمة ..ينبغي بعدها أن أغادر البلاد...ولكن إلى أين ؟ . ثمة الآن ذلك الإعلان الوجيز في أسفل العمود من صحيفة بيروتية حول احتياج القسم العربي في إذاعة هولندا العالمية إلى مذيع عربي ذي مؤهلات عالية– فها أنذا – الآن إذن في بلدة جميع الإذاعات الهولندية (هلفرسوم) .

والواقع إن (المرء ينتظر من المثقفين في حالة الركود السياسي وانشغال الفرد بنفسه ضمن حالة طاغية من الجنون الرأسمالي والتكالب البرجوازي وانهيار القيم الأخلاقية لصالح الأنانية والنفعية والانتهازية والنفاق "الثوري " ، ينتظر المرء في هذه الحال أن يكون الصوت النشاز ضمن جوقة تضليل الجماهير هم الشعراء ، إلا أن قيامهم بمثل هذا يقتضي أمرين ، الأمر الأول : أن يكونوا غير مشاركين بالكذب والتضليل، والأمر الآخر : هو مدى كونهم قادرين على السير ضد التيار)[٢] . ولكن

---

[٢] غسان كنفاني ، مقالة بعنوان يوسف الخطيب والكلاسيكية ، عن مجلة الحرية البيروتية ، أيلول ، ١٩٦٢، نقلا عن يوسف الخطيب ، مجموعة قصائد مستقلة ، ص ٩٤.

[١] قصائد مستقلة ص ٩٠.

[٢] أحمد ساعي ، حركة الشعر الحديث في سوريا ،دمشق دار المأمون للتراث ، ١٩٧٨، ص٣٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشعراء اليساريين ظل معظمهم ضمن دائرة اللعبة حتى أوائل السبعينات، ولا يمكن لمن يظل ضمن هذه الدائرة أن يستطيع السير في اتجاه خارج عنها . فظل الشعراء حتى الفترة المذكورة يمثلون صوت النظام إلا القليل منهم ، وهذه القلة هي التي استطاعت اختراق حاجز الدائرة والخروج منها إلى حيث وجدت طريقها الخاص وإن أخرجها هذا أيضا– إلى حد ما – من الظل الرسمي الذي كان بإمكانها أن تنعم به .

وباعتقادي فان يوسف الخطيب بدأ يعاني الغربة الحقيقية في تلك المرحلة فقد غادر الوطن العربي بأكمله هذه المرة متجها إلى أمستردام ،ولذلك نرى أن شعره بدأ يختلف بنية وموضوعا عن المراحل السابقة ، حيث نلمح الحنين والشوق واللهفة إلى الوطن بشكل بارز في معظم أشعاره :

لو ميتا يا وطني ألقاك
لو حفنة من الثرى هائمة على
جنون الريح عمرها وتنتهي
لو دما يفيض في تويج وردة
لو برعما يطلع في الجليل
لو عبير برتقالة[١]

وفي " النرجسة الحمراء " يناجي وطنه في صورة الحبيب المنتظر إذ يقول في رومانسية باكية :

أمسيتي حزن شمالي
وأسفاري سدى
من أين يا حبي ترى
آتيك بالنرجسة الحمرا!
ما خليت بستانا وراء الشفق
الباكي
لم أصاحبه إلى البحر
ويا مولاي
ها قلبي كسير في يد الدرب
فان تأخذه عن مهر الهوى
خذه...

[١] "لو ميتا يا وطني ألقاك "، واحة الجحيم ، ص ٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أرح صدري على صدرك
إنني متعب ..متعب[٢]

ويتألق شعر العشق والحنين حزينا لاهبا في قصائد المنفى كما في قصيدة " من بحر يافا النسيم":-

نسيم يافا أمل رأسي إلى سنة — أحياك في حلم بستان وأحياه
وخلني لو شراعا فيك ضائعة — أيامه ومروج الوهم دنياه
هل الدوالي على أكتاف منزلنا — هوى العصافير أم لافئ تغشاه[٣]

وبرومانسية حزينة يتذكر يافا ويخاطبها باكيا :

هل يشت البال عن قرميدك الوردي — يا يافا وفي أية دنيا
إن نغب عنك فكي نلقاك-حتى — في ربى الجنة إيذانا ورؤيا
نحن يا يافا ارتقاب الصبح لا أجفاننا — تسهو ولا نلمح شيّا
لم نزل يا أم نستهدي لك الأبواب — أدمتنا بيوت الناس سعيا[١]

ولعل من المفيد الإشارة هنا إلى أن الابتعاد عن الوطن يؤزم الشاعر ويجسد له غربته الروحية ، ولذلك فان (أكثر القصائد تعبيرا عن التعلق بالأرض هي التي تنظم في حالات الإغتراب والنفي) [٢]ويوسف الخطيب حين نظم معظم تلك القصائد كان في المنفى في أمستردام ، يعاني آلام الغربة والحنين إلى وطنه السليب فكان طبيعيا أن يتغنى بيافا بتلك الرومانسية الهادئة المؤثرة . ولكنه لم ينس هويته الفكرية رغم آلام الغربة إذ تتضح تلك الهوية في إلحاحه على تمجيد الثورات ، ففي ذكرى استقلال الجزائر عام ١٩٦٢ يشارك يوسف الخطيب في تلك المناسبة ليثور ويغضب وتبلغ انفعالاته أوجها ليسخر من الوضع العربي وتخاذل الأمة العربية عن الثورة:

٢

أقول شكرا لواهب النعم — حليت من حنظل الرثاء فمي
أعطيت قوسي جناحه فعلى — مفارش النجم نقلة القدم
أبكي ومس الجنون يضحكهم — حولي وشحم الرجال كالورم

٣

---

[٢] "النرجسة الحمراء" ، واحة الجحيم ، ص ٣٩.
[٣] "من بحر ياقا النسيم " ، واحة الجحيم ، ص ٤٧.
[١] "الطريق إلى يافا" ، واحة الجحيم ، ص ١٧
[٢] د. محمد القاضي ،الأرض في شعر المقاومة الفلسطينية ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ط١ ، ١٩٨٢، ص ٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا حامل الشعلة عن مكـــــــــــة هل أطفأتها بحور الظـــــــــــلام
يا غازيا في الأفق بحر الدجـــــى هلا ثنيت إلينا اللجـــــــــام ...

٥

وبدت لميس فألف معتصـــــــــم يقتحم الأوراس باللهـــــــــــب
وتصيح صوب القدس فاطمـــــــة فتخالها ليست من العـــــــــرب

١٠

أوفياء نحن في المشرق ضحينـــــا من الأكباد بالذبح السخـــــــــي
وتأثرنا خطى أعناقنا الحدبـــــــاء نستخبيء في حجر الولـــــــــي

١٢

أيا جارتا هل لي لديك مقشـــــــــة فأكنس من بيتي مزابل أزمـــــان
هنا ردهات الشرق غصت جنوبها قمامة أفيون وأعقـــــــاب تيجان
وحيث كنسنا اللات من عقر دارنا تكاثر أوثان وأفراخ أوثـــــــان[١]

وتهيج نفسه فتموج بأرق الانفعالات الحادة ويندفع الألم المرير من أعماقه وتتفجر كل مأساته وهو يبحث عن هدية حوله ليقدمها إلى جميلة بوحيرد:-

جميلة اسمعي ...لأنني مشرد بلا وطن
لأنني مرتحل أهيم في متاهة الزمن
وليس لي قيثارة ومنتهي ربابتي وتر
فإنني مازلت أحلب النياق أكتسي الوبر
فهذه هديتي إن لم يخب لشاعر أمل
كل الذي لديّ باقة من الدموع والخجل

طارقٌ لم يحرق البحر
ولم يأت أبو بكر
ولم ترضع حليمة
أفق خفيف الظل يا شعبنا
ذاك الذي تلمحه عقبة
لوى عن البحر جناح السنا
وشق في عتمتنا دربه[٢]

---

[١] "مطالع جزائرية" ، واحة الجحيم ، ص ١٠٧.

[٢] مطالع جزائية ، ديوان واحة الجحيم ، ص١١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يفقد إحساسه بالجماعة ، وذلك تعبيرا عن الإحباطات التي كان يعانيها الإنسان الفلسطيني بشكل عام ، من أجل ذلك يصبح بحثه عن هويته مثار سخرية أو إدانة لقومه:

أمر أبو ذرّ بكم ؟ ...فمعذرة قومي ...أهل مر عثمان ؟؟[٣]

والواقع (أن أهم ما تناوله الشعراء الواقعيون في قصائدهم هي هذه الوقفة الحائرة أمام الواقع العربي المنهار – آنذاك – سنوات الستينات التي سبقت حرب ١٩٦٧ تلفهم بدوامة من العذاب النفسي ومشاعر الغربة والقلق والبحث عن منقذ جديد بعد أن خابت معظم الآمال)[٤] . يقول يوسف الخطيب :-

أرضنا آلتنا الحدباء...تطوينا وممشانا على الأرض الخديعة)[١]

وها هو يفتقد شخصيته الحقيقية وهو يحس خواء الحياة والغربة ووجع الروح حيث لا يقتنع بواقع الحال الذي يعيشه الناس مفروضا عليهم دون أن يكون هناك أدنى ما يطمئن النفس إلى المستقبل فيغدو الشاعر وكأنه يحس بالاختناق وهو يبحث عن شخصية شعبه المقهور من خلال رفضه الواقع والتمرد على نفسه :-

لست أنا إياي ، ما هذه
كفي ، ولا السيف بها سيفي
ولا حصاني من تعليته
بالأمس ، في غاشية العسف
لست أنا إياي ..صدر المدى
قبالتي ...أم جدر الكهف !!
وجيعة روحي ، وبي غربة
عني ...وأقفو،عبثا، طيفي
لست أنا إياي ...غيري الذي
أجس في العين وفي الأنف[٢]

---

[٣] المصدر السابق ، ص ١١٦.

[٤] الشعر الفلسطيني الحديث ، مصدر سابق ، ص ١٥٩.

[١] واحة الجحيم، " الطريق إلى يافا " ، ص ٧.

[٢] واحة الجحيم (في السهل) ص ١٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومع أن الشواهد في هذه المرحلة كثيرا ما تنطق بهذا الواقع الأليم إلا أن قصـــيدة يوسف الخطيب " دمشق والزمن الردئ" تعطينا صورة أشمل من غيرها واضعة يدها على مفاصل الواقع العربي الموجعة :

بغداد خاملة على نهر البعوض / وترتخي أوصالها طربا
ورأيت في أم القرى الأصنام من / ذهب وتزلف عجوة ذهبا

وبكيت أنطاكية ....وأقمت عند /مدافن الأردن منتحبا
إني رثيت مدائني السبع العجاف / رثيت فيها القش والخشبا[٣]

فإذا كل مدينة عربية هي دمشق التي دخلها المغول (الانفصاليون) حاملين معهم تراثا طويلا من تاريخ الدم والظلم وشوارد الفتوى وشعرة معاوية الممدودة للطغـــام ، فيتساوى شهر أيلول – شهر الانفصال – وأيار شهر النكبة :

(أيلول عاد ، كأن " أياراً " على اللطرون يحقن جرحنا اللهبي في الرّمان ، يشتل في الصخور شقائق النعمان يحرثنا ، تهب على جناحيه الأبابيل الهجينة).[١]

وفي هذه الصورة القاتمة لا نجد خيطا من نور أو قوة تستطيع أن تنقذ شيئا مـــن تحت الانهيار ، لقد أصبح هذا الواقع مقبولا ومفروضا :

(أيلول عاد ، أطل شحاذ وراء الباب يسألنا بقية زادنا الصيفي سقناها إليـــه فعـــاد يسألنا رماد كرامة ...لم نمنع الماعون...ضـــحينا لـــه بالـــذبح مـــن غـــنم الملايـــين الكسيحة)[٢].

ويسمي يوسف الخطيب هذا القلق الذي فرضه عليه التشرد والاغتـــراب "جـــرح الروح" ويفقد ذاته مع روحه ، فيبحث عنهما في كل مكان لاســـترداد وطنـــه وذاتـــه الضائعين لا يجدهما ، فيهيم وراءهما في عذاب دائب وبحث مستمر خاصة وأن الدنيا بما فيها أرض الأشقاء العرب قد ضاقت عليه بما رحبت:

وأنا الذي وطني ارتحال الشمس ملء الأرض
لكني بلا وطن
منذا يصدقني!!
أبليت نعلي في الرمال وفي الجرود

---

[٣] واحة الجحيم ، دمشق والزمن الرديء ، ص ٦٣.
[١] المصدر السابق ، ص ٧٠
[٢] واحة الجحيم ، ص٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أدق أبوابا وتدفعني

– من أنت ؟

– من عرب الخليل

- وعم تبحث؟

- عن ثرى حُر ، وعن سكن

– هلا أقمت بنا ؟

– أقمت هنا

– فما يشقيك ؟

– هم ليس يبرحني

– ما ذاك ؟

– جرح الروح في اللطرون

– لم أفهم عذابك

– كيف تفهمني ،

– وأنا الذي وطني ارتحال الشمس ملء

الأرض لكني بلا وطن ...!!

لجأ الشاعر في الأبيات السابقة إلى الأسلوب الحواري (ولعل لجوء الكثير من الشعراء الرومانسيين إلى الإطار القصصي هو فرار من الكشف المباشر عن عواطفهم فتكون الفرصة كبيرة للتأثير النفسي والقدرة على الإيحاء لتوليد المعاني النفسية والشحنات الانفعالية) .[١]

وعموما (فالشاعر لا يفر في جميع الأحوال من الكشف المباشر عن عواطفه إلا إذا كان يمر بتجربة فقد الحرية وكان يعيش تحت كابوس سلطة تحاول أن تحد من قدرته على الكلام وتحاسبه على كل كلمة لأن الكلمة في وجه المحتل رصاصة) .[٢]

على أية حال فالقصيدة السابقة أعطتنا صورة أشمل من غيرها عن تلك المرحلة التي مرت بها الأمة العربية والتي كانت تعد من المراحل الموجعة في تاريخها .

والواقع أن الشعراء بقدر ما ألحوا على مشاعرهم الخاصة وتناولوا أوجهها المتعددة فانهم عكسوا – بهذا القدر أو ذاك – مظاهر واقع سنوات الستينات التي سبقت حرب حزيران عام ١٩٦٧، واتخذوا فيه موقفا فيه تمرد عليه وإدانة له ، غير أن هذا الموقف ظل في نهاية الأمر تصورا فرديا.

---

[١] الاتجاه الرومانسي في الشعر العربي المعاصر ، مرجع سابق ، ١٤٥.

[٢] الاتجاه الرومانسي في الشعر الفلسطيني المعاصر ، ص١٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتجربة القاسية وخوض مخاطرها هي السبيل إلى الخلاص مما نحن فيه :-

دربنا أضيق من فلعٍ خلال الصخر
والزلزال ...درب الأقوياء
دربنا نهر أقاع فائر اللجة
بالرغوة ....درب الشهداء
دربنا تجربة الشيطان فوق الجبل
المنسي ...درب الأنبياء[٣]

وفي قصيدة " سيأتي الذي بعدي " تلمح شخصية المثقف الفلسطيني ورسالته والحمل الثقيل الذي يحمله على كاهله بأمانة وإخلاص حيث نشعر من خلالها بتلك الذات الموغلة في الحساسية الرقيقة في عواطفها المنطلقة من خيالها:

تسائل عن حلي وعن هم ترحالي — وما زاد أسفاري ومرساة آمالي
وحسبي جبين ضيئات جراحه — ضياء رذاذ النجم في الفلك العالي
تحديت أن شعبي يباع، وموطني — يباح ،وأن أغلي الحصى قوت أطفالي
حرام على عيني الرقاد ، وأمتي — شتات ،وآفاقي تناثر أطلالِ
أقول وبي قصد الغريب، وكبره — لي الراحة العزلاء، والهدف الغالي
وبوركت آلام الجموع ، تميمة، — تؤرق أعصابي، وتلهم أشعاري[١]

ونشعر بالحمل الثقيل على كاهل المثقف الفلسطيني ورسالته حيث نلمح في القصيدة السابقة هموم الإنسان العربي المثقف الذي يعاني الاضطهاد وكأنه مطارد في كل بقعة من بقاع الأرض .

وعلى أية حال فان الشاعر الفلسطيني في تلك المرحلة بدأ يبحث عن ذاته ويجنح إلى الحزن العميق فبعد الحماس الذي كنا نلمحه في الخمسينات جنح الشعر إلى الحزن العميق وهذا واقع فرضه الاحباط والألم الذي كانت تعانيه الأمة العربية في تلك المرحلة – واقع عربي منهار – يمهد لما بعده من هزيمة وانكسار ستزلزل كيان الأمة العربية وكأن الشعراء يتنبأون بما سيحدث.

---

[٣]" الطريق إلى يافا" ،واحة الجحيم ، ص ٢٢.

[١] سيأتي الذي بعدي ، واحة الجحيم، ص ١٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المرحلة الشعرية الرابعة

العودة إلى الجذور

(١٩٦٥-١٩٧٠م)

كما أسلفنا سابقا فقد كان الشعر في تلك المرحلة محبطا فاقدا للثقة لكل ما حوله ، إذ فقد الشعراء ثقتهم بأنفسهم وبشعوبهم ، وهذه حالة طبيعية في تلك المرحلة.

وفي تلك المرحلة فجعت الأمة العربية بنكسة حزيران الأسود التي لا نزال نجتني ثمارها حتى الآن ، ولم تأت تلك الكارثة فجأة فقد كان الجو النفسي العام ينبئ بذلك ، وكانت هناك مقدمات لتلك الهزيمة مهدت لها . ومن تلك المقدمات الجو النفسي العام الذي أحاط بمعظم الشعراء،وقد وصف الشاعر الأمة العربية في ذلك الوقت بأنها تعيش في حالة ترهل سياسي .[٢]

يقول غالي شكري : (لقد آن الأوان لأن نفرق بين الأدب الذي يقاوم قبل حدوث المحنة وهو الأدب الذي يرتفع إلى مستوى النبوءة والأدب الذي يقاوم أثناء المعركة ، والأدب الذي يؤرخ للأزمة بعد انتهائها بوقت طويل وقصير) .[١]

وهذا ما نراه في شعر يوسف الخطيب إذ يكاد يستوعب الأبعاد الثلاثة كلها. فهو هو في قصيدته " هذي الملايين " التي قيلت في سنوات ما قبل النكسة يعاتب شعبه العربي على تخاذله وتكاسله وكأنه يتنبأ للشعوب العربية بما سيلحقها من هزيمة وانكسار ويحملها مسؤولية ذلك:

أكاد أومن من شك ومن عجب	هذي الملايين ليست أمة العرب
هذي الملايين لم يدر الزمان بها	ولا بذي قار شدت راية الغلب
ولا تنزل وحي في مرابعها	ولا تبوك روت منها غليل نبي
أأمتي يا شموخ الرأس متلعة	من غلّ رأسك في الأقدام والركب
أأنت أنت أم الأرحام قاحلة	وبدلت عن أبي ذرٍ أبا لهب!
كأنما لم تلد في اليتم آمنة	ولا حليمة هزت مهد مرتقب
تبدلت همم الصحراء وا أسفا	بياعة النفط عن خيالة الشهب
لا والعروبة أو شلت سواعدنا	إن لم نفجر مدى الصحراء باللهب
إن لم نقم في حقول النفط نشعلها	في جنب كل دخيل الدار مغتصب

---

[٢] مقالة ليوسف الخطيب بعنوان أمة عربية أو أمة يهودية... ذلك هو السؤال ؟ مجلة المعرفة السورية ، عدد ٤٩ ، السنة الخامسة ، ١٩٦٦ ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق .ص ٢٣٥.

[١] غالي شكري ، ادب المقاومة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٠. ص ١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما للجماهير لم تفتح جهنمهـــا للفاتحين ولم تزأر ولم تثـــــــب
أقد سرى خدر الأفيون في دمهـا فما تحس عليه صحوة الغضـــــب
واخجلتا وبيوت الناس أرفعهـــا وبيت أهلي عويل الريح في الخرب[٢]

وفي أعقاب حزيران الأسود ١٩٦٧م يعود الشاعر إلى جذوره متشبثا بإيمانه بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم مناجيا نبينا عليه السلام حاسرا رأسه خجلا من تخـاذل الشعب العربي وهزيمته :

(إذ لم تكن النكبة هزيمة عسكرية وسياسية فحسب بل كانت هزيمة نفسية وعقائدية زعزعت الإيمان في النفوس المؤمنة المتدينة إذ زلزلت هذه المحنة أشـد المعتقـدات رسوخا في القلوب)[٣] ولعل هذا هو السبب الذي دفع بالشاعر إلى تسمية هذه المرحلة مرحلة الطريق إلى محمد يقول الشاعر : (في ظل هذا المناخ الدهماوي ألفيتني أشق فيافي الزمان عائدا إلى محمد لأتيقن لديه من مماسك جـذوري القوميـة فـي وجـه العاصفة)[١] يقول الشاعر :

إني لحاسر رأسي غير منتعـــل حاد لك التوق لم أرجع ولم أصل
مسافر فيك غاد عنك في سفـــر حلي لديك ، لدى الآفاق مرتحـل
أُدني إلى الأرض أذني أقتفي أثرا لو يصهل الرمل بالخيالـــة الأول
خلفت أهلي بأعلى القدس مطفأة جراحهم من أضأن الكون من جبل
أبا العروبة إني خارج لغـــــد من غيم أمسك وافي الغيث منهمل
آتيك أنت أنادي خلف أزمنـــة ما بيننا وسواف وعرة السبـــل
تقطعت بي عرًى من أين أوثقهـا إن لم أصل بك أشلائي ولم تصـل
يتيم مكة ما يتمي تـــراب أب يتمي تراب المدى ذي السهل والجبل
إخال لي وطن الدنيا وجنتهـــا وليس لي فيه حتى حفرة الأجـــل
همي لديك ثمالات معتقـــــة يرعشن فيّ جَنان الغائب الثمـــل
أفض خوابي "حراء" من عرائشها وصب في الليل ، ضوء الله في المقل[٢]

---

[٢] "قصيدة هذي الملايين" ، ديوان بالشام أهلي والهوة بغداد ، ص ٤٩.وقد كتبت هذه القصيدة عام ١٩٦٥ .

[٣] عبد الرحمن الكيالي ، الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين ، دمشق ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٥، ص٢٢٩.

[١] يوسف الخطيب ، مجموعة قصائد مستقلة، ص ١٤٧.

[٢] ديوان رأيت الله في غزة ، يوسف الخطيب ، ص ٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(إن أصعب ما في رسالة الشاعر الملتزم هو أن عليه من موقع الهزيمة أن يبشر بالنصر ومن جوف الظلام أن يستعجل طلوع الصباح)[٣] فها هو الشاعر يوسف الخطيب يهيب بأخيه العربي ألا يهون وألا يذل فان فجر النصر آت رغم الهزيمة :

عناقا لك الصبح رغم الظـــلام ... ويا أملا غائرا في الألـــم
أقرب في الليل آتي الصبـــاح ... وأشدو على الجرح آتي النغم
غدا...يا حصاد الربى والكـروم ... ويا موسما عربي الكـــرم
دع الريح تعصف بنا ما تشـاء ... فإنا لها جنبات الخضـــم
إذا الشعب أغلاله مزقـــت ... وجرح الهزيمة فيه التـــأم
هنا أمة وعرة صهـــــوة ... كجمح الكميت إذا ما التجم
هنا أمة من لبان الزمـــان ... غذت لحمها من ثُدي الألـم
أسارى على أرضها الفاتحـــون ... ومنهزم دونها من هـــزم
لتشهد مكة في كل يـــوم ... حراء ، إذا كل يوم صنـم
وتشهد مكة عن فجرهـــا ... عميم التباشير ، فجرا أعـــم
وكم ثائر : ثائر في الخـــلاء ... حكيم على الضيم إما حكـــم
هنا القمة البكر ، سفح الجليـــل ... وظهر الخليل ، وصحن الحرم
هنا ما يرى الشعب لا ما ترون ... طريق الملايين رحب أمـــم
هنا أمة لا هرقل تأبـــــى ... عليها ، ولا عز كسرى عجم[١]

وفي ظل الجفاء الرسمي بين رفاق البعث في سوريا ورفاقه البعث فـي العـراق كتب يوسف الخطيب قائلا :

ما شعلة البعث تذكيها فتستعـــــر ... إذا فؤادك مقرور الهوى ، حجـر ؟
فانزف جراحك في نخب الزمان طلاً ... لعل توقظ ،جوف الليل ، من سكروا
إذ الجراح بأعلى الطور دافقـــة ... على نيوب ذئاب الأرض تعتصـــر
ناديت حتى اشتكى حلقي حريق دمي ... فيمن تنادي وجرح القدس منغفـــر
وإنني ورفاقي تارة أحـــــد ... وإنني تارة عنهم لمنشطـــــر
مذ ضيعوني على الأحقاف ما علموا ... أي الرفاق على الأحقاف قد خسـروا
فبت منبت جذر غير ذي صلـــة ... لا بالعراق ،ولا بالشام ، أذّكـــر
وصرت فيهم زهيرا في فجيعتـــه ... أتلو على الريح أشعاري وأنفجـــر
بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنـــا ... بالقدس فوق صليب الطور أنتظـــر

---

[٣] المصدر السابق ، ٧١.

[١] رأيت الله في غزة ، ص ٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحب بغداد ، حبيها فم علـــــــــــن إذا تكتمه العشاق واستتـــــــــــروا
ناديت ناديت حتى لم يضع عبثـــــا سؤلي لديك ، وصح العزم والخبـــر[٢]

ثم يتوجه الشاعر بخطابه إلى المرأة العربية التي إئتزر زوجها إزار الجند مباهاة وزهوا فيحثها على استفزازه لعله يجاهد ويقاتل الأعداء :

أيا ابنة البعث هلا ثرت غاضـــبة ما بال بعلك في الثكنات ينتظـــر
حتى النجوم على كتفيه قد صدئت وما يؤرقه هم ولا وطـــــــــــر
ردي إزارك عن كفيه ما بقيـــت بنت الجليل بثوب العار تأتـــزر
قد جاء يخطر مزهوا ببزتـــــه قومي أساليه أأنثى أنت أم ذكـــر
قولي له لو يعيد المجد قسمتـــا لي السلاح ، وأنت الكحل والخفر
ناديت ناديت حتى لم يضع عبثا سؤلي لديك وصح العزم والخبر

وفي نهاية المطاف يتوجه بخطابه إلى سيدنا علي – كرم الله وجهه –متوسلا بـــه قائلا :

علي يا غاثك الرحمن ديمتـــــــه وضوّأ الليل هذا وجهك النضر
قم من ضريحك قل للجانبين معا حطين تصرخ لا صفين يا بشر
يمضي الجميع وإن نافت مآثرهم ويخلد التوأمان ، الشعب والقدر

حرقة وتمزق داخلي يعتصران شاعرنا من خلال الأبيـــات الســـابقة ، إذ يشـــكل انشقاق الحزب البعثي العربي الاشتراكي ما بين سوريا والعراق صدمة أخرى ترفـــع من رصيد أحزانه وآلامه التي كانت قد ازدادت بطبيعتها في تلك المرحلة .

المرحلة الشعرية الخامسة

(١٩٧٠-.....)

لقد أصبح اليأس سمة واضحة في هذه المرحلة وبدأ يظهر تأثير ذلك في شـــعره يؤكد ذلك قول الشاعر : (أظن أنني في هذه المغامرة الأخيرة اكتشفت جملـــة حقـــائق هامة منها إن إبرة بوصلتي هي التي كانت تخذلني طيلة الوقت وأن جميـــع مرافـــئ الحنين التي أتقد شوقا لبلوغها ليست مجرد بعيدة وحسب ، فهي قائمة فعلا فـــي ذات

[٢] بالشام أهلي ، ص ١٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مكان ما ، لا بد أن يتراءى يوما وفي ذات زمان آت ، لا بد أن يـأزف فـي آخـر الأمر).[١]

لقد أدرك الشاعر في تلك المرحلة أن نضاله الطويل كان بلا جدوى وأنـه كـان يلهث وراء سراب ، لا سيما وأن الأحزاب السياسية قد خيبت آمال أمتها وأحلامهـا ، لما أصابها من تمزق وتفكك وجمود، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل علـى فشـل تجربة الأحزاب السياسية في الوطن العربي بشكل عام .

ونهاية القول (إن الدول العربية أصبحت تواجه في الظـروف الراهنـة خيـارا مصيريا بين أن تبقى مجزأة وبالتالي ضعيفة ومعرضة لخطر الانهيـار والهزيمـة ، وبين أن تقيم نوعا من الاتحاد) .[٢]

والحق أن مصير الأمة العربية منوط بالخيار الثاني ألا وهـو الاتحـاد ، ولكـن هيهات أن يتحقق هذا الهدف ، وربما لهذا السبب لم يجعل الشاعر لهذه المرحلة حدا أو نهاية بل جعلها مفتوحة السوانح .

إذن فقد اتضحت الرؤيا وازيلت الغشاوة وظهر أن الأمل الذي كان ينبض فـي شراييـنه أخذ يخف (لأنه فرق بين أن تعيش المأساة وان تدركها ، وهو نفس الفرق بين أن تكون حزينا وأن تدرك معنى حزنك ، فبين الرؤيـا القاتمـة ، والإدراك الناصـع يتراوح الوجود بين ظاهر ماثل للعيان ومدرك كلي)[١]

وهاهو يبدأ قصيدته التالية بغنائية مرهفة، وبإيقاع قصصي يشد المتلقي لإيحاءات الوقفة الطللية الحزينة حاملا الهم الذاتي والهم القومي على عاتقه وكأن الأمـل بـات مستحيلا بل أضحى سرابا :

بعيدة بعد مواعيد الهوى
بعيدة، بعد مرافئ الحنين
بعيدة
بعد نجوم المنافي
وعد رمل السوافي
وإن جسمي لمضني وإن قلبي حزين
وها أنا فوق حزيران أضعت وجهتي

---

[١] يوسف الخطيب ، مقدمة ديوانه (بالشام أهلي والهوى بغداد) ص ١٠.

[٢] نزار الكيالي ، دراسة في تاريخ سورية السياسي المعاصر ، دمشق ، دار الطلاس لدراسات والنشر ، ص ٣٨٨.

[١] عز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر ، قضاياه وظواهره ، دار العودة بيروت، ط٣ ، ١٩٧٨، ص٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويستحضر الرموز الدينية لتكون ملاذا له وسط هذه الاحباطات :-

كأنني الآن جميع أمتي أموت..أموت
لكنني أقرأ في الرؤيا
أني أنا (الخضر) الذي سأقتل الطاغوت
وأنني ثانية أحيا
لكنني ضيعت علياء الذرى
لم أدخر إلى معارج السماء متنا
أهيم وسع الأرض في ماجيل
ولم أزل ألهث في ذرى تغوض أدنى
أضعت قمة الخليل ... والجليل ...والجولان
ولم أزل أعدو وراء الشمس
رباه أين أنت ؟
لم صفقت دون رئتي نوافذ السماء ؟
لم أتلق من عل توصية
وقيل لي – معذرة – لم يبق أنبياء[١]

لقد تعلق بالتاريخ وجعل بواباته الناصعة ملاذه في عصر الانكسارات فها هو يستنجد بجلق الحلم وبغداد السرى:

يا جلق الحلم ...وبغداد السرى
فلو تلوحين لعيّني خلال الضباب
فإن رمزا عنك يكفي
ولو تقومين على الوهم ووهج السراب
فان برقا منك يسقيني
وها أنا أحرث بحر الملح
من أقصى تخوم الليل – حتى الصبح
فما لكم تزدردون في البلاط ألمي
عيونكم تنوس في أبخرة الأفيون
أم تطفئون جذوتي ....إذا كسرتم قلمي

[١] ديوان (بالشام أهلي والهوى بغداد) ص ١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أم ترجمون فيّ ظل شاعر مجنون!!

لكنه فجأة يستجمع قواه ويصرخ في وجه خصومه ليعلن حقيقة خطيرة هامـــة بإيقـــاع قصصي يشد المتلقي :

ولتتلق الأرض ...ما تنزل السماء

ويتعلق بميراث أجداده وسط هذه الانكسارات :-

إرث أبي هذا

وأنتم اقتسمتموه عن طريق اللصوص

خنتموه بعتموه للغرباء...

هم رسموا حدودكم هم دبغوا جلودكم...

هم فصلوا وجوهكم وعددوا الأسماء...

إرث أبي هذا ابتلعتموه في بطونكم

أولئك الصبية من نافذة القطار...

أطفالي...

وهذه السقيفة المضاء بابها

تحت سعف النخيل ...سكني

أحبكم أحبكم

يصير في شفافة الندى فؤادي

وكأنه يحس بالشك في عيون قومه ولكنه لفقدانه ثقته بنفسه وبهم فيخيل إليه أنهـــم ينكرونه ويكرهونه إذ ما عاد حبهم له كما كان في سابق عهده :-

فمالكم من عجب تحدقون؟

أردت أن أقول إنني أحبكم فعوني

لا تدعوا الأطفال يرجموني..

أحبكم..

أردت أن أقول إنني..

لا تدعوا الأطفال يرجموني!!

اردت أن أدلي بالشهادة ...اسمعوني

لا تأخذوني ساحة المدنية ...اسمعوني

أكرهكم ...لا تطلقوا جنوني

أكرهكم ...أكرهكم ...ولا أحب أحدا

حتى أصب دجلة في نهر بردى

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعود يوسف الخطيب ليعلن عن بوصلته الضائعة :

كذابة كل طيور البحر يا جزيرتي
كذابة بوصلتي ...كذابة هي السفينة
بعيدة بعد مواعيد الهوى
بعيدة بعد مرافئ الحنين
وإن جسمي لمضنى ... وإن قلبي حزين

قصيدة هادئة، حزينة ، مؤلمة ، وكأنه فيها قد فقد الثقة حتى في نفسه من هــول المصيبة، وأين نحن من أبياته التي كان يجلجل بها في الخمسينات قائلا :-

"ومشيئتي قدر على أقدامه تتمسح الأيام والأقدار " ...

لكن ذلك الحزن كان طبيعيا عند الشعراء في تلك المرحلة (فبعد الشعر الحماسي الصاخب الذي شهدته أوائل الخمسينات غادر شعراء المنفى الحماس إلى نوع فريد من الحزن العميق).[١]

وها هي إذاعاتنا العربية في صبيحة يوم الثامن من نيسان عام ١٩٧٠ توقظنا على أنباء مذبحة مدرسة بحر البقر التي حدثت في دلتا مصر لينفعل شاعرنا العظيم فيتذكر مذبحة " دير ياسين " الفلسطينية ، فكان ذلك الربط بين المذبحتين المصرية والفلسطينية مفتاحا بين يدي شاعرنا في قصيدته "المدينة الضائعة المفتاح " ولنجعل الأبيات التالية تتحدث عن نفسها :

كنت بالأمس إذا أحزن أبكي
وإذا أفرح أبكي
وأنا الضارب في برية الليل
على غير أثر
قذفت بي دير ياسين بطوفان النجيع
وقلوعي
ضيعت يابسة الصبح على بحر البقر
كان نيسان على الدلتا ...زغاليل
وأعشاش حديقة[١]

كان أسراب حساسين على برية الشام طليقة

---

[١] غسان كنفاني ، أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ، دار الأدب ، بيروت ، ١٩٦٦، ص١٠.

[١] بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص ٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كيف أضحى ليلة التاسع
في أودية القدس ثعابين
وفي الثامن
في جلبابة النيل حريقه!؟

وأنا النادب ،والحادي ،وصياد القوافي
وأخو الجن .....وصعلوك القبيلة...
ضاع صوتي خلف أسوارك يا قبلة أحلامي...
صرت لا أقدر أبكي ...أو أغني...
لا ...يمينا لست أبكي...
صار يبكي صاحبي عنه وعني...

وجوادي صار جديا .....وبعيري...
صار في الغربة ، خنزير قمامة...
وأنا صرت نعامة!!
لست أبكي...
كان هذا غبش الجرح وتعتيم غمامة...
تمطر الحزن على بحر البقر
كان هذا صحوة الصبح وناقوس كرامة...
دير ياسين هنا ترسم للفجر علامة
وعلى خد حبيبي
قبلة "الإسراء " سوتها يد المبدع ...شامة...
والعصافير التي طارت ...من الطور
أفاقت تنشد الفصح ببستان القيامة

لكنه يستنهض الهمم بتوسله بالقادة العظام أمثال الظاهر بيبرس وعمر بن الخطاب متمنيا عودتهم:

آه لو تعطي لظهر الأرض ما تكنز أعماق الحفر ...
لو يعود الظاهر بيبرس...
لو يأتي صلاح الدين...
لو يدري عمر !!..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد ضيعت مفتاحي إلى مكة أسفاري وكتبي
سوف أعطي ضوء عيني وياقوته قلبي
للذي يعطي لي الدرب ...ومفتاح المدينة[١]

والجدير بالذكر أن معظم شعر يوسف الخطيب في تلك المرحلة قد بدا أميل إلى استحضار الرموز التاريخية ممثلة بالقادة العظام كصلاح الدين ...وعمر ...وعلي ، وهذا أمر يبدو طبيعيا وسط هذه الانكسارات والاحباطات التي ترد واحدة تلو الأخرى.

(لقد كان اتصال العرب بتراثهم القديم في تلك المرحلة من تاريخهم – مرحلة البعث – وثيقا وكانت الأحداث القاسية التي عرضت لهم تزيدهم تشبثا بذلك الماضي الحافل لأنه أحد مقومات حياتهم القومية)[١] . وكان يوسف الخطيب ممن تعلقوا بالتاريخ في تلك الفترة.

وفي أعقاب ليلة الفردان " عام ١٩٧٣" يكتب الشاعر يوسف الخطيب قصيدته " أنهض من جنازتي وأموت " مغموسة بدماء الشهداء ، وكأنه الفدائي الوحيد الذي يذبح في كل أنحاء الوطن العربي ، ولعله قصد بـ (الأنا) الشعب الفلسطيني المقتول :

كأنني الآن جميع أمتي ...أموت
والعربي الأخير
أذبح في غزة ، في صيدا، وفي بيروت
من عنق شعبي الصغير
لكنني .. إذ يشرب السكين خمر صدري
أحس أنني أقوم
أحس أن وسع الأرض ، مولدي ،وقبري
وأن ليلتي نجوم
وها أنا أنهض من جنازتي ، وأمشي
يسكنني القاتل، والمقتول
وها أنا ملاحق للأمم المتحدة
هويتي ...مخرب ...وجلف
يقول لي العالم : قف [٢]

---

[١] المدينة الضائعة المفتاح ، للشام أهلي ،ص ٤٠.

[١] د. عمر دقاق ، الاتجاه القومي في الشعر العربي المعاصر ، ص٤٦٠.

[٢] أنهض من جنازتي وأموت ، ديوان بالشام أهلي ، ص ٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس مستهجنا على أية حال أن يحاول الشاعر إنقاذ شعبه عن صليبيه أو إعـــادة الروح القوية إليه ليطبع بها شخصيته ، فالشعب وإن كان ما تعرض لـــه مـــن مـــآسٍ ونكبات فإن الأمر لا يعدو في حقيقته أن يكون محاولة لصلبه . فالبراكين التي تخمد لا تخلو من النار الكبيرة :

ولم أزل أساق من مرحلة لمرحلة
أجر ثقل الصليب
وأستحيل جمرة ، فثورة فجلجلة
خلاص موطني الحبيب

بي جسد المسيح موثقا على صليبه
في عالم بدون قلب
يا راجمي شعب فلسطين على ذنوبه
من منكمو بدون ذنب!!..
وها أنا ألتقط الرصاص من عيونهم
في نار لبنان،
وألقي القبض عليّ في كروم الناصرة
وجئ بي للقدس
وخرج القانون للشارع في مظاهرة
مطالبا برأسي...

ثم يؤخذ للمحاكمة ، وفي جرأة عالية يعلن استخفافه بالعالم أجمع :

فها أنا في قفص اتهامكم ، يا فقهاء المحكمة
عيونكم عقارب تلسعني ، من حدقات مظلمة
لكنني أقسم تحت خنجر العدالة الملثمة
عالمكم لعنته...
أدنته...
ولو ملكت لاخترقت غابة الذئاب
واقتحمت قلعة السياسة
لكنت ناديت على عالمكم وشرعكم
في شارع النخاسة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدأ المزاد :

من يشتري مني دفاتر الحقوق
ومادة فمادة ، وثيقة الإنسان
من يشتري ديباجة الإعلان
بقبلة من شفة الخليل
بابتسامة

بدمعة أصبها على ثرى بيسان!؟
من يشتري ولي عهدكم ، وصاحب الجلالة
بعطر برتقالة يافية ...بقشر برتقالة؟!
من يشتري مني حقول الخليج
وكل نفط الأحمدي ، والدمام ، والظهران
بحفنتين..حفنتين.. من تراب عسقلان؟!

من يشتري فسيفساء مكة، ووشيها،
وقشرة الأسطح المزخرفة
بآية تتلى بصحن المسجد الأقصى..
وآية بالصخرة المشرفة؟!..
ويعود لساحة المحلفين ليعترف بذنبه :-
نعم ...نعم ...نعم
أنا الذي قتلت حارس الدجى
أنا الذي سرقت شعلة السماء..
وقال لي العالم: قف..
لا تسألوني أيها المحلفون من أكون
فإنني سأعترف!!..
سأعترف!!..
سأعترف!!..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شعر حزين ، ثائر ، يخرج من أفئدة معذبة تحس بما يكابد وطنها من الشقاء والبؤس، وها هو يتغنى بغزة، تلك الأرض التي فارقها أولادها ، فباتت تبكيهم ، فانها الأم التي تشرد أبناؤها فهي تبكيهم بصمت ويبكونها معولين :

حليبك في دم الشهداء ساقية
تهيم على جهات الأرض
ثم تصب في بحرك
حليبك غيمة بيضاء
تشرب منك لون الجرح
ثم تغوص في صدرك

وواضح أن الأرض هنا لا تقتصر في هذا الشعر على الجانب المادي بل(إن حلول الإنسان فيها يجعلها ركيزة حياته ويكسبها بعدا رمزيا مجردا يتجاوز وجودها الملموس) .[١]

وأنت الآن مكة كل قافلة
وغار حراء كل نبي
وأنت الآن آمنة
وأنت حليمة الصحراء..

فخلي بيننا وعدا
خلال الليل والبستان..
وجزّي خصلة ، من فوق خدك
نار تذكار[٢]

وتبدو المفارقة واضحة فبينما غزة تحترق شوقا إلى أبنائها ليهبوا لنجدتها ، تجدنا نحيي الولائم و المناسبات:-

ونحن على أرائكنا
نمد الآه تلو الآه..
ونحيي للصباح ولائم العرق
ونغسل عارنا بالعطر والدبق..
نعمر ، من مجاعتنا ، بيوت الله

---

[١] الأرض في شعر المقاومة الفلسطينية، د. محمد القاضي ، ص ٨.

[٢] رأيت الله في غزة ، ص ١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكي ننساه بين خرائب الأقصى..

لكي ننساه..

ولكن الشاعر يعلن أنه لم ينس الله بل صعد إلى جبل الطور باحثـــا عـــن أمـــل مستنجدا بالله ، ليراه في غزة ، وقد أغمض أعين القتلى ومسح أعين الثكلى :

ولكني صعدت إليه في طور سنين

رحت إليه حتى قمة المأساة

ويا قومي أبشركم ...رأيت الله

وكنت وكانت الأشياء

دخانا فوق وجه الغمر

وهو يعيد خلق الكون ..من سيناء..

رأيت الله بين حرائق الحرب

يضم لصدره الدنيا..

يصب الغيم في النابالم..

يطبع قبلة الحب..

رأيت الله في غزة

يؤرجح فوق نور ذراعه طفلا

إلى أعلى..

ويمسح في سكون الليل

أدمع أمه الثكلى

رأيت الله في الساحات

يغمض أعين القتلى

ويسقي في مدافنهم

غصون الآس والدفلى

رأيت الله يرفع من خرائبها

منارة كل بحار

وأعلم أن ما بيني وبينك..

أفق أسوارِ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فشقي ثوبك العربي عن سترك
ودقي صدرك المسبي في الليل
ونادينا بأعلى الطور..
نسهر ليلة البستان في حجرك
لأن هناك وعد الصبح
ينهض من دجى قبرك!!..

القصيدة السابقة تجمعها رؤية موحدة هي الخلاص من المحنة ، والحياة المليئة بالآلام ، وكأن غزة ذلك الخلاص ، فهي مصدر العطاء والخصب والنماء ، والأمل ينبع منها [لأن هناك وعد الصبح ينهض من دجى قبرك].

لقد انطلق يوسف الخطيب إلى تمجيد الثورة والثوار في لغة متقدة الحرارة وصور معبرة حادة وسياق شعري غني بدلالات الحب والثقة .

والجدير بالذكر أن الأرض تجسيد للماضي وامتداد له ، سواء كانت تلك الأرض هنا هي غزة أو حيفا أو يافا . فهذه الأرض هي التراث الذي يسري في عروق الشاعر ويهبه الحياة ، وبتعميق الشاعر لهذا الموقف نجده مندمجا في وصف غزة .

(وليست المأساة في مأساة الشاعر بقدر ما هي مأساة الأرض ، التي بدلت نباتها بنبات غريب وطبيعتها المرحة بطبيعة أخرى مكفهرة – ولذا فان غزة ويافا وغيرها من المدن ليست مجرد أسماء أو بقاع وليست مراكز البقاء للذكريات وأيام الشباب ، إنها شخوص حية تشعر بغربتها بعد فراق أحبابها ، إنها الأم تشرد أبناؤها فهي تبكيهم في صمت ويبكونها معولين) .[١]

وها هو يتغنى ببيروت ، المدينة العربية المناضلة التي أدمتها الحرب الأهلية في تلك الفترة ، ويهدي لها أعذب كلماته ، ليعكس الوضع العربي المتخاذل من خلالها ، وذلك في قصيدته " لمن تلد النساء " . إذ أن بيروت هي بشارة المسيح وهي الأمل الباقي لهذه الأمة ، لكن الكلمات تعجز عن الوصف :

سدى تتبرج الكلمات يا بيروت
ليس يموت
عصف النار والإعصار
غير الظلم والظلمة[٢]

---

[١] الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، ماهر حسن فهمي ، مرجع سابق ، ص ٨٦.

[٢] ديوان (رأيت الله في غزة) ص ٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتبقين البشارة والمجئ
ولهفة الميلاد والعري المضيء..

سدى تتغيثين مناهل الصحراء
لا وعد على برية الأحقاف
غير مدافن الأسلاف..
كأن جراح من سقطوا
تصبر براعم الرمان
أشعلها بجبهتك الصباح

وأُقسم بالندى والشمس يا بيروت
إذ يتضرج النعمان في دمه
فمن فمه
يشع التوأمان .. الجرح.. والبسمة..

أتنهدم القبور على القبور
ويمحّي بأديم هذي الأرض آدمها
وما ينهد للطاغوت صرح!؟..

ويطلع، بعد ، أكثر من "مسيلمة"
وتلتمع الدمى
ويعم هذا الكون قبح؟!..

لمن تلد النساء إذن؟!..
إذا لم يغز ليل القدس قديس
ولم ينجز على الطاغوت رمح؟!..

بلى .. حبلت.. فأثقلت الخيام
فثم في بطن الظلام
يهم بالميلاد.. تكوين ..وصبح..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ستومض بعد ، أشواق،
وتنهل من رحيق الشمس أحداق،
ويا لنهار عملاق سيصحو..

تظل لي السماء ،وخفق أجنحتي،
ومزماري ..وأغنيتي..
ومعنى الروح ترعش هيكل البدن
لأني لم أبع ، بمزادهم، قلمي،

وما بدلت جلدة وجهي العربي..
لم أسقط ...ولم أخن..

ولكن صُغت نبض الحرف،
وهج السيف..
واستبقيت لي عمرا ، وراء العمر
إنْ وغد سيقتلني !!..

قصيدة هادئة ، مرهفة ، تحمل من الشحنات الإيحائية ما يشير إلى الوضع العربي المتخاذل ، فقد تخلى العرب عن واجبهم القومي ، وتناسوا قضاياهم المصرية ،

والواقع أن الشعر المعاصر في تلك المرحلة بات واقعيا إلى أقصى الدرجات واختفت تلك الضبابية التي كنا نراها في بعض المراحل وخاصة في الستينات إذ لم يعد بالإمكان البقاء تحت ظلال الرومانسية دون الالتفات للواقع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخلاصـــــــة

تتبعنا فيما سبق التجربة الشعرية عند يوسف الخطيب وما تضمنته من موضوعات شعرية مختلفة. ولما كان المعول عليه عند دراسة التجربة الشعرية هــو الانفعــالات والأحاسيس التي تعتصر قلب الشاعر . فقد بدأنا بدراسة تلك المضامين الشعرية آخذين بعين الاعتبار تلك الانفعالات والأحاسيس التي كانت تارة تبدو حادة قوية كالعاصــفة الهوجاء وتارة أخرى حزينة هادئة كنسيم البحر . وبناء عليه فقــد اختلفــت قصــائده واشعاره – شكلا ومضمونا – وفقا لتلك الذبذبات الانفعالية .

واستكمالا لتلك الدراسة واستيفاء لشروطها لا بد من إيراد النتائج التــي توصــلنا إليها خلال دراستا لتلك التجربة بشكل نقاط رئيسية وهي كالآتي:

- كانت فترة الخمسينات فترة انفعالات حادة في حياة يوسف الخطيب وحياة معظــم الشعراء ، فقد فجرت النكبة قريحته الشعرية وكان أثر ذلك واضحا في شــعره، إذ كان شعرا إنشاديا قويا كدوي المدافع ولا يمكن بحال من الأحوال أن تهــدأ تلــك الانفعالات لأن الجرح كان لا يزال طريا . ولذلك فقد كان شعره يميل إلى الغنائية الفجائعية ، وبدا الشاعر في معظم أشعاره منجذبا إلى شخصية الإنسان المشــرد اللاجئ ، وبإحساس صادق إلى حد عميق .

فكان الإصرار على العودة والحديث عن اللاجئين والدعوة إلــى الثــأر هاجســه الشعري في تلك الفترة . وخير ما يمثل تلك الفترة ديوانه " العيون الظماء للنور ".

- لم يكتف يوسف الخطيب بتصوير الواقع بل إنه اتخذ موقفا ايدلوجيا محــددا فقــد تطور الموقف الاجتماعي من مجرد الانفعالات الحماسية الثائرة المتدفقــة حتــى وصل إلى تحقيق موقف أيدلوجي واضح ، فقد ساهم في رؤيته الشعرية العميقــة في رفض الواقع الأليم الذي كانت ولازالت تعيشه أمته محاولة منه في تغيير ذلك الواقع ومن قصائده الدالة على ذلك :-

"نغم لم يتم " (ديوان عائدون ص ٨٢) ، "سيأتي الذي بعدي " (واحة الجحيم ص ١٦١) ، "العيد يأتي غدا" (العيون للظماء للنور ص ٨٣٠)، "دمشق والزمن الــردي "

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(واحة الجحيم ص٥٧٠) ، "هذي الملايين" (ديوان بالشام أهلي ص٥٩٠) ، "رأيت الله في غزة ص ٩). وغيرها من القصائد.

- من خلال أشعاره ، تظهر لنا صورة العدو بشكل واضح ، إذ لم يكن العدو الاسرائيلي عدوه الوحيد ، فقد كان الشاعر يدعوا الشعوب العربية المقهورة إلى الثورة والتمرد على رموز الفساد والظلم في العالم العربي بكافة أشكاله ، لا سيما وهو الشاعر الثوري الذي يقول :

"آت غد ، من مخاض القهر طلعته قد أنجبته عذارى الحلم أبكار."

وقوله :

ولو ملكت لاخترقت قلعة الذئاب
واقتحمت قلعة السياسة
لكنت ناديت على عالمكم وشرعكم
في شارع النخاسة

** من التعسف تقييد الشاعر يوسف الخطيب تحت طائلة حزب أو جماعة لأنه وببساطة شديدة،إنسان عربي قومي يدعو إلى الوحدة وجمع شمل الأمة العربية وإن كان انضمامه لحزب البعث العربي في بداية حياته يوحي بميوله الحزبية ، إلا أنه ما لبث أن ترك هذا الحزب ، حيث اتضح أنه لم يحقق الأمل الذي يسعى إليه شاعرنا العظيم والدليل على ذلك قصيدته (ما شعلة البعث) التي بدأ كتابتها في أعقاب ارتداده عن الحزب واستكمل أبياتها الأخرى بعد انشقاق حزب البعث العربي السوري عن أخيه العراقي التي يوضح فيها حزنه وتمزقه الداخلي لانشقاق ذلك الحزب رغم أنه كان قد تركه مسبقا وكأنه كان يتوقع حدوث ذلك الانشقاق .

- تعرض يوسف الخطيب للظلم ، إذ إنه نفي إلى أمستردام ، وهذا النفي لم يكن بمحض إرادته ، بدليل أنه لم يحتمل هذا النفي ، بل عاد من أمستردام ، إلى بغداد، بمجرد أن قامت ثورة البعث في العراق ، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على تعلقه الشديد بوطنه وبأحداث عصره .
- يتضح الاتجاه القومي في شعر يوسف الخطيب من خلال تمجيده للثورات العربية التي قامت في معظم أرجاء الوطن العربي التي اعتبرها مؤشرا ينبئ بالنصر حيث لم يفصل قضاياه الوطنية عن قضايا الأمة العربية، فكان شعره تمجيدا لتلك الثورات وإشادة بالبسالة والبطولة التي أبداها هؤلاء المناضلون وهم يقدمون أرواحهم فداء للوطن . ويتضح ذلك من خلال بعض النماذج في دواوينه الشعرية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المختلفة مثل : "بلاط الشهداء " [١]، و " أسطورة النسر والخفاش "[٢] ، و قصيدة " نفير البعث " [٣]، و " فجر البعث والإنسان " [٤]، و "أغان من العراق "[٥]، و"مطالع جزائرية".[٦]

- من خلال أبياته يظهر لنا مفتاح شخصيته ، ففكرة القومية العربية ، وانشقاق الأحزاب بعضها عن بعض ، باتت واضحة كما في قوله :

لم تزل حربك البسوس ... ما زلت
وسيط الجمعين ..وابن سنان
وارتمت حمير على كعب كسرى،
وعلى كعب قيصر بنو غسان ،

أو قوله في حرقة لتمزق الحدود بين الشام والعراق قائلا :

خليتني ..بالشام أهلي
والهوى بغداد ياسنجار ..يا سنجار
وها أنا انتصفت بين الرقتين جسدي ..

- ويبدو لنا يوسف الخطيب الشاعر الملتزم والرجل الفنان الجاد ولا ريب في ذلك (فالأديب الحق لا يمكن أن يعيش بضميرين ، ضمير مع نفسه وضمير مع الناس)[٧] يقول يعقوب العودات [ولعل من مآخذ البعض على (يوسف) تركيزه الشديد على القضية الفلسطينية في جل منظومه ومنثوره ، وفي نشاطاته الإذاعية والصحفية ، وفي رأي هذا البعض المتزمت أن أفق القضية العربية أرحب بكثير من أفق القضية الفلسطينية وتقريرا للواقع أقول لهذا (البعض) إن فلسطين هي قلب العالم العربي ومحور القضية العربية لأنها في عُرف من سبر غور التاريخ ووقف على أنباء الفتوحات الإسلامية قلب هذا العالم العربي الممتد من المحيط إلى الخليج..].[٨]

والواقع (إن شعراء الطليعة العربية ليسوا مغنين من خارج الساحة يرقبون الحياة وهي تبدل لحمها ودمها ، إنهم ، إضافة إلى كونهم شعراء ذوي انجازات شعرية

---

[١] العيون الظماء للنور ،ص ٢٥.

(٢) ،(٣) ،(٤) ،(٥) ديوان عائدون الصفحات (١٥، ٢٨، ٧٣، ٨٩).

(٦) واحة الجحيم ، ص ١٠٧.

(٧) عز الدين اسماعيل الشعر العربي المعاصر ، ص٣٧٥.

(٨) يعقوب العودات ، مجلة الأديب ، أكتوبر ، السنة ٢٩ ،ج١٠، ١٩٧٠ ، ص ٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مهمة مناضلون ،يتحملون يوميا ما يطرحه عليهم الانتماء من مهمات ومتاعب)[١] ويوسف الخطيب شاعر واقعي يعج كل حرف من شعره بالواقع والألم المرير (وإذا كان الفخ الذي يقع في برائنه الكثير من الشعراء الملتزمين هي النبرة الخطابية والصوت العالي) [٢] فان يوسف الخطيب يملك القدرة على الإيحاء دون أن يخرج عن نطاق التزامه بقضايا وطنه .

وبالرغم من أن بعض الشعر الملتزم قام على اساس الارتباط السياسي بقضايا الوطن في مضمون ثوري يعيبه أنه (تحول بعضه إلى شعارات جوفاء وهتافات مجففة وشكلية مثيرة للسخرية ومعتمدة على تسطيح المضمون) [٣] إلا أن يوسف الخطيب تخطى ذلك ببراعة ووعي .

- ومهما يكن من أمر نستطيع القول إن شاعرنا كان دائم البحث عن مستقبل مرجو في قصائده محاولا بعث الإنسان الفلسطيني بعثا جديدا ، وقد لمسنا ذلك في معظم قصائده سواء في الخمسينات أو في الستينات ، وإن كان هذا التناقض بين الواقع والمثال الثوري قدر كل ثورة ، فالكوارث والمحن ترسبت في وجدان الشاعر فكانت مثالا لوجدانه وحافزا للإبداع.
- ويبقى يوسف الخطيب من أقدر الشعراء على التحرك الشعري على أكثر من مستوى ، فمن القصيدة المغرقة في تقليديتها إلى أشد النماذج جرأة في تناول الموضوع من دون أن تكون هذه الجرأة خارجة عن طبيعة الشعر العربي .

إذ ظل الشاعر يتأرجح ما بين المدرسة التقليدية والمدرسة الرومانسية حتى تلقفته مدرسة الشعر الحديث ، فقرأ لسارتر وت. س إليوت وغيرهم فطور من أدواته الفنية بشكل ملحوظ وخاصة بعد كارثة الانفصال الوحدوي بين مصر وسوريا ، ولعل قفزته الواضحة في " دمشق والزمن الرديء" خير دليل على ذلك كما سيظهر معنا في الفصل القادم.

---

[١] علي جعفر العلاق ، قصائد مختارة من شعراء الطليعة ، بغداد ، دار الحرية ، ١٩٧٧، ص٢٩.

[٢] د. رجاء عيد ، فلسفة الالتزام في النقد الأدبي ،الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٨٦.ص٣١٣.

[٣] المصدر السابق ، ص٢٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباب الثاني : الدراسة الفنية

١- بناء القصيدة

٢- اللغة الشعرية

٣- التراث

٤- الصورة الشعرية

٥ - الموسيقى الشعرية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١-بناء القصيدة

أ – البناء الخارجي

١- البناء المقطعي

٢- البناء التوقيعي

ب – البناء الداخلي

١ – البناء الدرامي

٢- البناء الملحمي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بناء القصيدة

يجمع الدارسون على أن بناء القصيدة هو النظام أو النسق أو القانون القائم بين عناصر القصيدة وأجزائها ، وهو الخيط الناظم لتلك العناصر والأجزاء . ويمتاز البناء بأنه (ليس ذا صبغة عقلية منطقية وإنما هو ذو صبغة ابداعية ، قوامها رؤية الشاعر للعالم ، مما يجعل هذا النظام متنوعا متعددا)[١] ، لذا فإن الحديث عن البنية في هذا المقام هو التسليم بأن النص الشعري إشكالي بطبيعته وقراءته ، وأن الإحاطة بالقوانين البانية لشعريته لا تتم إلا بالمجاهدة والمغالبة . وسوف ندرس بنية القصيدة عند يوسف الخطيب من خلال تقسيمها إلى نمطين: خارجي ، وداخلي .

أولا: البناء الخارجي

عمد الشاعر إلى تقسيم القصيدة تقسيما خارجيا (شكليا) بوضع فراغات بيضاء أو نقط بين مجموعة من الأبيات ، عدا وضع عناوين داخلية لكل مشهد من مشاهد القصيدة تنتظم بخيط نفسي واحد ، مما يجعل النص ساحة للتجاذب بين الفضاء الداخلي المتمثل بالمضمون والفضاء الخارجي المتمثل بالشكل . وبعد تقصي التشكيلات البنائية عند يوسف الخطيب تبين لنا أن أبرزها هو البنية المقطعية ، والبنية التوقيعية .

١- البناء المقطعي اللوحات

يعتمد هذا التصور على استخدام المقاطع التي يشكل كل واحد منها وحدة لها كيانها الخاص ، لكنها ترتبط بغيرها من المقاطع ارتباطا قويا يشكل وحدة متكاملة من النواحي النفسية والمنطقية والعضوية حيث يكون هذا الترابط أساسا متينا في تشكيل الصورة الكلية وقد وظف الشاعر هذا البناء المقطعي العديد من قصائده ومنها قصيدة (الطريق إلى يافا) الطويلة، التي قسمها إلى خمس لوحات تحمل كل منها عنوانا مستقلا ، مانحا كل لوحة خصائص مميزة يظنها المتلقي لأول مرة خصائص قصيدة مستقلة لشعوره باكتمالها ، لكن لقراءة الواعية لهذه اللوحات تظهر الترابط العضوي والنفسي والفكري بينها حيث تتكامل معا لتعطينا قصيدة تروي قصة الوطن السليب وشوق الشاعر ولهفته لرؤية يافا تلالها وسهولها وقرميدها الوردي.

وفي قصيدة بعنوان (ثلاث قصائد للرفاق) يصور الشاعر لقطات مختلفة تعكس معاناته وسط الضغوط النفسية والسياسية ...

---

[١] خلود ترمانيني ، البنية الفنية في شعر صلاح عبد الصبور ، ر.ج . ، جامعة حلب ١٩٩٨ ، ص ٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١- في الصعب

ليلة أسرجنا خيول الرجاء
من توقنا الشهم سقيناها

وهي على متونها الكبرياء
تنهدت أعرافها بالضياء
وفي الأعاصير همزناها
وحمت الظلمة حماها

تقول ...وحش الليل
شك في العيون وبره

٢- في السهل

لست أنا إياي ، ما هذه
كفي ، ولا السيف بها سيفي
لست أنا إياي ..صدر المدى
قبالتي ..أم جدر الكهف
وجيعة روحي ، وبي غربة
عني ، وأقفو عبثا طيفي
مات الذي في ..ترى كنته
أم نحن كنا اثنين في عطف

٣ – والشعب

يمثلنا دمى ثلجية في الشمس ،
يرصفنا مراتب لا تعي
آجرة
فخارة
صنما
هناك أنت
هنا أنا ،
تنحل من ظفريه ثانية
لقاع النهر..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أوداجي مصعرة
وكلي أنف دميته..
أحس يديه فيما تجبلان الطين،
يجبلني..
كأني الآن لية إصبع شوهاء..
يعبث بي..
وحين أرادني ثغرا،
عيبت ..
تراه يطمسني؟..
يقهقه في غباء الطين؟..
ذاك أنا ،
وذاك أبو الدمى
شعبي ...[١]

يصور الشاعر في القصيدة السابقة معاناته الذاتية من خلال تعرضه للكبت والقهر والطمس ، فبينما هو يحترق إذ بشعبه اللامبالي (ويقهقه في غباء الطين ..) وقد كانت فكرة طمس الحريات النفسية والسياسية مسيطرة على القصيدة بمناطقها الثلاث .

وما الصورة في الشعر (إلا تعبيرا عن حالة نفسية يعانيها الشاعر إزاء موقف معين من مواقفه مع الحياة) .

وكما رأينا فقد كانت تلك الفكرة هي الرابط الشعوري المسيطر على القصيدة لتخلص إلى الصورة الكلية في القصيدة من خلال بنائها المقطعي المتكامل والمتنامي وفي قصيدته (أغاني من فلسطين) يروي الشاعر قصة حبه لبلاده من خلال وحدة نفسية تشد خيوط المقاطع بعضها إثر البعث وإن حمل كل مقطع من المقاطع عنوانا مستقلا .

١- نازحون

على الرمال نازحون ..نازحون
وفي مجاهل القفار ..نازحون

---

[١] ديوان واحة الجحيم ، ص ١٤٣-١٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما يوقع السحاب في السكون
رثاء ارضنا الخصيبة الحنون
لكننا على الخطوب صامدون
على الخطوب ..صامدون
كما يوقع السحاب . في السكون
أنشودة الربيع قبل أن يكون

وفي المقطع الثاني يجسد الشاعر حبه لوطنه ورفضه للمحتل من خـــلال تقديمـــه صورة الشهيد الذي شبهه بوردة حمراء تنبت في سفح الخليل .

٢- رثاء عبد النور

كوردة حمراء في سفح الخليل
كغصن عليق يلوح في الأصيل
عظام عبد النور ، جرحه الطليل
و في العراء نام ليله الطويل
ووسد الصخور ، رأسه النبيل
حطام زورق مغامر ضليل

وفي المقطع الثالث يصور لنا الشاعر الراعي وهو يتغنى فـــي الســـهول حيـــث يسترجع الشاعر من خلاله أيام الطفولة الجميلة :

٣- موال الراعي الصغير

محبوب قلبي لو شدا من مرجنا حسون
لو زار نجم كوخنا ، لو نسمة الليمون
أوف..
مرت على شباكنا ، لو نور الحنون
قالوا أتى مرسال ليلى ، يا هنا المجنون
بلغ نسيم الغرب أحبابي ..هواكم زاد
غير الأسى والدمع ما خلفتمولي زاد
أوف..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مهما الليالي باعدتنا، واللقاء ما جاد
خلوا ظلال الكرمل الزاهي لنا ميعاد
ألقى بدرب السرو ، من بعد الجوى ليلاي

٤ – أغنية إلى نهاد:

لأن في عينيك أطياف السفوح الحالمات
لأن في " الإنسان" نبعا من صفاء الذكريات
عصفورتي ..يا نغما من غابة الليمون آت
لأن في ثغرك تزهو عن بلادي الأغنيات

أهواك يا نيسان أيامي
أحياك من صحوي وأحلامي

أنشودتي ..من كوة بيضاء في ليل الظنون
ألقاك ملء العين ، ألقى وجهك الصافي الحنون
نهاد، يا حلم الروابي الخضر في مدى العيون

٥– نشور الخيام

إذا أتيت في المساء حينا
ولم يكن لهاث ضوء أوسنا
يلوح في الديجور
فلا تقل قبور
لأن في الخيام ..داخل الخيام
مثل أجنة الشموس في الظلام
نحس نحن ما مخاض بعثنا
وموعد النشور
وإن لمحت في عيوننا الذهول
وأطرق الصغار عنك والكهول
ورابك السكون

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلا تقل منون[١]

فهذه خمس أغنيات – قصائد – قد يبدو لأول وهلة أنها مستقلة استقلالا تاما ، وإذا قرأنا كل أغنية على حده من المقاطع الخمس قد نشعر باكتمالها ولكن قراءة فاحصة لهذه الصور التي تشكلها القصائد سوف ترينا كيف أنها تتكامل على المستوى النفسي ، لتشكل صورة كلية واحدة ، وتقدم الأغنيات الخمس صورة الوطن ، والوطن في أبسط معانيه يعني التضحية بالنفس من أجل ميلاد جديد، ولنر كيف ترتبط هذه المقاطع الخمس نفسيا بهذه الفكرة – الصورة الكلية للقصيدة من خلال خمس صور مركبة .

في المقطوعة الأولى: يصور الشاعر مأساة النازحين من خلال معاناتهم وصمودهم في الخيام والسجون .

في المقطوعة الثانية : يرثي الشاعر عبد النور ، التلميذ الذي استشهد مخلفا وراءه كراسة المذاكرة ورسم أخته الموقع[٢] فحب الوطن يتجسد في التضحية والفداء.

أما في المقطوعة الثالثة فيقدم الشاعر صورة الراعي الصغير وهو يتغنى بجمال بلاده ويغني المواويل آملا في عودة الغياب .

أما في المقطوعة الرابعة: فتظهر لنا صورة (نهاد) صديقة الطفولة التي ترمز إلى أرض الوطن ،فهي نغم من غابة الليمون وهي حلم الروابي الخضر في العيون .

أما في الصورة الخامسة والأخيرة فيعود بنا الشاعر مرة أخرى إلى صورة اللاجئين في خيامهم وبؤسهم .

وهكذا قدم لنا الشاعر من خلال تلك المقطوعات الخمس صورة كلية لمعاني التضحية والفداء وكلها تدور في فلك الوطن وحبه ..

وكان الشاعر قد ربط تلك المقاطع من خلال وحدة نفسية سيطرت على كل أجزاء القصيدة التي كان عنوانها يناسب موضوعاتها حيث جاءت المقطوعات متفاعلة لتعزز الصورة الكلية التي قدمتها القصيدة.

البناء التوقيعي

تعرف قصيدة التوقيعات بأنها (مجموعة من المشاهد المنفصل بعضها عن بعض كل الانفصال يكاد كل مشهد فيها أن يقوم بذاته ولكننا ما نلبث أن ندرك إدراكا مبهما

---

[١] "أغان من فلسطين " ، ديوان عائدون ، ص ٥٨-٦٦.

[٢] وهي قصة حقيقية شاهدها الشاعر بأم عينه حيث تسلل ذلك الفتى وهو من سكان يافا أصلا هاربا من غزة بعد العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ليصل إلى الخليل جثة هامدة من فرط الإعياء والجوع والبرد القارس وظل ملقى مكانه إلى أن عثر على جثته أحد رعاة الأغنام بعد بضعة أيام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن شيئا ما يصادفنا في كل مشهد كأنه يتخذ لأول مرة قناعا جديدا حتى إذا ما انتهت القصيدة وأدركنا أن هذه المشاهد لم تكن أقنعه بل مظاهر مختلفة لحقيقة واحدة)[١].

وتعتمد القصيدة ذات البناء التوقيعي على تحقيق أكبر قدر من التركيز والتكثيف حيث تقدم القصيدة فكرة أو انطباعا أو صورة باقتصاد شديد.

ويقوم بناء القصيدة التوقيعي على مجموعة من التوقيعات ولكل توقيعة عنوان مستقل يتخذ في بعض الأوقات أرقاما.

ويبدو أن يوسف الخطيب استخدم هذا النمط من التشكيل البنائي من خلال التوقيعات المرقمة حيث تشكلت القصيدة التوقيعية من عدة توقيعات ذات أرقام متسلسلة.

وتعد كل توقيعة مرقمة مترابطة بحيث تقود كل واحدة منها إلى التي تليها بتسلسل رقمي مفروض .

وتجدر الإشارة إلى أن عددا من التوقيعات المرقمة القصيرة هي أشبه ما تكون بقصائد قصيرة جدا بدليل أن عنوانها " تقاسيم " ، "رباعيات " ، وربما توحي هذه العناوين بأن الشاعر يريدنا أن نتعامل معها بوصفها تنويعات يتنظمها خيط وجداني باطني أو حالة وجدانية عامة كما سنرى .

في قصائد " تقاسيم على الخفيف " قسم الشاعر القصيدة إلى خمس وعشرين توقيعة، وكل توقيعة انتظمت في أربعة أسطر حيث نلمح ذلك الرابط الشعوري المنسجم بين كل توقيعة وأخرى:-

١

وأنا لا أحسن الغناء لأني
بح صوتي من الأسى والرثاء
هاكم القوس والربابة عني
واشربوا الخمر ، وحدكم ، أصدقائي

٢

سيداتي وسادتي ..آنساتي..
أنا عراف كل خوف آت
في فناجينكم أرى وسع قبر
بين أسوان ، جاثم ، والفرات..

---

[١] عز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر ، ص ١٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣

طلعت ذئبة من البحر ترعى
غنم الله في تخوم القبيلة..
غنم الله كن في القفر أشتاتا،
وكان الأكباش في القيلولة

٤

لم أكن شاعرا، ولكن قومي
ضيعوا الدرب ، تحت شمس الظهيرة
فاكتوى خافقي ، فصار حداء..
فنداء ..على فلول المسيرة..

١٥

في فلسطين كنت خبأت قلبي،
وأغاني عند ضفة نهر
فإذا الريح هامست في بلادي
قصب الماء ..ذاع أجمل شعري..

١٦

يا رئيس التحرير بالله زدني
بعض علم ...ويا مدير الإذاعة
قد حفظنا الأخبار عن ظهر قلب،
نبئنا بعد عن ..قيام الساعة..

٢٠

دع على الدرب جرحنا المطلولا
شرف الجرح أن يضيئ السبيلا
قسمة الله أن نكون الضحايا..
في ذوينا ، وأن نكون الدليلا..

٢١

لم تزل حربك البسوس ، وما زلت
وسيط الجمعين ، وابن سنان..
وارتمت حمير على كعب كسرى،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى كعب قيصر ، بنو غسان

٢٤

عندما ينجلي الغبار عن الأفق
ويصحو التاريخ عن ذي قار
فانتظر مكة المجيء ، وبشر
بطلوع النهار ..قبل النهار..

٢٥

خل نصف النضال قولا، ولكن
خل نصفا إلى الحسام المجرد..
واحد الخلق، من أضاء من الحرف،
شبا السيف ، فاستضاء ..محمد!! [١]

تسيطر على القصيدة السابقة فكرة مركزية واحدة هي الشوق للوطن والدعوة إلى استرجاعه ضمن فكرة شعورية واحدة كانت تدور التوقيعات السابقة حولها بحث أن كل توقيعة تأتي على شكل توليد يكمل الدفقات الشعورية المترابطة ذهنيا.

وقد اتسعت القصيدة مع طولها لمختلف أشكال البنى والتقنيات الفنية والقصصية .

وفي قصائد بعنوان (أربعون رباعية) قسم يوسف الخطيب شعره إلى أربعين توقيعة انتظمت كل واحدة منها بأربعة أسطر لتصور رؤى الشاعر الداخلية من خلال خيط شعوري واحد يشد التوقيعات بعضها إلى بعض :

٣٧

ها أنا الآن ، وممنوعة أشعاري ، وكتبي
من حصار نثقب الليل ، إلى جوف حصار
إن تسل عني، أبا زيد ، فخذ عنوان قلبي
بين أعقاب الدياجير ..وميلاد النهار

٣٨

طقم أسنان ، وعكاز ، وأنشاق سعوط
في اجتماع ، غير عادي ، ببهو الجامعة
فابحثوا هندسة الموت وكيمياء الحنوط

[١] قصيدة بعنوان "تقاسيم على الخفيف " رأيت الله في غزة ، ص ٨٥-٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد ختمنا سورة " الكهف" ..تليها "القارعة" !!

٣٩

بع ، أبا زيد ، مع الخردة، مخزون سلاحك
صدئت كل الصواريخ ، وأسلاك الإشارة
واشتر الليلة ، تلفازا ، ووسكي ، وأرائك
فعلى كل قناة ..قلم، "أطفال الحجارة "!!..

٤٠

وحدك الآن اقتحمت النار ، والإعصار ، وحدك
شعبي الرائع ، فاصعد قمة ، في إثر قمة
وابتدع مجدا لذي القربى ، وإن هدم مجدك
ذاك معنى أنك البعث ..وأسطورة أمة !!..[١]

تسيطر على القصيدة السابقة فكرة شعورية واحدة هي قضية الشعب الفلسطيني التي أضحت فيما نشاهده على شاشات التلفزة ونستمتع بمتابعته لنبكي قليلا ثم ننساه بعد قليل .

وتلك هي الفكرة الشعورية المسيطرة على كل الأبيات السابقة . وقد جاءت التوقيعة الأربعون تلخيصا لكل ما سبق لترسخ الفكرة وتؤكدها في ذهن المتلقي . ففكرة القصيدة السابقة كانت مسيطرة على أجزائها الأربعين لتكتمل في النهاية مع اكتمال القصيدة.

ثانيا : البناء الداخلي

البناء الدرامي

[١] رأيت الله في غزة ،ص ٢٧-٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البناء الدرامي هو البناء الذي يقوم على الصراع وتعدد الأصوات وتعدد الحـــدث وتناميه عبر أزقة تقود إلى حل . وهو البناء الذي تقل فيه الغنائية ويكاد يغيب صوت الشاعر لتظهر الرؤية الموضوعية فنيا للعالم.

فالإنسان والصراع وتناقضات الحياة هي العناصر الأساسية لكل قصيدة لها هـــذا الطابع الدرامي . وفي قصائد يوسف الخطيب نلمح تلك النزعة الدرامية مـــن خـــلال التناقضات والمفارقات في شعره بالإضافة إلى عنصر الصراع الواضح .

ففي قصيدته (بالشام أهلي والهوى بغداد) نلمح الصراع الدائر بين ذات الشـــاعر والواقع الخارجي ، فبينما كان الشاعر يتلهف لرؤية أبناء وطنـــه ومعـــانقتهم يفاجـــأ بموقفهم الغريب حيث يرفضون استقباله:

أحس أنني أذوب فرحا
حتى البكاء ..يا ربي بلادي
تخونني عيناي في لقائكم
أحبكم ...أحبكم
فما لكم ، من عجب ، تحدقون
أردت أن أقول إنني أحبكم فعوني
لا تنظروا إلي هكذا
لا تدعوا الأطفال يرجمونني
أحبكم ..
أردت أن أدلي بالشهادة ..اسمعوني
لا تأخذوني ساحة المدنية..اسمعوني
أكرهكم ...لا تطلقوا جنوني
أكرهكم ...أكرهكم ...ولا أحب أحدا !![1]

والواقع أننا في الدراما (نشاهد بشرا يقومون بدافع من الحب والبغضاء بمواجهة بعضهم البعض الآخر بما يحملون من مثل أخلاقية وثقافية قد تكون متصلة بـــالفكر أو العواطف أو الانفعالات ، وقد تكون ممثلة للحق أو الباطل ، للخير او الشر فيحاول كل منهم التأثير في الآخر كما أنهم يحددون عن وعي العلاقات النسبية بينهم)[1].

---

[1] ديوان بالشام أهلي ، ص ٣٤-٣٥.

[1] محمد الأهواني ، مجلة الأديب ، مايو ، ١٩٥٥ ، ص١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى ضوء ذلك يبرز الصراع في القصيدة من خلال المواقف المتصارعة نتيجة الاختلاف أو التصادم في الآراء والعقائد والإرادة ، فالشاعر سيقرر ثمة حقائق يرفضها قومه ، وهنا يبرز جوهر الصراع :

إرث أبي هذا ...
وأنتم اقتسمتموه عن يد اللصوص
خنتموه ...بعتموه للغرباء
إرث أبي هذا ..ابتلعتموه في بطونكم
وإنني أشك في عيونكم...أصابعي..[٢]

ونلمح الصراع بين الشاعر والمجتمع الخارجي ، فهو عالم ظالم يلاحق الشاعر ويحاكمه بتهمة غير معروفة الأبعاد :

وقفت حافيا وراء باب أمتي العظيمة
أدقه على قلوب مغلقة
في الليل ، والثلج ، وفي مخالب الجريمة
حتى غدت يداي مطرقة
وصرت ضيف أمتي ، وصار جسمي الوليمة
وهيئت لي خيمة ،ومشنقة !!
وساقني الجند أمامكم بتهمة الجنون
وقال لي العالم : قف
لا تسألوني أيها المحلفون من أكون
فإنني سأعترف ...
أنا الذي سجلت في عيني عنوانها
جسدت في جسمي فلسطين وألوانها
أنا الذي جرعت فوق الطور أحزانها
وأنني الوعد الذي ينشر بستانها
يا راجمي شعب فلسطين على ذنوبه من منكمو بلا ذنب!![٣]

وإذا كان الشاعر يعبر عن ذاته في الأبيات السابقة من خلال كلمة ألـ (أنا) فهو يعلم أن ذاته لا تقف معزولة عن بقية الذوات الأخرى وعن العالم الموضوعي عامة وإنما هي ومهما كان لها استقلالها ليست إلا ذاتا مستمدة أولا من ذوات تعيش عالما

---

[٢] ديوان بالشام أهلي ، ٣٢.

[٣] قصيدة بعنوان " أنهض من جنازتي وأموت " ديوان بالشام أهلي ، ص ٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

موضوعيا تتفاعل معه وهذا ما ينقلنا إلى (درامية التفكير الشعري)[١] وعلى ضـــوء ذلك فان الشاعر يقصد بذاته شعبه الفلسطيني المطارد فأينما يذهب يقول لـــه العـــالم : قف!.

ويلعب الحوار – بما فيه من علاقة جدلية بين المتحـــاورين – دورا فـــي كشـــف صورتهم من خلال هذه العلاقة التي تربط بين الشاعر وبين مجتمعه . (والحوار بما يتسم من حركية يكسب القصيدة الغنائية حدا دراميا) [٢].

وهذه الحركية يجسدها الحوار الذي نتعرف من خلاله على هويـــة الشـــاعر فـــي قصيدة (دمشق والزمن الردئ):

- أعرفت من أنا؟
- لا ....
- أنا العربي من جبل الخليل

ضللت وافترقت دروبي

- أنا من حملت على جهات الأرض فاجعة

التراب والخصب ، والزمن الجديب

وفي موضع آخر يضعنا الشاعر أمام مفارقة تصويرية فبلاده كبيرة ملء الأرض ووسع الشمس لكنه بلا وطن :

وأنا الذي وطني ارتحال الشمس ملء الأرض

لكني بلا وطن

منذا يصدقني

- أبليت نعلي في الرمال ، وفي الجرود ،
- أدق أبوابا ، وتدفعني
- من انت ؟
- من عرب الخليل ..
- وعم تبحث ؟..
- عن ثرى حر ، وعن سكن
- هلا أقمت بنا ؟..
- أقمت هنا..
- فما يشقيك ؟..

---

[١] عز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر ، ص ٢٨٠.

[٢] صالح أبو اصبع ، الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩،ص٣١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- هم ليس يبرحني
- ما ذاك ؟..
- جرح الروح من اللطرون
  لم أفهم عذابك
- كيف تفهمني ، وأنا الذي وطني ارتحال الشمس ملء الأرض ،
  لكني بلا وطن !![1]..

وفي الأبيات السابقة هناك صوتان ، هما صوت الشاعر والصوت الآخر . ومن خلال ذلك الحوار نلمح العذاب الذي يعانيه الشاعر ، فهو يتكلم ولكن الصوت الآخر لم يفهم عذابه ، ولغته أضحت غير مفهومة للآخرين وكأنه من عالم لا يعرف ولا يفهم ، حتى أنه أنهى ذلك الحوار بأسلوب المفارقة التصويرية ، فهو يملك وطنا يسع الأرض كلها ومع هذا فلا وطن له. ولذلك لا غرابة أن يستفهم منه الناس عن سر عذابه فهو يقيم في مكان قديكون معزولا عن البشرية مفكرا في همه غارقا في عذابه حتى أنه إذا دعي للإقامة في مكان آخر يرفض ذلك وكأنه يفضل أن يبقى في عزلته يظل في مكانه لا يبرحه .

وهكذا فقد حرص الشاعر على تجسيم الموقف النفسي الخاص الذي يعانيه بكل كيانه كي لا ينسى مأساة شعب من خلال الحوار الذي نقله ، ويرسم من خلاله حالة التفاعل بينه وبين المجتمع. فالشاعر لم يأت بخبر الانكسار الروحي الهائل الذي يعاني منه بشكل مباشر ، وإنما اصطنع طريقة فنية توحي بهذا الواقع من خلال الاعتماد على الأسلوب الحواري الذي ينقل تجربة الشاعر بكل تفصيلاتها وإن كان ذلك الحوار لا يستغرق كل القصيدة، ولأن الشاعر بطبيعة الحال كان ينتقل من الحوار إلى الأسلوب التقريري وفقا للسياق الفني المطلوب في القصيدة.

البناء الملحمي

جاء في الموسوعة الأدبية أن الملحمة تعني (القصيدة القصصية الطويلة التي تحكي أعمال البطولة التي تصدر في العادة عن بطل رئيسي واحد ويكون لها مغزى

---

[1] ديوان واحة الجحيم ، ص ٧٢-٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قومي واضح) [١]وتقوم على أساس سرد مآثر بطل حقيقي يندفع إلى واجبه لأن إرادته هي التي دفعته إلى ذلك .ومع دخول العنصر الفكري إلى ميدان الشعر العربي المعاصر بدأ الشاعر المعاصر باستخدام الفكر إطارا موضوعيا لذاته حيث أخذ الشاعر العربي المعاصر يتوسع في بناء قصيدته من خلال الاعتماد على وسائل التعبير الأدبي المختلفة من ملحمة وأسطورة ومسرح وما إلى ذلك لكي يرسم للتجربة الذاتية إطارا موضوعيا حيا.

وقد استند يوسف الخطيب في بناء قصيدته على عناصر ملحمية جعلت النص الشعري ملحمي الطابع وذلك في قصيدته " بالشام أهلي والهوى بغداد " حيث عبرت بنا تلك القصيدة – كما رأينا – ساحة النكبات العربية الشاسعة على صور ولوحات تصويرية ومشاهد متتابعة مشحونة بمعاني الذي والمهانة ..

وهذه الهزائم المتلاحقة ولدت لدى الشاعر عدم الثقة في الحاضر فلا راحة ولا عزاء إلا بالفرار إلى الماضي واستحضار صوره المشرقة ، فكان استحضاره لسيدنا يوسف والحسين بن علي وعلي بن أبي طالب وأبي ذر . وشاعرنا – كما يبدو – كان ممزقا بين الماضي والحاضر ، ولذلك فان صوره تمتد إلى الزمن الماضي والحاضر فيما يشبه المقابلة مع سيطرة صورة موحدة راحت تدور حول القصيدة إنها صورة القلق والضياع والشعور الحاد بالاغتراب .

وفي قصيدته (رأيت الله في غزة) نلمح بناء طويلا منسجما مع طبيعة الملحمة الشعرية، حيث بدأت القصيدة على شكل حلقات دائرية لتكون هناك بداية وعقدة ونهاية من خلال إيقاع شعري ملحمي :

حليبك في دم الشهداء ساقية
تهيم على جهات الأرض
ثم تصب في بحرك
حليبك خمر دالية
يعب كؤوسها الندمان
ثم يكون من دمهم طلى ثغرك
حليبك غيمة بيضاء
تشرب منك لون الجرح
ثم تغوص في صدرك

[١] عبد الحميد يونس ، مقالة بعنوان الملاحم كتاريخ وثقافة ، عالم الفكر ، م١٦، ع الكويت ،١٩٨٥،ص١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليلة أن برحتك
ضعت في الأحقاف
وأشرد عنك ..في إثرك..

تطالعنا في المقاطع الشعرية صورة كلية واحدة هي صورة الأم التي تعطي ، لكن عطاءها لا ينضب ، فالساقية التي تدور توحي بالعطاء المتجدد . والصور اللونية من دماء وحليب وخمر الدالية والغيمة البيضاء ، كلها ساهمت في تعميق الأحاسيس والانفعالات الحادة التي كانت تسيطر على الشاعر . فالدماء والنار وغيرها من الصور اللونية المقترنة بالموت كثر ورودها في القصيدة بشكل ملحوظ.

والملاحظ أن كل دفقة شعورية تنتهي لتبدأ دفقة شعورية جديدة من نفس البداية وكأننا نحس أن كل جملة شعرية مستقلة بذاتها . وكعادته يبدأ الشاعر في استخدام الصور الشعرية التراثية.

ويغوص الشاعر في غيابه الجب ليذكرنا بقصة سيدنا يوسف عليه السلام ،كما نلمس في قصيدته روح نشيد الإنشاد ليعمق إحساسنا بقداسة هذه البقعة الصغيرة وهي غزة :-

وأنت الآن آمنة
وأنت حليمة الصحراء
وبوحك صار جبريل القصيد
وسورة الشعراء
وجرحك مائدة المسيح
وزمزم الشهداء
لأني فيك غصت غيابة الجب
وأصعد فيك طور الحزن والحب
وها أجراس قافلة
تجيء إلي عبر سفوح جلعاد
فسوف أشيد مئذنتي
على بوابة السلطان
وأقرأ فيك أدعيتي وأورادي
وأشد فيك أنشادي
"أحب حبيبتي ...يا ليل
"خذ بوحي وأسراري

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"وتحت ربيع شرفتها
"فتحت جروح قيثاري

حلبيك في دم الشهداء ...منك ...إليك
أنت وهم خلوص البحر في المزن
وأنت وهم ..نشيد الحب ...والحزن
نهايته ...بدايته...على الكون[١]

ويظهر التضاد في أكثر من موضع في القصيدة ، حيث نشهد نوعا من التقابل الحاصل بين أبناء غزة بكفاحهم وصمودهم وشجاعتهم وبين أبناء أمتهم العربية المتخاذلة :

ونحن هنا – على الأحقاف –
مخبولون في مس من الجن
فنادينا ..لعلك إن نفخت الصور
قد تجدني شبه القلب، والأذن
يهيج بنا..
وشبه الدمع في العين..

ونحن على أرائكنا
نمد الآه تلو الآه..
ونحيي للصباح ولائم العرق
ونغسل عارنا بالعطر والدبق[٢]

وقد احتوت القصيدة على ذروة شعرية فتمثلها في رؤية الله تعالى وهو يمسح دموع الأطفال والأمهات ويسقي الأرض غيث الصبر :

ولكني صعدت إلى طور سنين
رحت إليه حتى قمة المأساة
ويا قومي ..أبشركم ..رأيت الله
وكنت ..وكانت الأشياء
دخانا فوق وجه الغمر

---

[١] ديوان رأيت الله في غزة ، ص ١٤-١٦.
[٢] ديوان رأيت الله في غزة ، ص ١٨-٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو يعيد خلق الكون .. من سيناء..

رأيت الله بين حرائق الحرب
يضم لصدره الدنيا..
يصب الغيم في النابالم..
يطبع قبلة الحب..

ورأيت الله في غزة
يؤرجح فوق نور ذراعه طفلا
إلى أعلى..
ويمسح في سكون الليل
أدمع أمه الثكلى

رأيت الله في الساحات
يغمض أعين القتلى
ويسقي في مدافنهم
غصون الآس والدفلى

ولإضفاء طابع الروائية على هذه الصورة يعمد الشاعر إلى خاصية أساسية من التصوير الدرامي وهي خاصية التجسيد (فالتكفير الدرامي لا يأتلف ومنهج التجديد لأن الدراما لا تتمثل في المعنى أو المغزى وإنما هي تتمثل في الوقائع المحسوسة التي تصنع الحياة)[١] .

ونلمح التجسيد من خلال رؤية الشاعر لله وهو يؤرجح فوق نور ذراعه طفلا ...ويمسح دموع الأمهات وهو يسقي الأرض غيث الصبر وكلها صور حادة عبرت عن عمق المأساة ..

وقد شخص الشاعر غزة من خلال العبارة (واغزاه) فكانت غزة هي معتصم هذا العصر ، نعتصم بها فتلبي النداء ..

ولكني اعتليت إليك صهوة همتي
وجنون إصراري

[١] عز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر ، ص٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنت البحر.. والبحار.. والمرسى..
وحمى الأهل والدار
ومنك ، إليك ، أسفاري..

وها أنا ..فوق صدر اليم
أمخض موج أقداري
وأسأل عنك ..واغزاه..
في مقل النجوم ونورس أقداري[1]

وقد امتلأت القصيدة بالصور الشعرية النابضة بالحركة حيث نقلنا الشاعر إلى ساحة المعركة ننتقل بين القتلى والجرحى والأمهات الثكلى وكل ذلك في إيقاع شعري منسجم مع روح الملحمة .

لكن شاعرنا بعد بلوغ الذروة الشعرية يختتم قصيدته داعيا غزة إلى الصمود والصبر لتشق ثوبها العربي عن سترها لأنها مكتفية بذاتها وصمودها فهي آخر بقعة لم تهو ..وحالها كحال صقر قريش ذلك الفارس العربي الذي فر عبر الفرات ليؤسس بمفرده مملكة حضارية لا تزال موضع فخر واعتزاز إلى يومنا هذا :-

لأنك أنت صقر قريشنا
وبقية الرمق
لأنك أنت آخر راية لم تهو
فاصطفقي..
لأنك أنت طير البعث
فاحترقي
وعبر رمادك انبثقي..
حليبك في دم الشهداء
دالية تذوب على لظى ثغرك
مهم سأقول حتى الصبح
ما شربوه من خمرك..
وأنت .. وهم .. عناق الموج والرمل
وأنت .. وهم .. مزاج الدمع والكحل

[1] ديوان رأيت الله في غزة ، ص ٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنت وهم ..بلا أهل !!
بلا أهل !!
بلا أهل !!...
فشقي ثوبك العربي عن سترك
ودقي صدرك المسبي في الليل

ونادينا بأعلى الطور ...
نسهر ليلة البستان في حجرك
لأن هناك وعد الصبح
ينهض.. من دجى قبرك!!...[١]

وتتخذ القصيدة في بنائها الداخلي شكل البناء الملحمي لكنها من حيث هيكلها الخارجي العام اتخذت شكل البناء الحلزوني حيث اتخذ كل مقطع شعري شكل الدائرة المغلقة ، هذا البناء جاء مناسبا لتصاعد الحدث ، فغزة خلية نحل مغلقة على نفسها ، مستقلة بذاتها، ولذلك جاءت الدفقات الشعورية السابقة حاملة طابع الدوائر المغلقة ...من البداية ...إلى النهاية ..

ولو ذهبنا نتتبع بناء القصيدة لوجدناه قد تميز بالطول وهذا ينسجم مع طبيعة الملحمة الشعرية حيث تألفت القصيدة من مجموعة من المشاهد المتتالية التي فصل بينها ببياض . وهذه المشاهد يرتبط بعضها ببعض برابط شعوري منسجم واحتوت القصيد – كما رأينا – على ذروة شعرية تمثلها في رؤية الله جل جلاله وهو يتدخل في الصراع ..

وتتبدى خصائص البناء الملحمي في القصيدة السابقة من خلال ما يلي :

١- تضمنت القصيدة من خلال بنائها المعماري بداية وعقدة وخاتمة تمثل العقدة ذروة القصيدة التي تقود كل الأسطر الشعرية إليها .

٢- تميز بناء القصيدة بالطول حيث تألفت من مقاطع متعددة يرتبط بعضها ببعض من خلال تطور الحدث الرئيسي فيها ، ومن هنا فان كل حدث يبرز ما يليه وينسجم مع ما سبقه .

---

[١] ديوان رأيت الله في غزة ، ص ٢٤-٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- يعتمد البناء المعماري في القصيدة على وجود بطل هو المحور الأساسي فيها بحيث تدور الأحداث وحول هذه البطولة التي تتجسد في غزة .

٤- يلتقي البناء الملحمي مع الدرامي من خلال وجود عنصر الصراع القائم على أساس التضاد بين موقفين متضادين هما: موقف غزة بمعاناتها وصمودها وموقف الأمة العربية بتخاذلها وتكاسلها (فالإنسان والصراع وتناقضات الحياة هي العناصر الأساسية لكل قصيدة لها هذا الطابع الدرامي ..)[١].

٢- اللغة الشعرية

أ – مفهوم اللغة الشعرية

[١] عز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر ، ص ٢٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب – معجم الشاعر

ج – ملاحظات حول المعجم الشعري

د – سمات اللغة عند الشاعر

أ– مفهوم اللغة الشعرية:

تتداخل عناصر الإبداع الشعري وتتمازج بوشائج قوية تجعل الباحث يقف عاجزا عن الفصل بينها ، وتحديد العنصر الأكثر حيوية في النص الإبداعي ، ولولا ضرورة الإحساس ببواعث الجمال وأسرار جاذبيته لما شرعت الباحثة للفصل بين هذه العناصر مضطرة إلى تمزيق وشائجها القوية ، وهي لا تملك في البداية إلا أن تقرر بذلك الحضور القوي للغة الشعر خاصة . فقد ذهب بعض الباحثين والنقاد إلى أن الشعر ليس في القصة أو الموضوع أو الغاية الأخلاقية أو العواطف المستثارة أو أي تجريد يمكن التعبير عنه بالنثر ، على الرغم من أهمية هذه الأشياء وعدم القدرة على الحديث

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن الشعر دون الحديث عنها " لكن الشعر يعيش في لغته ،ولا يمكن بأي حال فصله عن ألفاظه الأصلية التي كتب بها ".[١]

والشاعر المجيد هو الذي يستطيع أن يشحن لغته بالموسيقى والصورة وخلاصة تجربته المنبثقة عن تفاعل الفكرة والحدث مع العاطفة والشعور ، لتأتي لغته متميزة تميز تجربته وخاصة خصوصية ذات الشاعر ، ذلك أن لكل انسان إحساسه الخاص برموز اللغة وألفاظها التي ترتبط لحظة بلحظة مع ظلال عديدة ترسخ في النفس تبعا للأحداث الخاصة التي يمر بها والتأملات اللاشعورية التي تتفاعل معها في أعماقه (فالكلمة لا تحمل فقط معناها المعجمي بل حالة من المترادفات والمتجانسات ، والكلمات لا تكتفي بأن يكون لها معنى واحد فقط، بل تثير معاني كلمات تتصل فيها بالصوت أو بالمعنى أو بالاشتقاق ، أو حتى كلمات تعارضها أو تنفيها).[٢]

ويضاف إلى ذلك التأثير الواضح لتجربة الشاعر بشكل عام على لغته إن كانت ترتبط بلحظة فرح أو تحد أو يأس أو حقد أو اطمئنان أو سخرية .

وقد أصبحت لغة الشعر في الفهم المعاصر تتميز في عصر ما عن لغة العصور الأخرى لتطور الحياة وتراكم الخبرات ، وتختلف لغة شاعر ما عن لغة شاعر آخر حتى لو اجتمعا في عصر واحد وتماثلت مصادر ثقافتهما وبواعث إبداعهما ، بل إن لغة الشاعر نفسه تختلف من قصيدة إلى أخرى باختلاف التجربة الجزئية.

وتقف ثقافة الشاعر وقناعاته – في الغالب– وراء قضية الغموض والوضوح في لغته ، فهو يتصور وجود متلق يتذوق الشعر على شاكلة تذوقه له ، ولذلك فانه عندما يبتعد عن الألفاظ الوعرة الصعبة يتخيل وجود قارئ يحب اللغة السهلة البعيدة عن الغرابة ، وعندما يعمد إلى تركيبات لغوية غامضة متتابعة يتصور وجود ذلك القارئ الذي يتمتع بالغموض ، إلا أن جنوح الشاعر إلى استخراج لغة قريبة من لغة الحياة اليومية السهلة عجزا أو ضعفا يعاب عليه ، بل إن اختيار هذه المفردات السهلة دون غيرها من الألفاظ الغريبة البعيدة عن روح العصر يعد دليلا على مدى قدرات الشاعر الإبداعية فليس من السهل تحقيق المعادلة الصعبة بين الواقعية اللغوية والسمت الجمالي الجذاب ، (فالشاعر قد يجد كفايته في كلمات نادرة أو مهجورة أو لهجات محلية ولكن الكلمات الشائعة تحرز أجمل الانتصارات في الشعر ، وقد يرجع ذلك إلى قدرتها على

---

[١] اليزابيث درو ، الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ، ترجمة محمد إبراهيم الشوش ، مكتبة منيمنة ، ١٩٦١، ص ٣٣٥.

[٢] (رينه ويلك ، وأوستن وارين) نظرية الأدب ،ترجمة محيي الدين صبحي ، دمشق ، المجلس الأعلى للفنون والآداب ، ١٩٧٢، ص٢٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تنشيط المعنى ، وإلى جانب صفات المعنى ميزة أخرى هي الصفة أو الصوت المستحدث أو الإثارة الديناميكية".[١]

إن الشاعر المبدع هو الشاعر الذي يستطيع أن يكسب الكلمة حضورا خاصا باستخدامه لها دون غيرها ، فهو يلقى عليها ظلال شخصيته ويخضعها لنهجه الخاص الذي يعتمد على مدى سعة ثقافته اللغوية المتعلقة بمظاهر اللغة المختلفة كالاشتقاق والترادف والتضاد والتكرار والتكييف والاختزال والتضمين. مما ينعكس على الكلمة التي تدفع الآخرين إلى التعامل معها بظلها الجديد " فمن حيويته الشخصية وقوتها تستمد الكلمة حيويتها وهي بهذه الحيوية والقوة تؤثر في الآخرين وتفرض نفسها عليهم".[٢]

ب – معجم الشاعر :

يمتلك كل شاعر لغة خاصة تكون معجما خاصا ، قد يشترك في الكثير منه مع شاعر آخر . إلا أن هذا المعجم يظل متميزا ،وذلك من خلال أمرين : الأول نوعية هذه الألفاظ التي يختارها الشاعر ، والمضمار الذي تدور حوله ، لأن ذلك يعكس نفسيته وطبيعة تجربته ، الأمر الثاني هو طريقة الشاعر في التعامل مع هذه الألفاظ وكيفية تركيبه لها .

والشاعر لا يأتي بألفاظ بعيدة عن متناول أيدي الناس ، سواء كانت سهلة أم صعبة تحتاج إلى الرجوع للمعاجم ، فالألفاظ ملك عام يتداوله الجميع ولكن ما يميز معجم الشاعر هو ما يستخدمه من إمكانات اللغة وبلاغتها (فهو قد يستعمل كل حيل اللغة من البساطة الكاملة إلى البلاغة المعقدة فيذكي حرارته آنا من خلال الايجاز وآنا من خلال الاطناب، وطورا عن طريق حذف التفصيلات وطورا عن طريق التكرار).[١]

ولا تعني بساطة الألفاظ وسهولتها أن يكون الموضوع سطحيا والمعاني تافهة ، (فليست المعاني في بساطتها أو جلالها هي المحك ، ولكن الطاقة أو العاطفة أو الحركة التي يسبغها الشاعر عليها هي التي تحدد قيمتها) [٢].

وترى "اليزابيث درو" في حديثها عن المعجم الشعري (أن الشعر يمتاز في طبيعته بعنصر الدراما . فالشاعر دائما يخاطب شخصا آخر بطريق مباشر او غير

---

[١] مصطفى ناصف ،نظرية المعنى في النقد العربي ، القاهرة ، دار القلم، ١٩٦٥.ص١٣٤.

[٢] عز الدين اسماعيل ، الأدب وفنونه ، القاهرة ، دار الفكر العربي ،ط٦، ١٩٧٦، ص٣٣.

[١] إليزابيث درو ، مصدر سابق ، ص٨٧.

[٢] المصدر السابق ، ص٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مباشر ، وترى أن الشاعر يتقمص شخصية لحب أو مفكر أو راث أو ساخر أو هجاء)[٣] . ويكتب الشاعر الخطيب شعرا واضحا يفهمه الجميع دون أن يخرج عن إطار الفن. وهو يتقمص روح مفكر ساخر هجاء يقيم الدنيا ولا يقعدها لأنه يرى ما لا يراه الآخرون ،إنه زرقاء اليمامة التي ترى الخطر القادم وتحذر منه ،في لغة قريبة من ذات الشاعر ونفسه و تحمل معانيه ،وتقطر ببساطة مرارة ووعيا وتحريضا .

(وقد يجعل الشاعر كلمة واحدة محورا لقصيدة كاملة وكل شيء آخر يسند الخواطر والأفكار التي تشع منها) [٤]كما سنرى ذلك لاحقا.

ومن الملاحظ أن هناك بعض الألفاظ التي تشكل حضورا قويا في معجم الشاعر دون غيرها لأنها تتصل بصميم تجربته وموضوع قصائده .

وهذا يعني أننا نستطيع القول إن التمييز بين شاعر وآخر يكون على مستوى الألفاظ التي يستخدمها وهذه الألفاظ تميز لغته وأسلوبه . وهناك عدة مجالات لدراسة أنواع الألفاظ من حيث هي حسية أو فكرية ذهنية، وهل هذه الألفاظ عامية أم فصحى أم هناك تحريف للألفاظ ومزج بين العامية منها والفصحى أو أن يلجأ الشاعر إلى استخدام ألفاظ جديدة واشتقاق صيغ أخرى . وبما أن اللغة الشعرية أصبحت مثار اهتمام في دراستنا للشعر الحديث فان الألفاظ شكلت سمة بارزة في دراستنا كحقول تكونها اللغة.

وفي هذه الدراسة ارتأيت أن أدرس أنواع الألفاظ التي شكلت حقولا بارزة في شعر يوسف الخطيب في مجال الدراسة الفنية وهي :

١- ألفاظ المقاومة وتشمل : الأرض والوطن ، الثأر ، اللاجئين ، الشعب ، الثورة ، الشهداء، الأحرار ، الدم ، الجرح .
٢- ألفاظ الطبيعة وتشمل :الطير ، النبات ، الحيوان ، الأشجار ، الليل ، الدجى ، الظلام ، الديجور ، الفجر ، الصبح .
٣- ألفاظ الألوان وتشمل : الأحمر ، الأبيض، الأسود .
٤- ألفاظ المدن وتشمل : بعض المدن الفلسطينية والعربية .
٥- ألفاظ الأقطار وتشمل : بعض الأقطار العربية.
٦- ألفاظ أخرى متفرقة .

وفيما يلي جدول يبين الكلمات التي كررها الشاعر في دواوينه كل كلمة على حدة مع إيضاح عدد مرات التكرار وأرقام الصفحات التي وردت فيها في كل ديوان :-

---

[٣] المصدر السابق ، ص٩١.

[٤] المصدر السابق ، ص٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا: الفاظ المقاومة

رقم	الكلمة	عدد مرات التكرار	اسم الديوان	أرقام صفحات الديوان
١	الأرض	٩	بالشام أهلي والهوى بغداد	١١٥-١١٢-٨٤-٤٠-٣١-٢٩-١٨
		١٥	عائدون	٦٨-٥٨-٥٧-٥٣-٥٢-٤٧-٤٦-٢١ ٩٩-٨١-٨٠-٧٦-٧٥
		١٩	واحة الجحيم	٩٨-٧٥-٧٣-٧٢-٦٧-٦٢-٣٩-٣٣ ١٥٧-١٤٥-١٣٦-١٣١-١٢٤-١٢٠ ١٧٣-١٧١-١٦٥-١٦٤
		٥	رأيت الله في غزة	١٢٠-٧٨-٧٤-٥٣-٤٧
		٣	العيون الظماء للنور	٩٨-٧٢-٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢	الثأر	١٩	عائدون	١٨-٢١-٣١-٣٣-٣٩-٤٠-٤٥-٥٣-٧٣-٧٤-٧٥-٧٦-٧٩-٩٦-٩٧-٩٩-١٠٣
		١٦	العيون الظماء للنور	١٥-١٧-١٨-١٩-٢٨-٢٩-٣٠-٣٧-٦٢-٦٤-٨٧-٩١-١٠١
		٧	رأيت الله في غزة	٣٩-٧٦-١٠٥-١١٦-١١٧
		٣	بالشام أهلي والهوى بغداد	٥١-١٢٠-١٢٢
٣	الأحرار	٥	العيون الظماء للنور	٤٤-٤٥-٧٠-٧٨
		١	بالشام أهلي والهوى بغداد	٧٣
	الشعب	٧	العيون الظماء للنور	٥٢-٨٣-٨٩-٩٠-٩٦
		٥	عائدون	٢١-٥٥-١٠٠
		٢	بالشام أهلي والهوى بغداد	١١٦-١٢٢
	الوطن	٩	واحة الجحيم	١٣-٤٧-٧٢-٧٣-١٠٣-١٠٤-١١٨
		٤	عائدون	٩-٣١-٧٥-٩٩
		٢	رأيت الله في غزة	٤٧-٤٩
		١	العيون الظماء للنور	٢١
		١	بالشام أهلي والهوى بغداد	٥١
	الشهداء	٥	رأيت الله في غزة	١٢-١٥-١٧-٢٥-٦٢

رقم	الكلمة	عدد مرات التكرار	اسم الديوان	أرقام صفحات الديوان
		٤	بالشام أهلي والهوى بغداد	٤٧-٥٩
		٢	العيون الظماء للنور	٤٥-٧٦
	الثورة	٧	رأيت الله في غزة	١٤-٤٧-٧١-٧٥-٧٦
		٤	عائدون	٧١-٩٦-٩٧
	اللاجئون	٣	العيون الظماء للنور	٢١-٢٣-٣٦
		٢	عائدون	٣٣-٧٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألفاظ ذات مدلولات خاصة :

رقم	الكلمة	عدد مرات التكرار	اسم الديوان	أرقام صفحات الديوان
	الجبين	١	بالشام أهلي والهوى بغداد	٥٣
		٧	عائدون	٥٦-٦١-٧٢-٧٤-٧٦-٨٥
		٣	العيون الظماء للنور	٢٢-٧٣
		٣	واحة الجحيم	١١-١٥٥-١٦٣
		١	رأيت الله في غزة	٦٤
	الجبهة	٥	بالشام أهلي والهوى بغداد	١٦-١٧-٣٠-٤٥-٥٣
		٥	رأيت الله في غزة	٤٩-٦٣-٦٤-٩٩-١٠٥
		٤	العيون الظماء للنور	١٧-٢٨-٨٠-٩٧
		٢	عائدون	٨٢-٩٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

		٢	واحة الجحيم	١٥٦-١٥٩

ثانيا : ألفاظ الموت :

رقم	الكلمة	عدد مرات التكرار	اسم الديوان	أرقام صفحات الديوان
	الموت	١٤	العيون الظماء للنور	١٨-٢٦-٣٧-٣٩-٤٤-٤٨-٦٤-٨٤-٨٥-٨٨-٩٥-١٠٠
		١٣	عائدون	٧-١٠-٢٠-٢٣-٢٧-٣١-٣٥-٣٦-٤٧-٥٣-٥٩-٧١-٧٩-٩٦
		٦	واحة الحجيم	٣٣-٤٣-٦١-٩١-١٠٤
		٩	رأيت الله في غزة	١٧-٣٩-٥٢-٥٨-٥٩-٨٧-٩١-١٠٦-١١٣
		٢	بالشام أهلي والهوى بغداد	٢٣-٨٨
	القبر	١	بالشام أهلي والهوى بغداد	٨٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

		١١	عائدون	٣٢-٣٤-٣٦-٣٨-٥١-٦٥-٨٩-٩٦-٩٧-١٠٣
		٦	رأيت الله في غزة	١٣-٢٦-٣٦-٦٥-٧٦-٨٥
		٢	العيون الظماء للنور	٧٣-٩٨
		١	واحة الجحيم	٩٨
	الجنازة	٢	عائدون	٣٥-٤٤
		٢	واحة الجحيم	٩٤-٩٧
		١	رأيت الله في غزة	٣٨
	الكفن	٢	عائدون	٩-٣١

ثالثا : ألفاظ الألوان :

رقم	الكلمة	عدد مرات التكرار	اسم الديوان	أرقام صفحات الديوان
	أسود	٥	العيون الظماء للنور	٣٩-٤٥-٦٢-٧٧-٩٧
		٤	عائدون	٩-٥٥-٥٧-٩٤
	الظلام	٧	العيون الظماء للنور	٢١-٤٧-٥٠-٨٥-٨٦-٨٩-٩٧
		٧	رأيت الله في غزة	١٤-٢٨-٥٣-٦١-٦٧-٧١-٧٧
		٦	واحة الجحيم	٣٤-١٠٩-١٢٢-١٤٤
		٥	عائدون	١٦-٢١-٤٩-٦٥-٩٤
		٢	بالشام أهلي والهوى بغداد	٣٠-٨٠
	الليل	٢١	رأيت الله في غزة	٢٢-٢٦-٢٧-٢٨-٢٩-٣٤-٣٩-٥٥-٦٠-٦٦-٧١-٧٧-٧٩-٨٠-٨١-٨٢-٨٩-١٠٥-١١٧-١٢٤
		١٧	عائدون	٩-١٦-٢٥-٣٧-٤٣-٥١-٥٥-٦٠-٧١-٧٤-٧٦-٧٧-٨٧-٩١-٩٥
		١٦	واحة الجحيم	٨-٢٠-٣٦-٦٦-٦٧-٩١-٩٥-٩٦-٩٨-٩٩-١٢٣-١٤٣-١٤٥-١٦٨-١٧١-١٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

		١٥	العيون الظماء للنور	١٧-١٩-٢٠-٣٩-٦٨-٧٢-٧٣-٨٣-٩١-٩٤-٩٥
		١٤	بالشام أهلي والهوى بغداد	٢٢-٢٩-٤١-٤٤-٥٠-٥١-٩٧-٩٩-١٠٠-١١٢-١١٣-١١٤
	الدجى	٣	بالشام أهلي والهوى بغداد	٢٢-٨٨
		٧	واحة الجحيم	١١-١٨-٢١-١٢٨-١٢٩-١٥٦
		٦	عائدون	٣١-٣٢-٣٣-٣٤-٥٥-٨٣
		٦	رأيت الله في غزة	٢٦-٣٠-٥٦-٦٣-٨٠-١١٨
		٤	العيون الظماء للنور	٢٢-٨٠
	الديجور	٣	رأيت الله في غزة	٣٩-٥٠-١٢٣
		١	عائدون	٦٥
		١	العيون الظماء للنور	٦٤
٣٧	الصبح	١٠	بالشام أهلي والهوى بغداد	١٣-٤٤-٤٦-٤٧-٤٨-٤٩-١٠٠-١٠٨-١١٧-١٢٢

رقم	الكلمة	عدد مرات التكرار	اسم الديوان	أرقام صفحات الديوان
		٣١	رأيت الله في غزة	١٣-١٨-٢٣-٢٥-٢٦-٢٨-٣٨-٦٧-٧١-٧٢-٧٧-٧٨-٨٠-٨٧-٨٩-٩٨-١٠٥-١٠٦-١١٤-١١٧-١٢٢
		١٨	واحة الجحيم	١١-١٨-١٩-٢٠-٤٥-٦٢-٩٢-٩٦-١٠٩-١٢٣-١٢٤-١٢٥-١٣٧-١٥٦-١٥٧-١٦٤-١٦٨
		١٢	عائدون	٢٣-٢٩-٣٢-٣٤-٣٦-٣٧-٣٨-٥٧-٦١-٧٢
		٩	العيون الظماء للنور	٢١-٢٢-٥٨-٦٣-٦٥-٨٨-٨٩-٩٠-٩٩
٣٨	ضياء	٢	بالشام أهلي والهوى بغداد	١٨-٣١
		٦	عائدون	٣٧-٥٠-٥٥-٦٩-٧٠-١٠٤
		٤	العيون الظماء للنور	١٩-٨١-٨٤-٩٩
		٣	رأيت الله في غزة	١٨-٨٧-١٠١
		٢	واحة الجحيم	١٦٠-١٦٣
٣٩	شمس	٤	بالشام أهلي والهوى بغداد	١٣-٧٤-٧٩-١٢٠
		٧	رأيت الله في غزة	٣٢-٣٤-٤٥-٥٧-٦٧-٩٨-١٢٢
		٥	واحة الحجيم	٤٦-٧١-٩٢-١٤٩-١٥٥
		٣	عائدون	٣١-٩٣-٦٩
		١	العيون الظماء للنور	٩٧
٤٠	ثلج	٢	واحة الحجيم	٩٢-١٦٨
		١	رأيت الله في غزة	١٠٣
٤١	أبيض	٢	بالشام أهلي والهوى بغداد	٣٠-٧١
		٢	رأيت الله في غزة	١٢-٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

		٢	عائدون	١٨-٦٤
		١	واحة الجحيم	٥٣
		١	العيون الظماء للنور	٩٨
٤٢	أسود	٥	العيون الظماء للنور	٣٩-٤٥-٦٢-٧٧-٩٧
		٤	عائدون	٩-٥٥-٥٧-٩٤
٤٣	خضراء	١	بالشام أهلي والهوى بغداد	٢٠
		٦	عائدون	٢٧-٤٤-٦١-٦٤-٧٢-٩٤
		٦	رأيت الله في غزة	٣١-٤٤-٥٠-٥٥-٩٨-١٠٤
رقم	**الكلمة**	**عدد مرات التكرار**	**اسم الديوان**	**أرقام صفحات الديوان**
		١	العيون الظماء للنور	٥٩
		١	واحة الجحيم	١٣٧
٤٤	حمراء	٥	بالشام أهلي والهوى بغداد	٣٠-٧٢-٧٥-٧٨-١٠٠
		٥	العيون الظماء للنور	٤٠-٧٨-٩٩
		٣	واحة الجحيم	٣٩-١٦٥
٤٢	الدم	٤	بالشام أهلي والهوى بغداد	٣١-٧٧-١٠٩-١١٥
		٩	عائدون	٣٧-٣٩-٤٠-٤٩-٥٠-٥٦-٦٩-٧٦-١٠١
		٧	العيون الظماء للنور	١٩-٢١-٣٩-٦٨-٧٧-٧٨-٨٢
		٦	رأيت الله في غزة	١٧-٤٧-٧٧-٨٢-١٠٥-١١٤
		٥	واحة الجحيم	٦٧-٨٢-١٥٦-١٦٥
٤٦	الجرح	١١	رأيت الله في غزة	١٢-١٥-٢٣-٣٠-٣٣-٣٥-٤٥-٧٧-٨٦-٩١-١٠٦
		٨	بالشام أهلي والهوى بغداد	٤٢-٨٨-٩٩-١٠٠-١١٥-١١٦-١١٨
		١١	العيون الظماء للنور	٣٩-٥١-٦٢-٧٨-٨٤-٨٧-٩٤-١٠٠
		٢٠	عائدون	١٠-١٧-٢٣-٣٥-٣٩-٥٠-٥٧-٦٠-٦٢-٧٠-٧٧-٨٠-٩٤-٩٩-١٠١-١٠٣
٤٧	نار/لهيب	١١	بالشام أهلي والهوى بغداد	١٧-٢٠-٢٢-٢٣-٢٧-٢٨-٣٣-٤٩-٥١-٥٤
		١٨	عائدون	١١-١٣-١٤-١٥-٢٠-٣٠-٣٣-٣٧-٤٦-٤٧-٥٢-٧٤-٧٦-٨٢
		١٣	العيون الظماء للنور	١٧-١٨-٤٢-٤٤-٤٩-٥١-٥٩-٦٤-٦٥-٧٦-١٠٠
		١٢	رأيت الله في غزة	١٣-٢٣-٤٠-٧١-٧٧-٨٢-١٠٣-١٠٥-١٠٧-١١٠-١١٢-١١٣
		٤	واحة الجحيم	١٤٥-١٦٨-١٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعا: ألفاظ الطبيعة :

أ- التلال والهضاب:-

رقم	الكلمة	عدد مرات التكرار	اسم الديوان	أرقام صفحات الديوان
	سفح/سفوح	٤	بالشام أهلي والهوى بغداد	١٦-٢٠-٢٢-٧٣
		٣	رأيت الله في غزة	٧٦-٨٣-١٠٧
		٢	عائدون	٦٠-٦١
		١	العيون الظماء للنور	٨٧
	الربى	١	بالشام أهلي والهوى بغداد	٥٢
		٨	عائدون	١١-١٢-٢٦-٢٧-٦٤-٧٨-٨١-٨٤
		٢	رأيت الله في غزة	٦٧-٧٣
		٢	العيون الظماء للنور	٥٩-٨٨

ب – ألفاظ النبات :

رقم	الكلمة	عدد مرات	اسم الديوان	أرقام صفحات الديوان

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

		التكرار		
	الكروم	٢	بالشام أهلي والهوى بغداد	٨٥-٨٩
		٣	رأيت الله في غزة	٧٢-٧٣-١١٦
		١	عائدون	٣٣
	غصون	٣	بالشام أهلي والهوى بغداد	١٣-٧٢
	السنابل	٢	بالشام أهلي والهوى بغداد	٥٦-٧٦
		٣	عائدون	٥٠-٧٠-٩٠
		٢	العيون الظماء للنور	٥٦-٩٦
	البرتقال	٤	واحة الحجيم	٣٤-٤٣-٥٤-١٢٦
		٢	بالشام أهلي والهوى بغداد	٩١
	اللوز	١	واحة الجحيم	٢٨
		١	عائدون	٤٤
	شقائق النعمان	٢	رأيت الله في غزة	١٦-١١٤
		١	واحة الجحيم	٧
	دالية/دوالي	٧	رأيت الله في غزة	١٢-٢٣-٤٨-١٠٠-١٠٦-١٠٧-١٢٤
		٤	عائدون	١٢-٣٣-٤٤-٦٣
		٣	بالشام أهلي والهوى بغداد	٢٣-٢٥-٢٦
		٣	واحة الجحيم	٤٤-١٣٨-١٧٥
		١	العيون الظماء للنور	٥٦
	الزيتون	٤	بالشام أهلي والهوى بغداد	١٩-٢٥-٧٥-٩١
		٤	عائدون	٤٣-٤٤-٥٣
		٢	رأيت الله في غزة	٢٧-٤٤
		١	العيون الظماء للنور	٤٧
		١	واحة الجحيم	١٦
	الليمون	٢	عائدون	٣٣-٦٤
		٢	واحة الجحيم	٢٨-٤٦

ج – ألفاظ الطير والحيوان

رقم	الكلمة	عدد مرات التكرار	اسم الديوان	أرقام صفحات الديوان
٤٨	عصفور	٣	بالشام أهلي والهوى بغداد	٣٣-٤٧-١٠٩
		٤	عائدون	٢٤-٤٤-٤٥-٩٥
		٢	واحة الجحيم	٤٣-١٧٥
٤٩	حمام	٣	بالشام أهلي والهوى بغداد	٤٥-٤٧-٩١
		٢	عائدون	٤٩-٥٣
٥٠	نسر	١	بالشام أهلي والهوى بغداد	٣٦
		٦	عائدون	١٦-١٧-٤٦-٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

		٢	العيون الظماء للنور	٢٠-٩٥
٥	خفاش	١	بالشام أهلي والهوى بغداد	٤٥
		٤	عائدون	١٦-١٧-٤٤-٤٥
٥٢	صقر	٢	عائدون	٤٢
٥٣	قبره	٣	العيون الظماء للنور	٣٥-٣٦
٥٤	بوم	٢	عائدون	٤٤-١٠٢
٥٥	حسون	٢	بالشام أهلي والهوى بغداد	٤١-٧٣
		١	عائدون	٦٣
٥٦	الكهف	٧	العيون الظماء للنور	٢١-٨٥-٩٠-٩٥-٩٧
٥٧	الكروم	٢	بالشام أهلي والهوى بغداد	٨٥-٨٩
		٣	رأيت الله في غزة	٧٢-٧٣-١١٦
		١	عائدون	٣٣
٥٨	الناقة	١	بالشام أهلي والهوى بغداد	١٥
		٤	واحة الجحيم	٩-١٥-١٦-١٣٨
٥٩	الجواد	٩	بالشام أهلي والهوى بغداد	١٣-١٤-٢٢-٣٠-٤٦-٤٩-٩٩-١٠٨-١٢٠
		٥	واحة الجحيم	١٠٩-١٣١-١٤٤-١٤٦
٦٠	الخراف	١	بالشام أهلي والهوى بغداد	٢٠
		٦	واحة الجحيم	١٦-٦٠-٧٤-٩٥-١١٥-١٢١
		٣	عائدون	١٢-٢٤
		٣	رأيت الله في غزة	٥٨-٧٦
		١	العيون الظماء للنور	٣٧

خامسا : ألفاظ المدن الفلسطينية والعربية :

رقم	الكلمة	عدد مرات التكرار	اسم الديوان	أرقام صفحات الديوان
١٤	مكة	٨	بالشام أهلي والهوى بغداد	١٥-١٩-٣٣-٤٢-٤٤-٤٦-٤٨-٩١
		٤	رأيت الله في غزة	١٤-٤٨-٧٥
		٣	واحة الجحيم	١٠٩-١١٠-١٢١
١٥	القدس	١٧	رأيت الله في غزة	٣٩-٤٣-٤٨-٥٣-٥٧-٦٦-٦٨-٨٨-٩٠-٩٩-١٠١-١٠٣-١٠٧-١١٤-١٢١-١٢٥
		١١	بالشام أهلي والهوى بغداد	٢٥-٢٩-٤٢-٥٢-٧٤-٨٩-٩٢-١١٥-١١٨-١٢٠-١٢٣
		٦	واحة الجحيم	٢٥-٥١-٦٠-١٠٤-١١٠-١١١
		٥	العيون الظماء للنور	١٧-٢٨-٧٣-٧٧-٨٧
		٢	عائدون	١٧-٧٤
١٦	بيروت	٣	بالشام أهلي والهوى بغداد	١٧-٣٩-٨٤
		٣	رأيت الله في غزة	٦١-٦٣-١١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٧	بغداد	٩	بالشام أهلي والهوى بغداد	٢٤-٢٨-٤٢-٥٥-١٠٦-١١٣-١١٨-١١٩
		٩	عائدون	٣٠-٧٧-٨٥-٨٧-٩٩-١٠١-١٠٢
		٤	رأيت الله في غزة	٩٢-١٢٠-١٢١
		١	العيون الظماء للنور	٨٧
		١	واحة الجحيم	٦٣
١٨	الجليل	٥	بالشام أهلي والهوى بغداد	٥٢-٥٤-١٠٩-١١٩-١٢٣
		٤	واحة الجحيم	٣٤-٦٠-٦٧-٧١
		٣	رأيت الله في غزة	١٩-٧٦-١٠٨
١٩	يافا	١٧	واحة الحجيم	٧-٨-٩-١٠-١٧-١٨-١٩-٢٠-٢٦-٣٠-٤٣-٤٦-٦٦-١٢٦
		٦	العيون الظماء للنور	١٧-٢١-٣٥-٤٩-٧٣-٩٢
		٣	بالشام أهلي والهوى بغداد	٥١-٥٧-٥٨
		١	رأيت الله في غزة	١٠٨

رقم	الكلمة	عدد مرات التكرار	اسم الديوان	أرقام صفحات الديوان
٢٠	الجزائر	٤	عائدون	٢٧-٣٩-٥٢-٥٣
		١	العيون الظماء للنور	٨٧
٢١	اللطرون	٣	واحة الجحيم	٧٠-٧١-٧٣
		٣	رأيت الله في غزة	٤٩-١٠٩-١١٤
		٢	بالشام أهلي والهوى بغداد	٣٤-٥٥
٢٢	الجولان	٢	بالشام أهلي والهوى بغداد	١٩-١٢٤
		٢	رأيت الله في غزة	٧٢-١٢٢
٢٣	وهران	٣	بالشام أهلي والهوى بغداد	١٩-٥٧
		١	عائدون	٧١
٢٤	باريس	٥	العيون الظماء للنور	٢٥-٢٦-٢٧-٢٩-٣٠
٢٥	أوراس	٢	بالشام أهلي والهوى بغداد	١٩
		١	عائدون	٧٥
		١	واحة الجحيم	١١١
٢٦	كربلاء	٣	عائدون	٨١-٨٩-٩٠
		١	بالشام أهلي والهوى بغداد	٣٠
٢٧	الأردن	٤	واحة الجحيم	٨-١٠-٦٤-١٠٣
		٣	رأيت الله في غزة	٤٣-٤٦-١١٥
		١	بالشام أهلي والهوى بغداد	٥٣
٢٨	مصر	٥	رأيت الله في غزة	١١٥-١١٦-١١٧-١١٨
		١	عائدون	٣٣
٢٩	العراق	١٤	بالشام أهلي والهوى بغداد	٢٤-٢٩-٣٣-٥٥-٥٦-٥٩-١٠٨-١١٧-١١٩-١٢٠-١٢١-١٢٢-١٢٤
		٤	عائدون	٢٧-٨٦-٩٩-١٠٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

		٢	رايت الله في غزة	٣٢-٩٠
		١	العيون الظماء للنور	٥٩
٣٠	الشام	١٢	بالشام أهلي والهوى بغداد	٢٤-٢٩-٣٣-٤١-٥٦-٥٨-١٠٦-١٠٨-١١٧-١١٨
		٦	عائدون	٥٢-٦٧-٦٩-٧٢-٧٤
		١	العيون الظماء للنور	٥٧
		١	واحة الجحيم	١١٢
		١	رأيت الله في غزة	١٢٢

ج – ملاحظات حول المعجم الشعري

١ – ألفاظ المقاومة والموت

تبرز ألفاظ المقاومة المبينة سابقا وهي كثيرة في معجمه الشعري لا سيما (الأرض والثأر) وذلك دليل على أهمية ظاهرة المقاومة عنده وتعلقه بأرضه وانشغاله بالثأر لوطنه . إذ كانت فكرة الثأر هي الفكرة الرئيسية التي كانت تدور حولها معظم أشعاره.

وقد كانت ألفاظ ومدلولات الثأر والمقاومة بارزة في كل مراحله الشعرية وإن كانت في مرحلة الخمسينات في أوجها . وقد جعلها الشاعر العمود الفقري لمعظم دواوينه خاصة في ديوانه الأول والثاني . وكانت هناك أيضا ألفاظ ذات مدلولات خاصة مثل الجبهة، والجبهة رمز الكبرياء والشموخ ، ورد ذكرها كثيرا في معظم دواوين الشاعر مما يعني اعتزازه بجبهته ورغبته في أن تظل دائما شامخة وعالية .

٢ – ألفاظ الألوان

تظهر في معجم الألوان ألوان ثلاثة هامة بارزة وهي الأحمر والأبيض والأسود ويتكافأ اللونان الأبيض والأسود. وألفاظ الليل الأسود مثل : ليل ، دجى ، ظلام ذات دلالات توحي بصورة متشحة بالسواد في أغلب أشعاره التي جاءت فيها ألفاظ اللون ، ويبدو أن رؤى الشاعر من حيث استخدامه بكثرة لألفاظ اللون الأسود وإنما هي رؤى قائمة قليلة التفاؤل .

وترد ألفاظ اللون الأحمر مثل (النار ، الدم ، الجرح ، أحمر) كتعبير عن رفض الشاعر للواقع السيء أو السعي نحو الحياة الحرة وكأن هذه الألفاظ كانت قريبة إلى ألفاظ المقاومة التي استخدمها والتي ذكرناها سابقا ، وكأنه يأتي لدى شاعرنا كتعبير عن المقاومة بين الحياة والموت من أجل الوصول إلى المستقبل الأفضل .

أما باقي الألوان كالأزرق والأصفر والرمادي فلم يلجأ الشاعر إلى استخدامها بكثرة في معجمه الشعري .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ – ألفاظ الطبيعة (الطير والحيوان والنبات)

بالنسبة لألفاظ الحيوان ، فقد استخدم الشاعر بعض أسماء هذه الحيوانات بدلالات سلبية مثل : الخنزير والذئب والثعلب ، حيث كررها بصورة سلبية ووثيقة الصلة بالخراب والتشويه والقتل ...الخ. (وجوادي صار جديا .. وبعيري صار في الغربة خنزير قمامة ..) أو قوله(فاشردي يا غنم الله ، بلا وجه على منتجع الشوك ..).

وبعض ألفاظ الطير استخدمها بصورة ذات دلالة إيجابية ومعبرة مثل لفظ (العصافير والحساسين والقبرة) فقد جاءت لتضيف معنى جديدا من معاني الجمال والطبيعة الخلابة التي تتمتع بها بلاده . كما في قوله (محبوب قولي لو شدا في مرجنا حسون ..).

كما تبرز ألفاظ الطبيعة من خلال نباتات وأشجار الزيتون والبرتقال والدوالي التي برزت بكثرة في دواوينه بالإضافة إلى ألفاظ نباتات أخرى وردت فيها أيضا وإن كانت ليست بنفس الكثرة مثل شقائق النعمان والكروم والسنابل والشيح والصفصاف . كما تطل علينا الربى والسفوح والجبال مما يدل على حبه للطبيعة وعشقه للأرض . إذ لعبت الطبيعة دورا بارزا في حياته .

٤ – ألفاظ المدن

أما ألفاظ المدن وهي ألفاظ المدن الفلسطينية من ناحية والمدن العربية من ناحية أخرى فان كلمة القدس تظهر أكثر من غيرها باعتبارها أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ثم تأتي مدينة يافا بمنزلة خاصة في قلب الشاعر . وبالنسبة للمدن العربية فقد تغنى يوسف الخطيب بها لإعطائها دلالة إيجابية وإبراز دورها من خلال تكرارها في معجمه الشعري .

ومن الملاحظ أن بغداد احتلت المرتبة الأولى في هذا المعجم الشعري بعد مدينة القدس ويافا ، وما تسميه ديوان " بالشام أهلي والهوى بغداد " بهذا الاسم إلا دليل على تعلقه ببغداد وقد تغنى بها في أحد دواوينه قائلا :

عشقت بغداد ، لا أخفي بها دنفي إذا تكتم بوح القلب أغيار[١]

وكذلك قوله في ديوانه " بالشام أهلي والهوى بغداد " :

---

[١] رأيت الله في غزة ، ص١٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحب بغداد حبيها فم علن إذا تكتمه العشاق واستتروا[٢]

وتأتي مكة المكرمة في المرتبة الثانية ضمن المدن العربية فهي قبلة المسلمين كما تناثرت مدن عديدة مثل : الاسكندرون ووهران والجولان والأوراس لكنها ليست بتلك الكثرة.

والواقع أن المدن والبلاد التي استخدمها الشاعر كثيرة ولكن ألفاظ المدن الفلسطينية هي السمة الطاغية في هذه الألفاظ مما يوحي بتعلقه بها وهذه السمة تبدو واضحة لدى شعر معظم شعراء المنفى.

والملاحظ أن ألفاظ المدن والأماكن كانت طاغية على ألفاظ المقاومة ، مما يعكس حياته المتنقلة في المنفى ، بعيدا عن البنادق والحجارة ، وبخلاف شعراء الوطن المحتل فقد ظل الشاعر متعلقا بالمدن العربية التي تنقل بينها كثيرا .

د- سمات اللغة في شعر يوسف الخطيب

من يقرأ يوسف الخطيب شعرا يطالعه إنسانا يحفل بالألفاظ العربية الفصيحة – وإن كانت بعض ألفاظه تحمل طاقات إيحائية معبرة في بعض اشعاره .

وهو حين يتحدث عن دورا لكلمة الشعرية في مقدمة ديوانه يصفها قائلا :

(إنها الصوت الساحر المتصل بجماع الأعصاب ، إنها ذلك الموصل الجيد الذي باستطاعته أن ينقل تيار الشعور من عصب الشاعر إلى أعصاب الناس دونما انقطاع أو تشويه) [١].

وضمن هذا السياق يرى د . مصطفى السحرتي أن (عصبية الشاعر وعمق عواطفه تسريان في اسلوبه المتحرك الوثاب) [٢]. وعبارة د. السحرتي تنطبق على الشاعر يوسف الخطيب حيث نلمح أسلوبا قويا وألفاظا جزلة تنبئ عن حيوية صاحبها وانفعاله الشديد من جهة ، وميله إلى الواقعية في معظم أشعاره من جهة أخرى . فمن يتأمل ألفاظه يجدها تخلو من الألفاظ الغريبة حيث مال الشاعر إلى استخدام الألفاظ العربية البسيطة، ومع أنه استخدم ألفاظا عربية أصيلة إلا أن تلك الألفاظ لا توحي بأن صاحبها كان يريد بها عرض قدراته اللغوية بل كان يكتفي منها بما يناسب أفكاره ويؤدي معانيه بسهولة قد طبعت أسلوبه.

---

[٢] بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص ١١٣.

[١] مقدمة " العيون الظماء للنور ، ص٨.

[٢] د.مصطفى السحرتي ، مصدر سابق ، ص (٦٨).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي المجال نفسه يرى د. محمد النويهي أن (الشعر يجب ان لا يبتعد ابتعادا كبيرا عن اللغة العادية اليومية التي نستعملها ونراها....سواء كان شعرا مقفى أم غير مقفى وسواء التزم شكلا محددا أم تحرر من الشكل فانه لا يستطيع أن يستغني عن صلته باللغة المتغيرة التي كان يستعملها الناس العاديون في اتصالاتهم بعضهم ببعض)[١].

ومع ذلك فقد تسربت إلى شعر يوسف الخطيب بعض الألفاظ العامية تتمثل في موال يكاد يكون هو الوحيد من نوعه حيث يقول :

محبوب قلبي لو شدا في مرجنا حسون
لو زار نجم كوخنا لو نسمة ليمون
أوف..
مرت على شباكنا لو نور الحنون
قالوا أتى مرسال ليلى ، يا هنا المجنون
محبوب قلبي لو تغنى في الدوالي ناي
بلغ نسيم الغرب ، أحبابي.. هواكم زاد
غير الأسى والدمع ما خلفتمولي زاد
أوف..
مهما الليالي باعدتنا ، واللقاء ما جاد
خلوا ظلال الكرمل الزاهي لنا ميعاد
ألقى بدرب السرو ، بعد الجوى ليلاي[٢]

كما أنه مال إلى استخدام الألفاظ التركية في بعض قصائده ويتمثل ذلك في المقطع ما قبل الأخير من قصيدة " مطالع جزائرية " حيث يقول :

نسيت أن أقول حاجة فقط
ترطن في فمي تضيع في اللغط..
اسكندرون في الدجى تستعجل النهارا
زلفك كيجه سندن باشومه كون طوغه يارا،
فلتحبلي بشمس الحب يا ليلة الأحزان..
تحقيق إيسه كرنكتهء الليلة حبلي..[٣]

---

[١] د. محمد النويهي ، قضية الشعر الجديد، ١٩٧١،ص٩١.

[٢] موال الراعي الصغير ، ديوان عائدون ، ص ٦٣.

[٣] مطالع جزائية ، واحة الجحيم ، ص ١٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وباعتقادي أن الشاعر لم يقصد بالمقطع السابق استعراض قدرته اللغوية وإنما جاء ذلك تعبيرا منه عن يأسه من استرداد لواء الاسكندرون فلجأ إلى الرطن بالتركية وكأن الإنسان العربي في هذا اللواء غريب الوجه واليد واللسان . وعلى العموم فلا نكاد نعثر على ألفاظ أعجمية أخرى في اشعاره عدا القصيدة السابقة ، وحتى الموال السابق الذي غناه كان هو الموال الوحيد في دواوينه الخمسة مما يعني تفضيله للفظ الفصيح على اللفظ العامي باعتباره لغة الأمة العربية التي يعتز بها الشاعر اعتزازا كبيرا سيما وهو الشاعر العربي القومي الذي يشيد كل حرف في شعره بوحدة الأمة تاريخا ولغة وشعبا.

ونلاحظ احتفاءه بالتراكيب والألفاظ الموروثة القديمة وإن طعمها بروح العصر . في بعض الأحيان ، إلا أنها تبقى سمة بارزة في شعره ولن نوردها في هذا الكتاب منعا من الوقوع في التكرار . لكننا نستطيع القول إن اللغة المعاصرة قد تداخلت في لغة التراث عنده وأنه ظل قريبا من تراثه مع انشغاله بصراعات المذاهب الأدبية وتأثير المعطيات السياسية المعاصرة . كما ظلت اللغة التراثية أكثر التصاقا بالقصائد ذات الشطرين وإن كان يمنحها اشعاعا من الإبداع في بعض أشعاره .

ثمة وجه آخر يطالع الدارس للغة الشاعر ويتعلق بالغنائية ،وغنائيته مرتبطة بالحزن والتأمل ولكنها في بعض الأحيان كانت لا تسترسل دائما فهو شغوف بالأصوات الشعرية المتعددة ومن هنا يتضح استعماله لأسلوب المسرح في شعره ومن أمثلة ذلك استعماله للأسلوب القصصي الممزوج بأسلوب الحوار من خلال قصيدة "دمشق والزمن الرديء" التي يتضح فيها إبداعه بشكل واضح . فهو يقول في أحد المقاطع الحوارية:

ورأيت إسكافي رومة يوسق التيجان
فوق المد ، للشرق العجيب..
شرق (النبوه – والحريم)،
مدى (الزلزال – والركود)،
دم (التجمد – واللهيب)،

- ما تلك ؟..
- أحذية..
- لمن ؟ ..
- لجباه أقيال

وراء البحر، زاهية الندوب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أعرف من أنا ؟
- لا
- أنا العربي من جبل الخليل .

ضللت وافترقت دروبي
أنا من حملت على جهات الأرض فاجعة
التراب الخصب ، والزمن الجديب[١]

ويختفي الحوار ليحل محله السرد متمثلا بعبارة (أيلول عاد) والتي كانت تتكرر في بداية كل مقطع ، إذ بعد الحوار السابق يعود مجددا للسرد فيقول :-

أيلول عاد
كأن أيارا على اللطرون
يحقن جرحنا اللهبي في الرمان ، يشتل
في الصخور شقائق النعمان ، يحرثنا،
تهب على جناحيه الأبابيل الهجينة
من مغيب الشمس...يجرفنا بلا وجه ....[٢]

في المقطع السابق نلاحظ تركيز الشاعر على الحدث من خلال اهتمامه بالجمـــل الفعلية المتلاحقة التي تعتمد صيغة المضارعة مثل : يحقن ، يشتل ، يحرثنا ، تهب ، يجرفنا.حيث جاءت تلك الأفعال متلاحقة لا يفصل بينها أي حروف للعطف .

ولا نزال في القصيدة السابقة حيث تطل علينا لغة الحوار في المقطع ماقبل الأخير مرة أخرى ،وقد كان الشاعر يكتفي بوضع علامة (-) للدلالة على الحوار دون وضع مقدمات تمهيدية:

وأنا الذي وطني ارتحال الشمس ملء الأرض،
لكني بلا وطن
من ذا يصدقني ؟..
أبليت نعلي في الرمال وفي الجرود ،
أدق أبوابا وتدفعني
- من أنت ؟ ..
- من عرب الخليل ..
- وعم تبحث ؟..

---

[١] واحة الجحيم ، ص ٦٩-٧٠.

[٢] المصدر السابق ، ص ٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- عن ثرى حر ، وعن سكن
- هلا أقمت بنا ؟
- أقمت هنا..
- فما يشقيك ؟!..
- هم ليس يبرحني
- ما ذاك؟!..
- جرم الروح في اللطرون
- لم أفهم عذابك!..
- وكيف تفهمني ،
- وأنا الذي وطني ارتحال الشمس ملء الأرض لكني بلا وطن !!..[١]

ولعل أبرز ما يميز الحوار في القصيدة السابقة أنه كان يأتي على شكل لقطات سريعة أي أنه لا ينمو ليشمل القصيدة كلها أو جزءا كبيرا فهو يضيء جانبا صغيرا منها، وهو في القصيدة السابقة كان يزاوج بين السرد والحوار يناوب أحدهما الآخر محاولا خلق أداء لغوي متأثر بالحدث الدرامي .

وعلى العموم فان القصيدة السابقة ، مفعمة بالرموز المكثفة ، وإن كان مضمونها يحمل روح النقمة على الوضع العربي الحالي . ونلاحظ أنه كان يضع بعض المقاطع من شعره داخل إطارات مستطيلة مغلقة كقوله بين أحد المقاطع من القصيدة السابقة ذاتها :

ويكون في أيلول
دجال ....
مسيلمة .....
فيرضع يدي خفاش
من الصحراء ....
ثم يكون طاعون،
ويولد في المواخير
القصيد،
وتحزق التيجان
من جلد..
ويمضغها الملوك..[٢]

[١] واحة الجحيم ، ص ٧٢.

[٢] قصيدة " دمشق والزمن الرديء " ، ديوان واحة الجحيم ، ص ٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله في قصيدة أخرى :

ما حاجة الشرق إلى جند وأبطال
حاجته الأسمى إلى فطنة زبال[١]

وليس ذلك كله إلا للإيحاء بأن للنص أكثر من مستوى للقراءة بحيث لا يتعامل معه القارئ بسرعة . والهدف من ذلك أيضا إضاءة أعماق الشاعر وذاكرته وأسئلته .

وفي القصائد التي عادة توظف عنصر الدراما نلمس شيئا من الصراع بين صوت الشاعر والأصوات الأخرى لأن (القصيدة الدرامية هي في الأصل قصيدة مواقف متضادة ومتصارعة) [٢].

ونلمح هذا التصارع في قصيدة بعنوان (بالشام أهلي والهوى بغداد) حيث يبرز الصراع في أحد المقاطع :

أحس أنني أذوب فرحاً
حتى البكاء ..يا ربى بلادي..
تخونني عيناني في لقائكم
أحبكم ...أحبكم...
يصير في شفافة فؤادي..

فما لكم من عجب تحدقون ؟..
أردت أن أقول إنني أحبكم ...فعوني..
لا تنظروا إلي هكذا
لا تدعوا الأطفال يرجمونني ...[٣]

ثم تتحول اللهجة الهادئة المفعمة بالحب إلى اللهجة القاسية المليئة بالكراهية وهي ردة فعل الشاعر على الطبيعة تجاه قومه :

أحبكم
أردت أن أقول إنني ...
لا تدعوا الأطفال يرجموني ..
أحبكم ....

---

[١] مطالع جزائرية ، واحة الجحيم ، ص ١١٧.

[٢] دير الملاك ، محسن اطميش ، ص ٢١١.

[٣] بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص ٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أردت أن أولي بالشهادة ...اسمعوني..
لا تأخذوني ساحة المدينة ...أسمعوني..
أكرهكم لا تطلقوا ...جنوني
أكرهكم أكرهكم ...ولا أحب أحداً
حتى أصب دجلة...على شفاه بردى!!..

فما لكم تزدردون في البلاط ألمي
عيونكم تنوس في أبخرة الأفيون
أم تطفئون جذوتي ...إذا كرستم قلمي
أم ترجمون في ظل شاعر مجنون !!....[١]

وهو في القصيدة السابقة كان ينقلنا من مشهد إلى مشهد ، فها هو يصعد قمة وينزل وادياً عابراً نبع دجلة ليصعد مرة أخرى قمة الزاب ...:

كل الذرى أضعتها....
أضعت قمة الخليل ....والجليل ....والجولان .....
ولم أزل أعدو وراء الشمس
يا أوراس ....يا أوراس ....كن رجع الصدى
وا أسفا ....قد نسيت قصائدي وهران
ركبت ظهر الجبل الأخضر
خلت أن قصعة يترعها دمي
لحقت نبع دجلة
صعدتُ أعلى الزاب
شَرقّتُ...غَربّتُ
اعتصمتُ أعلى أرزةٍ على ذرى لبنان
وها أنا ....من متن صنّينْ
أصيحُ مدَّ الصوت :
يا كمالُ ، يا كمالُ ...يا غسانُ، يا غسانُ....[٢]

وقد تطور شكل القصيدة من دفقة شعورية صغيرة إلى بناء ينمو على هيئة لوحات أو مقاطع يضيف الواحد منها للآخر ، لكنه في النهاية عاد إلى نفس البداية بعد رحلته

---

[١] بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص ٨١.
[٢] المصدر السابق ، ص ٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشاقة ليرتد مرة أخرى إلى مقر الجحيم ذاته خائب الأمل ، منهك القــوى ، خـــاوي الوفاض ...:

يقول لي السراب ....والعذاب
قد وصلت...قد وصلت ....قد وصلت
وهذه قباب مكة الرؤى
تغسلت إليك في أشعة النجوم ...حيث أنت ...
فما لسحب الدخان ، من شقوق الأرض
تصاعد في سمائها الشاحبة الحزينة ؟ !.....

من أنت أيتها السيدة العذراء ...في البستان ....
لم يضفرون الشوك إكليلا
ولم تسوقني الشرطة في أزقة المدينة ؟!
كذابة كل طيور البحر يا جزيرتي
كذابة بوصلتي ...كذابة هي السفينة !!.....

بعيدةٌ ، بعد ، مواعيد الهوى
بعيدة ، بعد ،مرافئ الحنين
وإن جسمي لمضنى ....وإن قلبي حزين!! ...[١]

ملحمة فنية رائعة تذكرنا بقصص الملاحم البطولية ، فقد تعددت فيهـــا اللوحـــات والمشاهد بشكل ملموس لتثبت قدرة صاحبها على الإبداع والتنويع في تجربته الشعرية.

لقد استطاع الشاعر يوسف الخطيب في هذا العمل الفني أن يرحك الدم في عروق اللغة الكلاسيكية فأكسبها دما جديدا أو حياة جديدة وإبداعا جديدا ، كما تخلص الشاعر المباشرة والخطابية وحول كل مفردة لمسها إلى صورة تحتمل أكثر من معنى .

وهكذا فقد كانت لغة الشعر أداة من أدوات التشكيل الجمالي تجلت في الأســلوب القصصي كما في " دمشق والزمن الردئ " الذي تطور نحو النفس الدرامي متمثلا في تعدد الشخصيات والأسلوب الحواري ، بالإضافة إلى استخدامه للغة الملاحم بكل بنائها وعنفوانها وأبهة ألفاظها كما في قصيدته " بالشام أهلي والهوى بغداد " .

---

[١] بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص ٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما عبرت الألفاظ والجمل الشعرية عن أسلوبه وتجربته الشعرية وطبعت أشعاره بسمات مثل الغنائية والأسلوب المتميز في رسم الصورة الشعرية.

ومن الطبيعي أن تكون الألفاظ المكونة للجملة الشعرية في القصيدة المعاصرة تختلف عن الألفاظ المكونة للجملة الشعرية في القصيدة التقليدية، ومع أنه طور من أدواته إلا أنه كان ظل يميل إلى استخدام الألفاظ العربية الفصيحة ويفضلها على العامية والأعجمية مما يعزز القول بميله إلى تطوير اللغة ونبذ العامي والأعجمي منها،وهذا – باعتقادنا – نهج طبيعي ينهجه كل شاعر قومي يعتز بعروبته ولغته وقوميته مثل الشاعر يوسف الخطيب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- الموقف من التـــــراث

أولا – التراث المسيحي

ثانيا – التراث الإسلامي

١- القرآن الكريم

٢- القصص والأحداث التاريخية

ثالثا – الشعر العربي القديم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يشكل التراث هوية الأمة وشخصيتها القومية والإنسانية ويجسد عمق حضـــارتها وثقافتها وتجربتها ووجودها التاريخي ، وهو حصيلة الماضي المستمر في حاضـــرها المؤثر في رسم ملامح مستقبلها . ومن هنا نجد الإنسان بطبعه تراثي النزعـــة ويعـــد التراث أرضا صلبة يقف عليها الشاعر وينطلق منها في بناء تجربته الشعرية الجديدة، فهو من جانب يمثل البنيان المتكامل للوعي الاجتماعي والوجود الاجتماعي أيضا، وهو المخزون النفسي والوجداني والفكري للجمهور .

(والانقطاع عن التراث هو هدم لكيان الشخصية العربية حيث مـــن المســـتحيل للشاعر المبدع أن ينفصل عن التراث لأن الإبداع انبثاق من الماضي وخروج عنـــه باستمرار)[١] .

ومن جانب آخر يعد التراث بكل مصادره المتنوعة منبعا خصبا وغنيا بالمعطيات الموضوعية والفنية من قيم ومفاهيم وأفكار ومواقف ، ومن صور واصوات ورمـــوز وجماليات تعبيرية . لذلك عني الشاعر الحديث باستحضار التراث في أعماله الشعرية لتأكيد النوازع النفسية والوجدانية والمواقف الفكرية والثوابـــت القوميـــة والحضـــارية والوجود الاجتماعي والتاريخي إضافة إلى الجوانب الفنية التي يحفل بها .

ولما كان الرافد التراثي الذي يصب من الشعر العربي المعاصر (هو المجـــرى الحقيقي الذي يخرق الماضي بصمت وعمق وهو الخيط الإنساني المضيء الذي يربط أصالة الماضي بواقع الحال ويستشرق المستقبل) [٢]قد أخذنا نفتش عن خيوط تراثيـــة نسجها يوسف الخطيب في بعض أشعاره ، حيث نلمس تعلقه بالتراث بشكل واضـــح ، ولما كانت الروافد الإبداعية الأصيلة في التراث تلون الشعر العربي المعاصر بأضواء مختلفة فاننا نستطيع تلمس تلك الأضواء في شعر يوسف الخطيب مـــن خـــلال عـــدة مستويات منها الألفاظ ومنها التراكيب ، ثم استحياء الجو اللغوي الشامل لنمط موروث من الأداء ، وأخيرا ما يحدث في حالة التضمين والاقتباس .

وتيسيرا على الدارس فقد ارتأينا تقسيم ذلك الفصل إلى عدة أقسام هي :[١]

---

[١] د. عبد الحميد جيدة ، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر ،ص ٦١.

[٢] المصدر السابق ، ص ٦٥.

[١] المصدر السابق ، ص ٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ – التراث المسيحي ويشمل : ١– استحضار الصليب ٢– استحضار بعض الآيات الانجيلية

ب – التراث الإسلامي ويشمل : ١– القرآن الكريم ٢– القصص الدينية والتاريخية .

ج – التراث الأدبي .

د – الشعر العربي القديم .

أولا: التراث المسيحي

لا شك أن التراث المسيحي بما يتضمنه من معاني التضحية والبعث والمعجزة والصلب والفداء غني بالإيحاءات والرموز الشعرية المتناغمة مع عذاب الفلسطيني وهمومه وتضحياته ، فهناك درجة عالية من التطابق الموضوعي بين المسيح والفدائي المقاتل ، فكلاهما يصل إلى ذروة العطاء بالاستشهاد من أجل القضية والخلاص للآخرين .

وإذا كان الشاعر الفلسطيني يغني تجربته الشعرية فيعمد للغرف من معين الرسالة المسيحية (لكونه توحد مع صاحب الرسالة في موقف اليهود منه بإعلانهم حربا ضروسا عليه أيضا وكان لا يخامره شك في أن هؤلاء اليهود حاربوا التاريخ مرتين ، مرة في شخص السيد المسيح الذي جاء ثورة على فسادهم، ومرة أخرى حين وجد اليهود الصهاينة في الشعب الفلسطيني مسيحا آخر يرفض عروضهم في المنزلة تماما كما يرفض الانسلاخ عن ترابه الذي طمعوا فيه)[٢] .

من هنا فان للتراث المسيحي حضورا فعليا في وجدان الجماهير الفلسطينية ، فالعذاب الذي يتحمله المواطن العربي الفلسطيني هو نوع من عذاب الصليب الذي يوظفه الشاعر الفلسطيني في شعره معبرا به عن تجربة الآلام والمعاناة التي تعرض لها شعبه .

ولقد أشار الشاعر يوسف الخطيب إلى المعاناة والآلام التي يعانيها اللاجئون رامزا إليهم بما تحمله السيد المسيح من عذاب الصلب والصليب :

قد رفعنا الصليب في ساحة الموت وهذا على يدينا المصير[١]

وفي قوله :

---

[٢] اسماعيل محمد اصليح، أحمد دحبور وتجربته الشعرية، رسالة ماجستير مخطوطة جامعة الجزائي ، ١٩٩٥ ، ص ١٦٩.

[١] العيون الظماء للنور ، ص ١٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإن لي في تراب القدس معجزة تأتي ، وألف مسيح بعد أحييه[٢]

وقد استحضر يوسف الخطيب الصليب وأسقطه على المعاناة موحدا بين الإنسان والمسيح عذابا ، وبين الأرض والصليب احتلالا ، وهو يرى المعاناة محفزا لا يستأصل روح التفاؤل ولا يحطم روح المقاومة فنراه إرهاصا للثورة وطريقا لتحرير الوطن :

(قل عني الطفل الذي يوسم من حليبه
أو سمني قتيل الحب
بي جسد المسيح موثقا على صليبه
في عالم بدون قلب)[٣]

وقوله :

(نحن يا ابن البتول إن تسأل الرفش توارى على يدينا الإخـــاء
قد دفناه عند لحدك في القـــدس وناحت جوازه العـــذراء
والصليب الذي فديت به النـــاس تأمل ، تنز منه الدمـــاء
كل يوم لنا مسيح على الطـــور وصلب مضرج وفـــداء[٤]

وتتوالى صورة الصليب والمصلوب عنده بحيث يؤكد أن الإنسان يصل إلى قمة العطاء من أجل الآخرين متحملا أقسى أنواع العذاب لأجلهم :

(ولم أزل أساق من مرحلة لمرحلة
أجر ثقل الصليب
وأستحيل جمرة فثورة ، فجلجلة
خلاص موطني الحبيب)[٥]

إضافة إلى ذلك ، فانه يرى في الإنسان المصلوب حين يرتفع على خشب الصليب منارة ، وقلبه هداية لشعب أراد حريته واستقلاله :

-وقوله: (ليت آلامك يا شعبي مسامير **الصليب** وأنا أغدو على ناصية الطور **مسيحك**)[١]

---

[٢] واحة الجحيم ،ص ١٠٤.

[٣] بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص ٨٦.

[٤] عائدون ، ص ٥٦.

[٥] بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص ٨٦.

[١] رأيت الله في غزة ، ص ٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي رثائه لثلاثة من الشهداء ، استحضر روح الأب والابن وروح القــدس فــي قصيدته (سريناد القمر الأسمر) :

(الليلة ينبع من دمهم نهر الأردن
ثلاثة أودية من عسل قان
لثلاثة أزمان
فيصيرون وضوء الأرض ، وضوء الشمس
يصيرون الأب والابن وروح القدس
ثلاثة أثلاث في جمع أحد)[٢]

ويستحضر شخصية يوحنا في قصيدته " بالشام أهلي والهوى بغداد" قائلا :

(كأن سطح الأرض في رعشة زلزال
كأن يوحنا هنا مر إلى بشارة المجيء
ها هنا استقر رأسه قادوس عسل
وها هنا استحم جسمه في لبن الضواري)[٣]

وبالإضافة إلى استلهام العناصر والرموز التراثية المسيحية فقد عمد إلى تضــمين بعض الآيات الإنجيلية بصورة كلية أو جزئية في شعره أو إجراء بعض التحوير عليها كقوله مناجيا ربه :

- "فما تريد ؟ ... ...
- "ما أريد يا مولاي :
"أن أشيع في علاك بددا
"أريد جبريلا...وتنزيلا...
"وخيلا لا ترى....ومددا...
"أريد أن أصوغ أقنومين
"في هواك أحدا...
"أريد يا مولاي ، بعد...
"أن أصب دجلة...في بردى)..[١]

---

[٢] المصدر السابق ، ص ٤٣.

[٣] بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله في قصيدة أخرى مقتبسا صيغة الإنشاء حيث يخاطب الشاعر غزة قائلا :

وأن عناق أخيلتي
وأنت قلادة العنق
وثغرك حبتا كرز
وعطرك غابتا حبق
وصدرك جرتا عسل
وشعرك نخلتا عذق[٢]

وفي هذا اقتباس من نشيد الإنشاد:

(جميلة أنت يا حبيبتي وعيناك كحمامتين من وراء نقابك وشعرك كقطيع معز يبدو من جبل جلعاد. أسنانك كقطيع مجزور شفتاك كسمط من القرمز خداك كفلقة رمانة عنقك كبرج داود المبني ...)[٣].

نخلص مما سبق أن المصطلحات المسيحية كانت تظهر في شعره على شكل إشارات تظهر هنا وهناك ، إذ لم ترتق إلى درجة الرموز .

ثانيا: التراث الإسلامي

أ – القرآن الكريم :

ظل القرآن الكريم بمعانيه السامية مصدر إلهام روحي . فقد كان الشاعر يحرص دائما على توظيف المعاني القرآنية بما يلائمها من الموضوعات التي يعالجها ، فالآية القرآنية الكريمة "الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ...زيتونة لا شرقية ولا غربية ..." الآية (٣٥) من سورة النور .

كانت هذه الآية مصدر إيحاء للشاعر يوسف الخطيب حيث ضمنها في أبياته الشعرية:

فأذن بزيتونة قدسية المثل تضيء مشكاتها في جفني السمل[١]

وفي رباعياته الكاملة يستخدم الشاعر التضمين في قوله:

---

[١] بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص ٢٦.

[٢] رأيت الله في غزة ، ص ٢٤ ،وهذا المقطع مستمد من "نشيد الإنشاء".

[٣] الكتاب المقدس ، نشيد الإنشاد ، الفصل الخامس ، ص ٢٣١.

[١] رأيت الله في غزة ، ص ٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان شيخ يزرع الزيتون في عدوة وادي
قلت يا عم سيستأني طويلا منبته
قال ،هذي غرسة الحكمة في روح بلادي
هي لا شرقية الزيت ، ولا غربيته!! [٢]

وقوله في إحدى القصائد مناجيا الرسول الكريم عليه السلام :

أبا العروبة ، إني خارج لغـــــد من غيم أمسك، وافي الغيث منهمل
آنست نارك في الظلماء آن خبت عل مدار الدجى كذابة الشعـــــل[٣]

وذلك إشارة إلى الآية الكريمة : "**إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخير أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون**" الآية رقم (٧) سورة النمل . وفـــي قوله :

هنا أمة فرعها في السماء ومن كبد الأرض منها قدم[٤]

إشارة إلى الآية الكريمة : "**ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبـــة أصلها ثابت وفرعها في السماء** " ، الآية (٢٤) ســـورة إبـــراهيم .وبالإضـــافة إلـــى التضمين فقد لجأ إلى أسلوب الاقتباس النصي من الآيات القرانية الكريمة كقوله فـــي إحدى قصائده :

(قل لا أقول لكم عندي خزائن) بل يوحى إلي جها الصبر والعمل [٥]

وفي هذا اقتباس نصي من الآية الكريمة " قل لا أقول لكم عندي خـــزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي .." . الآية رقم (٥٠) من سورة الأنعام .

وفي القصيدة نفسها يقول الشاعر :

من أعطوا الوحش سلطانا ومقدرة فانظر قرونهمو في ربقة الحمل
لو أنهم فعلوا ما يوعظون بـــــه **لكان خيرا لهم** من موبق الدجل[١]

---

[٢] رأيت الله في غزة ، أربعون رباعية ، ص ٢٧.
[٣] نفس المصدر ، ص ٥٥.
[٤] رأيت الله في غزة ، ص ٧٤.
[٥] رأيت الله في غزة ، ص ٥٣.
[١] رأيت الله في غزة ، ص ٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا اقتباس نصي من الآية الكريمة : (**ولـــو أنـــا كتبنـــا علـــيهم أن اقتلـــوا أنفسكم....ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خير لهم وأشد تثبيتا**) الآية رقم (٦٦) من سورة النساء .

وقوله في رثائه لشهداء مذبحة مدرسة بحر البقر التي حدثت في مصر :

آه يا حزن ثلاثين قمر

يا ثلاثين نزيفا ،وثلاثين حمامة

ضفري من دمك الشوك أضاميم زهر

وازرعي الدلتا براكين ...وأبواق قدر

تخرج الحي من الميت

والميت من الحي

وتبقى ....حيث لا تبقي

وتذرو ....وتذر !![٢]

وهذا اقتباس نصي من الآية الكريمة (**تولج الليل من النهار وتولج النهار مـــن الليل ،وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وتـــرزق مـــن تشـــاء بغيـــر حساب)** الآية (٢٧) سورة آل عمران .

وقوله :

سيأتي زمان يفسر للناس رؤياي

ظلا وحمرا

وسبعين نهر على ربعك الخالي

وتطلع من راحتي مروج السنابل

تفسير سبع عجاف ...وسبع عجاف ...[٣]

وهو هنا يشير إلى الآية القرآنية الكريمة التي تقول (**وقال الملك إني أرى ســـبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ....**) الآية رقم (٤٣) من سورة سيدنا يوسف .

ولكنه قام بإجراء تحوير عليها حيث أن الآية الكريمة رقم (٤٩) بـــنفس الســـورة تنص على أن سبع السنين الأولى العجاف يأتي بعدهن سبع سنين سمان فيهـــا النـــاس ولكن سنين الشاعر كلها عجاف وهذا يعكس نظرته التشاؤمية للواقع والحياة.

---

[٢] بالشام أهلي ، المدينة الضائعة المفتاح ، ص ٤٧.

[٣] بالشام أهلي ، ص ١٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي قوله في قصيدة " دمشق والزمن الرديء "

فانطلقي هنيئا ياذئاب القفر ....تلك مدينة الموتى

"**ادخلوها آمنين** "

وهذا اقتباس نصي من الآية القرآنية الكريمة (**ادخلوها بسلام آمنين**) الآية رقم (٤٦) من سورة الحجر.

ولم يقتصر شاعرنا في حواره على المضمون الديني فقط بل تعداه إلى الأسلوب القرآني في أشعاره كقوله :

راية البعث في يدي وخوفي

أن بالقدس لات يوم تلاق

بين حيين في السقيفة أبكي

حي سورية ...وحي العراق[١]

فان استخدامه "أن بالقدس لات يوم تلاق" هو اقتباس لأسلوب القرآن الكريم في بعض الآيات الكريمة في مثل قوله تعالى (ولات حين مناص).

وقوله في قصيدة " بالشام أهلي والهوى بغداد":

وقم فأنذر بأصنام مبجلة غدا تدحرج في الأقدام كاللعب[٢]

وهذا توظيف للأسلوب القرآني المستخدم في الآية الكريمة " **يا أيها المدثر قم فأنذر**" (من سورة المدثر).

وقوله في قصيدة أخرى:

فاصدع بوحيك ملء الأرض جلجلة لعل يسمع من في أذنه وقر[٣]

حيث استخدم التضمين في اسلوب الأمر (اصدع بما تؤمر) وهو أسلوب مستخدم في الآية رقم (٩٤) من سورة الحجر .

نستنتج مما سبق أن القرآن الكريم كان مصدر وحي وإلهام للشاعر يوسف الخطيب سواء عن طريق استخدامه التضمين أو الاقتباس أو توظيفه لأسلوب القرآن الكريم .

---

[١] رأيت الله في غزة ،ص ٩٠.

[٢] بالشام أهلي ، ص ٥٥.

[٣] بالشام أهلي ، ص ١١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب – القصص والأحداث التاريخية

إلى جانب التراث المسيحي والقرآن الكريم فقد تعامل الشاعر مع الحكايات والحوادث التاريخية مضمنا شعره قصص التاريخ العربي الإسلامي التي تحولت بدورها إلى حكايات شعبية متداولة والقصة الإسلامية (إما أن يكون ذكرها واردا في القرآن الكريم مثل قصص الأنبياء والرسل والملائكة ويوم القيامة،والشيطان والجنة والنار وقابيل وهابيل ، ويأجوج ومأجوج ونوح وزليخة ، امرأة العزيز ، وسليمان من قصص القرآن التي ذكرت للعبرة والموعظة وإرساء دعائم الإيمان . وإما أن يكون ذكرها واردا في التاريخ الإسلامي وما فيه من سير الأبطال والعلماء والمواقف الإنسانية والوقائع التاريخية وما نسج الخيال الشعبي حولها من قصص كثيرة كأصحاب الفيل وسيرة الإمام علي والخلفاء الراشدين وسير بعض الأولياء والصالحين وغيرهم).[١]

ومن هذه القصص التاريخية التي استلهمها الشاعر في شعره قصة امرأة العزيز التي قدت قميص سيدنا يوسف عليها السلام ، حيث يقول :

(كان حزيران لظى جهنم
يحده أيلول من هنا ....ومن هنا أيار ..
وبيننا الموت ...وسيناء ...
فما أقل زاد عاشق ، وأبعد المزار....
فلن تقد امرأة العزيز أسمالي
ولن يقطع النساء أيديهن
ردوني على وجهي ،إلى مضارب الأنبار)...[٢]

ويستحضر قصية قوم صالح الذين عقروا الناقة وقصة النجاشي الذي لجأ له المسلمون :

ما عقرناها – ويا ليت – ولكنا أمحينا نحن ، من وجه الأديم
وزرعنا جبل الزيتون صلبانا وأدبرنا على التيه العقيم
لا نجاشي لنا في الأرض ، لا أنصار لا مأوى لنا تحت النجوم
فاشردي يا غنم الله بلا وجه على منتجع الشوك ، وهيمي

[١] اسماعيل أحمد إصليح ، أحمد دحبور وتجربته الشعرية ، ص ١٧٥.
[٢] بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص ٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثموديون أشتات...ورب الناقـــــــة الجرباء في قصر الحريـــــم[١]

ومن هذه القصص التاريخية التي استلهمها الشاعر قصة عمر بن الخطـــاب مـــع الأعرابية التي كانت تطبخ الحصى لأطفالها الجياع لتوهمهم أن بالقـــدر طعامـــا فـــي قصيدته "سيأتي الذي بعدي" وذلك لينام وا :-

تحديت أن شعبي يباع وموطنـــــي يباح ، وأن أغلي الحصى قوت أطفالي
وبلغت في غار العذاب رسالتـــــــي تنزل جبريل الخيام فأوحى لـــــــي[٢]

كما هو واضح فقد استحضر الشاعر قصة جبريل عليه السلام ونزوله إلى الغـــار وإيحائه للرسول عليه السلام . ويلجأ إلى الاقتباس النصي للبيت المشهور " إبك مثـــل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه كالرجال " من خلال قصيدته " مطالع جزائريـــة " حيث يقول :

أتذكرت جامع الرمل في يافـــــــا وضيئا وفيئة البرتقـــــال
في جبين المحراب من خيبر وشـــم حكته النعال إثر النعـــــال
أتذكرت !!...فاضطجع فيئة الذكرى تفصد شعرا ، وذل ســـؤال
وابك مثل النساء ملكا مضاعـــــــا لم تحافظ عليه مثل الرجال[٣]

ويستحضر يوسف الخطيب قصة غزو المغول لبلاد العرب والمسلمين ونشـــرهم الذعر والفساد من خلال قصيدته " دمشق والزمن الرديء" التي نحس عند قراءتها أننا نقرأ سجلا مليئا بالأحداث:

أيلول عاد فاهنأ يا مليك الشام
قيصر يجتبيك على تخوم الشرق بوابا
أميرا في بني غسان يملأ راحتيك دمى
مدينة التجار يفتحها المغول
دعاء تيمورلنك ينتخب الجماجم ، ساحبا
ردفيه في الزرد الثقيل على طلول
أمية...رباه مات الزرع-

---

[١] واحة الجحيم ، ص ١٦.
[٢] المصدر السابق ، ١٢٦.
[٣] المصدر السابق ، ص ١٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طلع الغوطتين
على مهب الريح رجع خياشم الطاعون ،
من ذاك الشقي على الهجيرة؟
أم أبوذر!!...
ويفتون الخليفة في الحجاز شوارد الفتوى
وذاك أبو يزيد في دمشق يحد شعرته
الوضيعة للطغام ...يعود يسحبها...
ويشرد في الصحارى الأنبياء ، وللثعالب
من دمشق الحضن ..فاحتقني دهاة
الأرض ...نحن على الهجيرة خلف ...ضالتنا نظل ...[١]

وبالإضافة إلى القصص التاريخية هناك الأحداث والمواقف المشرقة التي استلهمها الشاعر لإثارة الحمية واعادة المجد لهذه الأمة ، وعادة ما يستخدم المعارك المضيئة بالنصر في تاريخنا العربي استخداما يلون أغراضه بألوان الماضي استثارة للحمية ودعوة للاحتذاء والتشبه:

- عقبة يعدو وراء الشمس !!
- من هذا ؟
أمن أيامنا الغر العظيمة ؟...
- غير أنا لم نخض "ذي قار " !...
لم نرجع إلى التاريخ في ثوب الغنيمة!!..
لم نزل نأتي أنو شروان بالجزية
من ضرع مواشينا السقيمة
نعبد الأصنام في مكة أو نلثم
كعب اللات في يوم الوليمة
طارق لم يحرق البحر،
ولم يأتي أبو بكر ،
ولم ترضع حليمة ....

أفق خفيف الظل يا شعبنا ذاك الذي تلمحه "عقبـــة"
لوى عن البحرجناح السنا وشق في عتمتنا دربـــه[١]

---

[١] واحة الجحيم ، ص ٦٢.

[١] واحة الجحيم ، مطالع جزائرية ، ص ١٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد استحضر يوسف الخطيب شخصية تاريخية عظيمة في المقطع السابق وهي شخصية "عقبة بن نافع " – فاتح المغرب العظيم – لكنه هنا لا يستحضره إلا ليشعر أمته بتخاذلها وتكاسلها وضعفها . فهو يصف شعبه بخفة الظل استخفافا . وحين يعدو "عقبة "لا يكاد يميزه أحد ،فشعبه نائم في سبات عميق ، مما يدفع الشاعر لايقاظ شعبه مرة أخرى ليعرفه به (عقبة) – أفق خفيف الظل يا شعبنا .

وفي استحضاره لشخصيات تاريخية عظيمة في القصيدة السابقة مثل : طارق ابن زياد وأبو بكر الصديق والسيدة حليمة السعدية مرضعة الرسول عليه السلام نفى الشاعر كل الحقائق التاريخية العظيمة المرتبطة بها تعبيرا عن سخطه وغضبه على هذه الأمة ، فطارق لم يحرق البحر وأبو بكر لم يأتي وحليمة السعدية لم ترضع الرسول عليه الصلاة والسلام ولم نخض معركة ذي قار الشهيرة .

ويمتزج التاريخ بالدين والأدب وبكل أشكال التراث عند يوسف الخطيب في قصيدته (بالشام أهلي والهوى بغداد) الذي يؤكد فيها عمق انتمائه وفخره بأمته العربية فيكشف الرموز التراثية متخذا الأرض العربية محور عمله الأدبي ومتمثلا الموروث الحضاري العربي ومستغربا فيه وبرموزه ليمنح هذا العمل ثقة وعمقا واقناعا من خلال عملية التوازن بينه وبين المعطيات التراثية، ويجسد به أبعاد تجربته الشعرية.

ولعل عنوان القصيدة يدل على الركيزة التي تمحور حولها الشاعر – ركيزة في إطار أدبي– وبمضمون تراثي تاريخي ، والإطار الأدبي هو شطر البيت الشعري المشهور لأبي تمام:

" في الشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقتين والفسطاط إخواني "

فانتزاع هذا الشطر والانتفاع به في التشكيل الشعري يجسد بعد الانتماء ويوسع من دائرة معاناته السياسية والاجتماعية...وفي اتكاء الشاعر على المعطيات التراثية في تلك القصيدة يؤكد عمق انتمائه إلى جذور حضارية وإنسانية بتشكيل فني لم يفقد الحركة بين الصورة والرمز مبتعدا قدر الإمكان عن المباشرة والسرد العادي، وتشعر في هذا العمل الفني الذي امتد من خلاله بأبعاد الزمان والمكان والإنسان واللغة كأنك أمام معجم تراثي مليء بالإيحاءات والإشارات:

وا أسفا.....قد نسيت قصائدي وهران

فلن اشيد مكة على طلول إرم

لن يحقن الطوفان مأرب

وما لقاتة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن تشعل البرق على دجى نجران

لحقت نبع دجلة
صعدت أعلى الزاب
عندما تصالبت قبالتي ...جمجمة ...وعظمتان
من أنت أيها الضليل؟
تصرخ السفوح ....والجروح...والوديان
أنا صلاح الدين، ديس في الخليل شرفي
ومن ثرى حطين لحم كتفي
ألا اقشعري ....ارتجفي...صخور كردستان

ضيعت علياء الذرى جميعها
شرقت ...غربت
اعتصمت أعلى أرزة على ذرى لبنان
وها أنا أصيح من متن صنين
أصيح مد الصوت
يا كمال، يا كمال، يا غسان ، يا غسان[١]
لأنني – عفو أبي–
قصصت رؤيا يوسف
على دجى عيونهم ...وآية النهار
فها أنا أصرخ من غيابة الجب
متى يا سفح جلعاد
تفاديك قوافل التجار ...[٢]

لقد تعلق يوسف الخطيب بالتاريخ وجعل بواباته الناصعة ملاذا في عصر الانكسارات والضياع . فكانت خيام مازن ،وباب المعتصم ، وغار حراء ، إشارات إلى توهج حضاري سابق تتحرك قباله " دير ياسين ، وحزيران . كما تحركت رموز من الواقع التاريخي المعاصر دلالات على تأكيد القدرة العربية مثل أوراس ووهران ،

[١] كمال ناصر وغسلن كنفاني ، اغتالتهما القوات الاسرائيلية في لبنان .
[٢] بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص ٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكذلك كان الحسين أبرز رمز لشهادة المناضلين تتبعه إشارات مقابلة إلى شهداء الثورة: "كمال وغسان":

كان ورائي ...دمهم...في دير ياسين
لظى عليقة
تشتعل الشمس على غصونها
وظل خلفي...دمهم ...يصبح بي
أن أسبق الريح إلى خيام مازن
وأن أدق باب المعتصم
كان حزيران بحيرة من اللظى
يحده أيلول من هنا...ومن هنا أيار
وبيننا الموت ...وسيناء
كان فؤادي نغما
قطعة موسيقى على قياثر المدى
كأن سطح الأرض في رعشة زلزال
وفي زوبعة ، يأتي أبو ذر على قصورهم
تلكزهم عصاه في قبورهم
تشرد روحه غزالة الضحى على الصحارى
كأن في النجيع لم تزل تغوص كربلاء
تستضيء حسن وجه الله هامة الحسين
تستحيل شعلة من اللجين
آية ...فراية ...صارخة حمراء[١]

وبهذا أعاد الشاعر تشكيل المعطيات التراثية من نسيج حضاري وموروث فكري ولغوي ومأثورات وإشارات تاريخية بصياغة شعرية جديدة متحولا باللغة ممتدا في أبعاد عمله الأدبي مجسدا رؤاه ، وقد استطاع الشاعر في هذا العمل الأدبي في شحناته المتوهجة بين الماضي والحاضر بصيغة المحاكاة أن يفضح سياسة المضطهدين ولكنه ظل يسكن في إطار التاريخ العربي المنتمي إليه .

والشاعر هنا شاهد على سلسلة التاريخ حتى الحاضر وشاهد على مفاصل هذا التاريخ ووقائع الحاضر، لندرك من خلال هذا العمل الفني أن الشاعر هنا نموذج الذات

[١] بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص ٢٩-٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفلسطينية التي تعاني، ونموذج الذات التي تؤمن في نفس الوقت بحركة السير التاريخية لتبني من إلماعات الماضي والتراث فعل الحاضر ووعيه .

وتتخذ شحنات القصيدة طابع الدوائر المتداخلة ، الماضي يجيء إلى الحاضر ليتساءل عن المستقبل ، إنها نفس العربي المعاصر المليئة بالقلق والحزن والتطلع والرغبة الجامحة في تفجير الأزمة المتخلخلة لرسم شكل الزمن الجديد .

ويستحضر الشاعر " ذي قار " و "عمورية " و "اليرموك" و "تبوك" من خلال قصيدته " هذي الملايين ":

أكاد أومن من شك ومن عجب ... هذي الملايين ليست أمة العرب
هذي الملايين لم يدر الزمان بها ... ولا بذي قار شدت راية الغلب
ولا تزل وحي في مرابعها ... ولا تبوك روت منها غليل بني
ولا السفين اشتعال في المحيط،ولا ... جواد عقبة فيه جامح الخبب
أأمتي يا شموخ الرأس متلعة ... من غل رأسك في الأقدام والركب
أأنت ، أنت ، أم الأرحام قاحلة ... وبدلت عن أبي ذر أبا لهب!!
تهيج بي ذكر التاريخ جامحة ... ويعتريني الأسى حولي فيقعد بي
أغزو "عمورية"، في الليل أحرقها ... وشلو أختي غذاء الطير في النقب
كأنما لم تلد في اليتم آمنة ... ولا حليمة هزت مهد مرتقب
وكم مسيلمة عمت خوارقه ... وعلم الناس دينا شرعه الكذب
تبدلت همم الصحراء وا أسفا ... بياعة النفط عن خيالة الشهب[١]

تمازجت الوقائع التاريخية في القصيدة السابقة لكنها ذكرت بدلالات سلبية . حيث نفى الشاعر عن تلك الأمة الحقائق التاريخية المعروفة . فالوحي لم ينزل في مرابعنا ، والسفن لم تحرق..وحيث يحلم الشاعر بغزو عمورية ليلا فانه يستيقظ على الحقيقة المفجعة. (وشلو أختي غذاء الطير في النقب) .

لقد نفى يوسف الخطيب عن تلك الأمة تاريخها المجيد، فهو ساخط عليها، ناقم إلى أقصى الحدود معتصم بالتاريخ بكل رموزه وإيحاءاته في عصر الانكسارات والهزائم ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عمق انتمائه لجذوره التاريخية وتعلقه بموروثه الحضاري والتاريخي ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لشاعر يعتز بعروبته وقوميته وتاريخه العظيم.

---

[١] هذي الملايين ، ديوان " بالشام أهلي " – ص ٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ – الشعر العربي القديم

وكما تعامل الشاعر مع القصص والأحداث التاريخية فقد تعامل مع الشعر العربي القديم ، لا سيما مع الشائع والمشهور منه والذي تحفظه الجماهير وترددده بحيث يذهب مسار الحكمة والمثل الشعبي . كما لجأ أحيانا إلى تضمين البيت الشعري ضمن سياق قصيدته ليكسبها عمقا وتأثيرا في النفس .

ففي إحدى قصائده وعنوانها " ما شعلة البعث " استخدم يوسف الخطيب التضمين أكثر من مرة قائلا:

بالشام أهلي ، وبغداد الهوى، وأنا بالقدس ، فوق صليب الطور أنتظر
بالشام أهلي ، ولي بالرافدين هوى يظل يكبر إن عذاله كثـــــــروا[١]

في البيتين السابقين إشارة إلى بيت الشاعر أبي تمام المشهور :

بالشام أهلي ، وبغداد الهوى وأنا بالرقتين وبالفسطاط إخواني

وفي قصيدته "بالشام أهلي والهوى بغداد" بضمن الشاعر أحد أبياته البيت الشعري ذاته قائلا :

خليتني ...بالشام أهلي
والهوى بغداد يا سجار ...يا سنجار
وها أنا انتصفت بين الرقتين جسدي...[٢]

ولقد أطلق شطر البيت على أحد دواوينه الشعرية ليظهر لنا حبه وإجلاله لهـــاتين المدينتين العريقتين .

ومن الأمثلة أيضا على تضمينه عبارات لشعراء آخرين في بعض قصائده –قوله :

هذا جناه أبي علي ، وما أرضعت إلا ثمالة الألم[١]

وذلك إشارة إلى بيت أبي العلاء المعري : هذا جناه أبي وما جنيت على أحد.

ومن الأمثلة أيضا على تضمينه عبارات لشعراء آخرين في بعض قصائده قوله :

---

[١] بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص ١١٨ .

[٢] بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص ٢٤.

[١] واحة الجحيم ، ص ١٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مذ ضيعوني على الأحقاف ما علموا

أي الرفاق على الأحقاف قد خسروا [٢]

إشارة إلى بيت العرجي الشهير :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر

-وقوله :

السياط والحمراء تعمل فيـــــه أين ، أين **الحرية الحمراء** ..[٣]

من عروق الأحرار تنزف حمراء بلون **الحرية الحمـــــراء..**[٤]

إشارة إلى بيت أمير الشعراء أحمد شوقي ...**وللحرية الحمــراء بــاب كــل يــد مضرجه يدق**

-وقوله:

لكنني ، وبني شعبي ، تخطفنا **قيل الملوك : ألا لا بد من هرب**[٥]

إشارة إلى بيت عنترة بن شداد مع إجراء بعض التحوير عليه : "**قيــل الفــوارس ويك عنتر أقبل).**

ولم يقتصر الشاعر على التضمين بل تعداه إلى المزاوجة في أسلوبه بــين اللغــة القديمة وأسلوب القدماء وسيرتهم ، وبين اللغة السهلة المتداولة عنده في العديــد مــن قصائده:

هات لي ، هات من قصب الهند أغني لجائعات النيـــــوب

من بنات الجحور يتغذى بالســم نفاذا إلى شغاف القلـــــوب

رب فرخ ، رسمته ملك الطهــر وضمخت نابه الطيـــوب

ثم طلسمت تاجه بيد السحـــــر فما يستبين غير دروبـــي[١]

فالكلمات مثل " قصب الهند" ، جائعات النيوب "، " السحر " ، وغير ذلــك مــن الكلمات الموروثة استخدمها الشاعر في أسلوب جزل قوي ليدل على انغماسه بالتراث بشكل واضح . وفي قصيدة بعنوان : "الطريق إلى محمد" يتوجه إلى الرسول الكــريم عليه السلام بأسلوب نشعر منه أننا نقرأ لشاعر من شعراء صدر الإسلام:

إني لحاسر رأسي غير منتعـــــــل حاد لك التوق، لم أرجع ولم أصـــــل

---

[٢] ديوان بالشام أهلي ، ص ١١٧ .

[٣] العيون الظماء للنور ، ص ٤٠.

[٤] المصدر السابق ، ص ٧٨.

[٥] بالشام أهلي ، ص ٥١.

[١] ديوان " عائدون ، ص ٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مطيتي خيل أحلامي أجامحهـــــــا وصاحباي : زمير الريح ، في الأسل
أبا العروبة، إني خارج لغـــــــد من غيم أمسك ، وافي الغيث ،منهمـل
خلفت جلدة وجهي فوق عوسجـــــة ورايتي في عجاج الرمل ،والرمـــل
وعارض لي بالأحقاف خاتلنـــــــي عن وابل الأفق ، في أفق من الوبـل
مزقت في "اللات صدري استغيث به فما تغيث من "لات" ، ولا"هبـــــل"
آتيك دون جياد لي مطهمـــــــة ند أن تعليت آلامي ، إلى أملـــــي
همي لديك ثمالات معتقـــــــة يرعشن في جنان الغائب الثمـــل
أفض خوابي " حراء " من عرائشها وصب في الليل ضوء الله في المقـل[٢]

فكلمات القصيدة السابقة ، كلمات موروثة قديمة مثل : وافي الغيث ، حاد التوق، "اللات، وهبل . استحضرها الشاعر يوسف الخطيب ببراعة تامة ليضيء لنا جانبا هاما من الشعر العربي القديم. والواقع أن نفسه يعتقد بأن كارثة حزيران حيث كتبت تلك القصيدة في أعقابها لم تكن هزيمة عسكرية فحسب وإنما هي هزيمة معنوية من الدرجة الأولى، إذ (توطنت في أذهان الغالبية الساحقة من المفكرين العرب قناعات انقلابية جديدة مؤداها الإجمالي أن إسرائيل لم تنتصر هكذا إلا بفضل تفوقها الحضاري الكاسح على تخلفنا العربي المريع ..ثم سرعان ما أخذت هذه القناعة النيئة الجاهلة شكل التيار العام المتدفق أساسا من مطابع بيروت ليجرف في طريقه كل محاولة رصينة لتصحيح الاستجابة العربية أو تفعيلها في مواجهة الهزيمة العسكرية " العابرة")[٣] ويتابع الشاعر قائلا:

(في ظل هذا المناخ الفكري والأدبي الدهماوي ، ألفيتني أشق فيا في الزمان عائدا طريقي إلى محمد، لأتيقن لديه من مماسك جذوري القومية في وجه العاصفة ... بقدر ما ألفيتني أيضا أعاود التأليف الشعري على شكله العتيق العريق – الأصولي – . فنحن لا نشكو عربيا من أي حالة ارتهان بأرومة لغة متوفاة – تغمدها الله برحمته الواسعة – كمثل ارتهان الفرنسية بأرومة اللاتينية ...ونحن لا نشكو عربيا من أن تجربتنا الشعرية العربية لا يتعدى كامل عمرها التاريخي خمسة قرون ، بل على العكس تماما نعي جيدا وربما يعي السادة المستشرقون أكثر منا أن ذاكرتنا الشعرية المعافاة تمتد خمسة عشر قرنا في غور الزمان إلى تخوم معرفتنا بالشعر الجاهلي الناضج الكامل التأسيس وهو الذي لا بد أن يكون تتويجا حتميا ومنطقيا لسلسلة طويلة

---

[٢] رأيت الله في غزة ، ص ٥١.

[٣] من مجموعة قصائد مستقلة ، يوسف الخطيب ، ص ١٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من التجارب الشعرية السابقة التي تغوص بدورها ربما خمسة عشر قرنا أخرى سواء في غور الزمان أو تحت رمال الصحراء ..) .[١]

نستنتج مما سبق قوله أن يوسف الخطيب كان يستحضر الشعر العربي القديم من منطلق اعتزازه بتراثه الأدبي ، تراث آبائه وأجداده لغة وتاريخا وحضارة ...(فحين تتعرض أمة من الأمم لخطر دائم يهدد كيانها القومي فانها لا تلبث أن ترتد تلقائيا بحركة رد فعل إلى جذورها القومية، تتشبث في استماتة لتؤكد كيانها في وجه هذا الخطر الداهم ، والتراث واحد من هذه الجذور القومية التي ترتكز عليها كل أمة في مواجهة أية رياح تحاول أن تعصف بوجودها القومي فتمنحها إحساسا قويا بشخصيتها القومية ويقينا راسخا باصالتها وعراقتها).[٢]

وضمن هذا السياق نستطيع القول أن يوسف الخطيب بتعلقه بالتراث كان يستشعر ذلك الخطر الداهم الذي لا يزال يعصف بأمتنا العربية وقوميتا إلى يومنا هذا ..ناهيك عن استدعائه لشخصيات تاريخية عظيمة غيرت وجه التاريخ ، وهذا لا لشيء إلا ليرسخ في أذهاننا صورة عظيمة لتاريخ مشرق لا ينسى .

---

[١] المصدر السابق ، ص ١٤٧.

[٢] د. عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، القاهرة، دار الفكر العربي ، ١٩٩٧ ، ص ٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤-الصورة الشعرية

أ – مفهوم الصورة الشعرية

ب – مصادر الصورة الشعرية

ج – أنماط الصور عن الشاعر يوسف الخطيب

١- صور عمود الشعر

٢- صور الطبيعة

٣- الصور النفسية

٤- الصورة المركبة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مفهوم الصورة الشعرية

أصبحت الصورة الفنية من السمات الأساسية للشعر في العصـــر الحـــديث ، وإن كانت سمة مميزة له منذ أقدم العصور (فهي إلهام غريزي يكشف عن عناصر الشبه بين الأشياء التي لا صلة بينها)[١] . وقد اهتم النقد العربي القديم بالصورة من حيـــث

[١] اليزابيت درو ، الشعر كنف نفهمه ونتذوقه ، ص ١٠٦.

التحليل البلاغي للصورة القرآنية والتركيز على دراسة الصور الشعرية عند الشعراء الكبار أمثال أبي تمام والبحتري وابن المعتز.

(وقد ظلت الصورة تفرض نفسها على وعي الناقد القديم عند بحثه القضايا الأساسية التي شغلته مثل الموازنات والسرقات كما كانت تفرض نفسها عليه في تتبعه ما حققه الشعراء من إبداعات جديدة).[٢]

ويمكن بلورة مفهوم الصورة الفنية من خلال القول إنها جزء مهم من التجربة الشعرية ويكمل جمالها بتفاعلها مع العناصر الأخرى، ومما يساهم في التقليل من فاعليتها الوقوف عند التشابه الحسي بين الأشياء دون ربط ذلك الشعور المخيم على الشاعر في أثناء تجربته . ومن الأمور التي تفقدها القيمة تناقض الصورة الجزئية داخل القصيدة ، حيث إن الصورة الجزئية لا بد أن تتلاءم مع الصورة الكلية وتتكامل معها، ومما لا شك فيه أن الصورة التي تعتمد على الإيحاء أجمل وأقوى أثرا من الصورة التي تعتمد على الوصف والتقرير المباشر ، مع مراعاة أن نجاح الشاعر لا يتوقف على كون ألفاظ الصورة مجازية ، فقد تكون ألفاظها وعباراتها حقيقية وتشع مع ذلك بصورة دقيقة تدل على سعة خيال المبدع.

وقد تطور مفهوم الصورة في العصر الحديث حتى أصبح من الصعب إسناده إلى الصورة في البلاغة القديمة، ذلك أن البلاغة القديمة تعتمد على الفصل بين جزأي الصورة " المشبه"و " المشبه به " بينما يتعامل النقد الحديث مع الصورة بشكل متكامل قائم على معاني جديدة تنبثق من الداخل بين طرفي الصورة بعيدا عن اشتراط تقارب المشبه والمشبه به وواقعيتهما أو وجود شبه حقيقي بينهما ، (حتى أصبح الإيحاء هو الهدف وليس " التوضيح " وصارت العلاقة نوع من الكشف القائم على قوة التركيز ونفاذ البصيرة التي تدرك ما لم يسبق لنا أن أدركناه) .[٣]

مصادر الصورة

للصورة الفنية عدة مصادر نغترف من معينها ، وتتبلور من خلالها جزئيات وتتفاعل فيما بينها،وتعتمد هذه المصادر في الأغلب على التخزين الخبري الذي يتمايز المبدعون بقدراتهم عليه تمايزا يرجع إلى أسباب متعددة ، منها: الوراثة والاستعدادات الفطرية والخبرات الإيجابية والسلبية التي يتلقاها المرء من البيئة المحيطة ، والأحداث

---

[٢] جابر عصفور ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٣، ص ٦٠٥.

[٣] أحمد ساعي ، حركة الشعر العربي في سورية من خلال أعلامه ، ص ٣٠٤-٣٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي تقع للمرء مشكلة نقط تحول وارتكاز في حياته بالإضافة إلى الحالة الصحية ومستوى الحيوية التي يتمتع بها .

ومن هذه المصادر "التراث " الذي يشكل المنابع الأولى لثقافة الشاعر ، وتأثير التراث يأتي من خلال منحه للمبدع خبرة مكتسبة في تشكيل الصورة وطرق إبداعها أو من خلال إقامة المبدع لعلاقات تقابل بين عناصر هذا التراث وعناصر الواقع المعيش فيما يسمى بالمفارقة التصويرية .

ومن مصادر الصورة " الطبيعية " (حيث أن الطبيعة بكل ما تنطوي عليه من أشياء وجزئيات وظواهر هي المصدر الأساسي لإمداد الشاعر بمكونات الصورة)[١] .

وفي أية صورة شعرية سنجد في الغالب قطعة من الطبيعة ، حتى لوكانت هذه الصورة قائمة على التناقض والعبث بالسنن الكونية وقوانين الطبيعة ، فهذا العبث دليل على وجود الصورة في وضع خاص ذي دلالة خاصة . (فالمسلمة الأولى التي يقوم عليها تشكيل الصورة في الشعر الحديث هي ..اخضاع الطبيعة لحركة النفس وحاجتها)[٢] بمعنى أن تكون الصورة معادلا موضوعيا لأحاسيس الشاعر وعواطفه الشخصية فالصورة الفنية تمثيل للواقع النفسي والواقع الطبيعي .

ومن مكونات الصورة " الخيال " وهو قوة خلاقة تقلب موازين الواقع والطبيعة، وتمنحها قوانين خاصة وتستنهض ثقافة المبدع ، وتسترجع الحالة الشعورية التي عايشها في تجربته .

إذ إن الصورة (شعور وجداني غامض بغير شكل ، بغير ملامح تناوله الخيال المؤلف أو الخيال المركب فحدده وأعطاه شكله أي حوله إلى صورة تجسيد)[٣] لذلك نجد هناك عناية خاصة بدراسة هذا العنصر لدى النقاد ، ومنهم الناقد المعروف (كولردج) ،الذي عرف الخيال قائلا بأنه (تلك القوة التركيبية التي تكشف لنا عند ذاتها في خلق التوازن أو التوفيق بين الصفات المتضادة أو المتعارضة).[١]

كما فرق بين نوعين من الخيال هما : الخيال الأولي والخيال الثانوي ، أما الخيال الأولي فهو القوة الأولية التي بواسطتها يتم الإدراك الإنساني عامة ، وأما الخيال الثانوي وهو الخيال الشعري ، فهو قوة تمكن الإنسان من الإدراك إلا أنها تتجاوز هذا إلى عملية خلق يتحول فيها الواقع إلى المثالي . كما أنه يحتاج إلى جانب الحدس إلى

---

[١] محمد حسن عبد الله ، الصورة والبناء الشعري ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨١ ، ص ٣٣.

[٢] عز الدين اسماعيل ، التفسير النفسي للأدب، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٦٥.

[٣] ساسين عساف ، الصورة الشعرية في إبداع أبي نواس ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات ، ١٩٨٢، ص٢٦.

[١] ريتشاردز ، مبادئ النقد الأدبي ، ترجمة د. مصطفى بدوي ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة ، ١٩٦٣، ص ٣١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قدر من الإرادة الواعية المنظمة التي تسعى إلى إذابة المتناقضات والتوفيق بينها وإيجاد الوحدة الكامنة خلف هذه المتناقضات .

وإذا كانت الصورة (رسم ، قوامه الكلمات المشحونة بالإحساس والعاطفة)[٢] كما يقول (دي سي لويس) فانها لا تحلق في الأجواء النفسية إلا بجناح الخيال الذي يملك قدرة سحرية عجيبة على التأليف بين المتناقضات ، فتبدو في شكل جميل يعمق شعورنا بالجمال والحياة .

أنماط الصورة الفنية عند الشاعر يوسف الخطيب

لقد حرص الشاعر على تحقيق المعادلة الصعبة بين الوضوح والواقعية من جهة، والعمق والإيحاء من جهة أخرى، ويتحدث الشاعر عن الصورة الشعرية قائلا :

(عندي أن الصورة الشعرية هي ذلك الجسم الحقيقي العادي ، في غلالة شفيفة من الخيال ، وهذا التزاوج بين الحقيقة والخيال يأخذ بالتالي اسم " الرمزية " على أن الرمز يجب أن يكون عميقا بحيث لا يغدو تشبيها تافها ، وفي الوقت نفسه يجب أن يكون سهلا بحيث لا يغدو طلسما ملتويا...وهذا الجمع بين النقيضين :العمق والسهولة، هو الميعاد الصحيح الذي تقاس به طلاوة الرمزية)[٣] .

وبناء على ما سبق فان أهم ما تحقق لدى الشاعر فيما يخص تشكيل الصورة ، ذلك الوعي بضرورة بناء العمل الشعري بواسطة الصورة واعتبار الصورة خيوطا يتكون منها نسيج القصيدة. بل إن الصورة تعد بمثابة الخيط النفسي والشعوري الذي يربط بنية القصيدة كلها.

ويمكن أن نرى في البداية أن الصورة في شعر يوسف الخطيب عالم شديد الثراء والتنوع فهي تتراوح في طبيعتها بين أشد الأشكال بساطة وأكثرها تركيبا وتعقيدا ، كما تتنوع مصادرها بتنوع مرجعية الشاعر الثقافية ، ومدى انفتاحه على الكون وإدراكه لتطور الحياة، وهي بذلك تمثل شكلا من أشكال العلاقة بين المبدع والواقع،وهذا يؤدي بالضرورة إلى التفاوت بين تجارب الشاعر في المراحل الشعرية المختلفة التي مر بها مما يقتضي منا القيام بعملية انتقاء للنماذج الشعرية التي ستكون محل قراءة كما يقتضي منا الانفتاح على أكبر قدر ممكن من التجارب خاصة تلك التي حققت نضجا فنيا كبيرا وذلك من أجل أن يكون عملنا شاملا للمتن الشعرية عند يوسف الخطيب بمختلف اتجاهاته .

---

[٢] دي لويس سيسل ، الصورة الشعرية ، ترجمة أحمد الجنابي، بغداد ، وزارة الثقافة والإعلام ، ١٩٨٢، ص ٢٣.

[٣] العيون الظماء للنور ، ص٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد وظف الشاعر نوعين من الصور وفق بنائها هما الصورة المفردة الجزئية والصورة المركبة الكلية . ولعل هذا التقسيم يمنحنا القدرة على استقصاء صورة الشاعر من أبسط أشكالها إلى أكثرها تركيبا وتعقيدا.

صورة عمود الشعر

(تقوم الصورة الفنية في القصيدة التقليدية تبعا لارتباطها بالفكرة بوظيفتين أساسيتين ، فهي إما أن تقررها بالشرح والتوضيح أو تزينها بالتزويق والتحلية والزركشة)[١] .

وعلى ضوء ما سبق فان الصورة التقليدية تأتي إما موضحة للفكرة أو زائدة عليها بمعنى أنها تقريرية واضحة . (والوضوح والتقرير في الصورة التقليدية متداخلان لأنهما تقرير للتجربة المحدودة الأبعاد ووضوح الشيء في ذاته دون أن يصبح جزءا من وعي الشاعر ، فهو وضوح التقرير الذي ينقل التجربة من الخارج إلى الداخل ومن الداخل إلى الخارج وكأن شيئا ما لم يتغير لا في المنظر ولا في نفس الشاعر ولا في نفس المتلقي) [٢].

ومن هذا المنطلق يضع الدكتور نعيم اليافي ثلاث خصائص للصورة الفنية التقليدية في علاقاتها النسقية هي : التفكك والتراكم والتناقض. فهي مفككة حيث لا رابط بينها داخل القصيدة مما يعني انعدام الوحدة وفقدان التماسك في البناء الصوري في حين تقود ظاهرة التراكم وكراهيته الفراغ إلى خاصية الازدحام . بالإضافة إلى ما سبق فهناك (انعدام الوحدة الشعورية أو الجامع النفسي في البناء الصوري)[١] .

ولو تتبعنا الصور الشعرية عند يوسف الخطيب للاحظنا أنه في ديوانه الأول كان يتردد بين الحداثة والتقليد حيث بقيت التجربة الشعرية في ذلك الديوان تراوح مكانها وتدور في حلقة تقليد القدامى إلا أن إبداعه الفني كان واضحا حيث كان له السبق الفني في ابتكار صور فنية جديدة كما سنرى ،وخير ما يمثل القصائد التقليدية عنده قصيدة بعنوان (اسطورة النسر والخفاش):

صاحبي إن تملأ الكأس دموعا فهي حسبي
لم يعد في الناي أفراح أغنيها لشعبي
كل أحزان الثكالى نابضات ملء قلبي

---

[١] د. نعيم اليافي ، تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث ، ط١ ، دمشق ، اتحاد الكتاب العرب ، ص ١٦.

[٢] المصدر السابق ، ص ٢٧.

[١] المصدر السابق ،ص ٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أدر الخمرة يا ساقي على كل حزين
كي ترانا في لهيب الحزن ، في ناد الأنين
نتلظى كلنا ينضح بالثأر الدفين[٢]

عند قراءتنا لهذا المقطع الشعري نشعر بحنين الشاعر إلىصور القصيدة التقليدية إذ إن "تحطيم الناي" وشرب كأس الدموع "ودعوة الساقي أن يدير خمر السلوان وغيرها هي صورة تقليدية ،ولعل طبيعة الرثاء هي التي فرضت عليه طبيعة هذه الصور .

وفي قصيدة (المغاوير) نلاحظ تراكم الصور بشكل واضح بينها بحيث لو حذفنا أحد الأبيات لن يخل ذلك بالنسق العام للقصيدة وهو ما أوضحناه سابقا حول خصائص الصورة التقليدية :

مثلما تركض الأعاصير في الليل غضابا ، فالرحب منها يباب
مثلما يطفح المحيط على الأفق ويندلع في الرمال العباب
مثلما تهبط النجوم على الأرض وينهل بالنجيع السحاب
هكذا أقدم المغاوير لها أذن البعث للغد واستجابوا
كاندلاع اللهيب من جذوة الشمس ففي كل حدقتين شهاب
والجباه الصلاب في ملعب الريح كما تشمخ الجبال الصلاب
افسحوا الدرب لا مجال على الدرب، وما عاد يحتوينا الضباب
واتركوا الدار فهي ملك ذويها ولقد آن أن يدق البواب
ستظل الخراف في شرعة الغاب خرافا ...حتى تبيد الذئاب[١]

في الأبيات السابقة يرسم الشاعر يوسف الخطيب للحرب صورة أخرى مليئة بالأعاصير والنجيع واللهب وغير ذلك مما يناسب طبيعة الموضوع . ولكننا نلاحظ ازدحام القصيدة بتلك الصور دون أن ترتبط ببعض التجارب التي تفرق بينها.ولعل (أبيات الحكمة والأمثال كانت تقوم بمهمة التزييف في القصيدة التقليدية) [٢]نلاحظها من خلال البيت الأخير الذي يتضمن حكمة جميلة ،والقصيدة حماسية خطابية بشكل واضح.

---

[٢] أسطورة النسر والخفاش ، ديوان عائدون ، ص ١٥.
[١] قصيدة المغاوير ، ديوان عائدون ، ص ١٥.
[٢] نعيم اليافي ، تطور الصورة الفنية ، ص ١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومهما يوغل الشاعر في التجديد (يظل مرتبطا ببعض المظاهر الفنية في تـــراث الشعر العربي القديم)[٣]ومع ذلك فقد أضاف الشاعر إلى الصور التقليدية ألوانـــا مـــن التصوير الشعري ، حيث استعار " أسطورة بروميثيوس كما فـــي قصـــيدته "مشـــيئة الجبار" مؤكدا قدرته على الإبداع الفني :

أنا مشعل أنا مارج جبار لا الريح تخمدني ولا الإعصار

وهناك في القفقاس قيد " زيوس" كان من الجبال

قد حطمته يد المشيئة منذ آلاف الليالي

وكأن ذكرى الشاطئ الغافي هناك على الرمال

نفضت جناح النسر من قيد صديء الطوق بال

هو مشعل في اللاجئين ، وفي الكهوف ، وفي الخيام

وجنين صبح دافق الإشراق في قلب الظلام

يتوعد الشذاذ طول الليل بالموت الزؤام

قسما بيافا ، بالطلول الذاهلات ، وبالحطام

بالذكريات بكل شيء من ثرى الوطن الحرام

سيعود أهل الدار رغم مخالب الظلم الدوامي ..[٤]

اتخذ الشاعر في الأبيات السابقة من أســـطورة (بروميثيـــوس) قناعـــا لأفكـــاره ومشاعره ليمنح التجربة قدرا من الموضوعية والحياد يجنبه الافضاء بصوته الـــذاتي بشكل مباشر . وإن كان ذلك الصوت يظهر بين الحين والآخر.

كما تطالعنا في القصيدة السابقة صور مفردة جميلة ، فقد شخص الشاعر الصـــبح وجعل له جنينا يتوعد بالانتقام كما أعطى الأطلال صفة الذهول ، فهي ذاهلة من شدة ما أصاب اللاجئين من تشرد وعذاب ، كما جعل للظلم مخالب كالإنسان وما ذالـــك إلا ليعني المضيء إيحاء أعمق وتأثيرا أقوى.

وهذا يؤكد أن ظاهرة التشخيص ليست جديدة. بل هي (ظاهرة قديمة في شـــعرنا العربي القديم وشعرنا العالمي).[١]

---

[٣] د. عبد القادر القط، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ، ص ٣٩١.

[٤] مشيئة الجبار ، ديوان العيون الظماء للنور ،ص ١٨.

[١] علي عشري زايد ، عن بناء القصيدة العربية الحديثة ، القاهرة ، دار الفصحى ، ١٩٨١، ص ٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يلجأ الشاعر إلى اسلوب التشخيص وحده بل كان يستعمل أسلوب التجسيد ليعمق الفكرة في أذهان المتلقي ويؤكدها. فها هو في قصيدته موعد الثأر يمزق الليل ويزرع الآثام .

ويشخص الشاعر الصبح والموت من خلال قصيدته (العيد يأتي غدا) :

منذ ذلت هاماتنا وانحنينا
وعلى أرجل الطغاة ارتمينا
خجل الصبح أن يطل علينا

في كهوف عتيقة ما نزال
يرقص الموت حولنا والزوال
في كهوف حراسها أنذال[٢]

وفي قصيدته (العيون الظماء للنور) يشخص الظلام والشتاء قائلا:

من دموعي سقيت هذي السنابل فاحصديها لغيري يا مناجل
يا ليالي الشتاء لا تسفحي الدمع غزيرا ، فالدمع فينا غزير
من مآقي أطفالنا وثكالانا شتاء ، فكل يوم مطير
وغدا في الحصاد في معبد الشمس ستكوى جباهنا والظهور
هذه دورة الحياة رؤى سود وهذا ظلامنا المخمور[٣]

لقد شخص الشاعر الشتاء فكأنه إنسان يدمع كما جعل الظلام مخمورا كالإنسان ، وما ذاك التشخيص إلا ليضفي على الصور الحركة والحيوية.

وهكذا فقد استخدم يوسف الخطيب الصور التي تنسجم مع طبيعة المرحلة التي عاشها الشاعر وهي مرحلة كان لا بد له أن يثبت أقدامه فيها حتى يبدأ في كتابة الشعر الحر . ومع هذا فقد كان الشاعر قادرا على التنويع والتجديد في تجربته الشعرية، فمن قصيدة مغرقة في تقليديتها إلى أكثر القصائد حداثة دون أن ينال ذلك من شاعريته الفذة وفنه الأصيل .

ويرى الدكتور إحسان عباس حول هذا المفهوم أن (نظرية عمود الشعر رحبة الأكناف ، واسعة الجنبات وأنه لا يخرج عن نطاقها شاعر عربي أبدا وأنها أساس كلاسيكي رصين).[١]

---

[٢] العيون الظماء للنور ، ص ٨٥.

[٣] قصيدة العيون الظماء للنور ، ص ٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد بدأ الشاعر يوسف الخطيب في كتابة الشعر الحر عام ١٩٥٧ من خلال قصيدة (أغنية انتصار طروادة) في ديوانه الثاني (عائدون)التي أبرز فيها مهارة فائقة في اقتحام عالم الأسطورة حيث استعاد أسطورة طروادة بالإضافة إلى أنه استعاد اسطورة (بروميثيوس) في وقت مبكر جدا، وهذا ما يجعلنا نجزم بأنه سيبدأ في التنويع في صوره وأخيلته في المراحل المتقدمة من شعره كما سيتضح معنا.

٢-صور الطبيعة

كانت الطبيعة ولاتزال مصدرا اساسيا للخيال وأهم العناصر الفاعلة في القصيدة، فهي تمثل خلفية حية في وعي الشاعر يتفاعل معها فتبدو كما لو أن التوتر الذي يبدو عليها هو نفسه في ذات الشاعر .

وبعض الشعراء يخلعون مشاعرهم على الطبيعة محاولين بذلك تجسيم مشاعرهم ، وحين يمتزج الشعور بالطبيعة تبرز إمكانية الفن ، وفي شعر يوسف الخطيب تتخذ الطبيعة أشكالا متعددة :

أ- الإسقاط

نريد بالاسقاط (منح الخارج صفة الداخل وقومه على الأغلب يسمى بالمخالطة الوجدانية وسيله الوحيد إلى البروز هو الصورة).[١]

---

[١] د. احسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، بيروت ، دار الآفاق ، ١٩٧١، ص ٤٠٩.

[١] د. نعيم اليافي ، تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث ، ص ١٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد نشأ الاسقاط مع التحول الذي حصل نتيجة الدور الهام الذي أصبحت تلعبه الطبيعة ، فبعد أن كانت هذه الطبيعة شكلية لا حياة فيها بعيدة عن الإنسان البعد كله ، أصبحت ذاتا حية أقرب ما تكون إليه ، إذ أصبحت الطبيعة (أما لكل شاعر) .[٢]

وهذا الاسقاط ينطبق على العندليب الذي لمحه الشاعر يوسف الخطيب بينما كان الشاعر جالسا شارد الفكر ، منسرح الخيال تحت إحدى الأشجار ، حيث يلمح عندليبا يحط على إحدى شجر الحور فتخالجه على الفور خاطرة بأن ذلك العندليب ربما كان لاجئا مثله يعاني الغربة والتشرد مما دفع الشاعر إلى إسقاط مشاعره الحزينة عليه :

أتراك مثلي يا رفيق تمر في الزمن
عبر المهالك والليالي السود ، والمحن
لا صاحب يرخي عليك غلاله الكفن
أتراك مثلي تغتدي خمارة الشجن
تذرو بقية عمرك العادي بلا ثمن
لكأن في عينيك بعض اللمح من وطني
وأكاد ألمح في وجومك لو مأساتي
جرحي وملحمتي ، وتشريدي ، وآهاتي

أنا ها هنا يا صاحبي أقضي عشياتي
أرثي بجانب حورة الشلال أمواتي[١]

لقد كان الشاعر يعوض الطبيعة عن داخله النفسي ويرى فيها ركنا هادئا يشفي جراح الروح. لقد كان جل مراد الشاعر أن تشاركه الطبيعة مجسدة في ذلك العندليب حياته اللاهثة المؤلمة:-

بي لهفة يا صاحب مشبوبة بالنار
هل بعض أخبار تحدثها ، وأسرار
للطامئين على متاه الوحشة العاري[٢]

وقد عبر الشاعر عن حنينه لوطنه بصورة إيحائية جميلة ابتعد بها عن المباشرة التقريرية فيقول من مجزوء الكامل :

لو قشة مما يرف ببيدر البلد

---

[٢] المصدر السابق ، ص ١٠٨.

[١] "قصيدة العندليب المهاجر " ، ديوان عائدون ، ص ٩ .

(٢)(٣)(٤) المصدر السابق ، ص ١٢،١١،١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خبأتها بين الجناح وخفقه الكبد
لو رملتان من المثلث ، أو ربى صفد
لو عشبة بيد و مزقة سوسن بيد
أين الهدايا مذ برحت مرابع الرغد
أم جئت مثلي بالحنين ، وسورة الكمد[٣]

ويبدأ يوسف الخطيب المحاولات فيتغنى بالطبيعة ليجسدها بشكل أغنية:

عهدي بدار طفولتي فردوس أحلامي
الشعر بعض ربيعها المتفتح النامي
وعلى دواليها يغني ألف خيام
أنشودة هي ، جمعت من كل إلهام
من ناي داعية ومن أجراس أغنام
وحفيف غاب واختلاجة جدول هام[٤]

وتظهر لنا في الأبيات السابقة صور سمعية ذات جرس رقيق (ناي راعية، أجراس أغنام ، حفيف غاب ، اختلاجة جدول هام ...) وقد تميزت هذه الصور بجرسها الهادئ ليناسب ذات الشاعر القلقة الباكية، كما جسد الشاعر الربيع في هيئة شعر ليعطي لنا بيئة رومانسية إلى أبعد الحدود.

وهكذا فقد استمدت الصور السابقة نبضها من عناصر الطبيعة لتعطي لنا لوحة فنية متكاملة تنم عن حس مرهف وشاعرية فذة .

ويعود يوسف الخطيب ليتحاور مع ذلك العندليب راجيا لقاءه في المكان ذاته:-

أتراك مثلي يا رفيق ، فنحن سيان
أشجانك الكثر الكئيبة ، ذات أشجاني
في ضحوة البعث الملوح خلف أحزاني
قم داو جرحك يا رفيق الحورة الثاني
أنا هاهنا في كل يوم شئت تلقاني

من هذا الموقف العام لعلاقة الشاعر بالطبيعة يمكن أن نبدأ ملاحظة ظاهرة الاسقاط عليه وقديما قالوا (إن كل منظر حالة نفسية)[١] ، ولقد أضحت الصورة وسيلته الوحيدة إلى هذا الإسقاط . ومن ثم حملت طبيعته ، فقد استطاعت أن تحمل

[١] د. محمد زكي العشماوي ، قضايا النقد العربي المعاصر، الاسكندرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥، ص ١٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رؤاه حيث أصبحت دربا من الوجدان التصويري ، لا ضربا من المحاكـــاة للمشـــاهد البصرية ،وبكلمات أخرى (أن قيمة الصورة الفنية لا تبدو في قدرتها على عقد التماثل الخارجي بين الأشياء وإيجاد الصلات المنطقية بينها وإنما قدرتها على الكشـــف عـــن العالم النفسي للشاعر والمزج بين عاطفته والطبيعة)[٢] ،إذا كان ذلك العندليب الشرارة التي أطلقت قريحة الشاعر ليسقط مشاعره الباكية من خلال تلك القصيدة الرومانســـية الجميلة .

ب – تشخيص الطبيعة

(والتشخيص وسيلة فنية قديمة ، عرفها شعرنا العربي والشعر العالمي في أقـــدم عصوره ، فلم تعد الصورة التشخيصية مجرد لمحات متناثرة وإنما أصبح التشـــخيص أساسا من الأسس التي يصوغ عن طريقها الشاعر العربي الحديث صوره)[٣] ، وذلك باضفاء الحركة والحياة على عناصر الطبيعة ، فالطبيعة ليست مادة جامدة فحسب بل روح حية أيضا .وبالتالي فان الشاعر لا ينقلها كما تفعل آلة التصوير وإنمـــا يســـعى لاكتشاف أسرارها والعلاقات التي تربط بين عناصرها ، كما يخرج مشاعره وعواطفه بمظاهر الطبيعة، فاذا هي حية بعيون شاخصة . يقول يوسف الخطيب فـــي وصـــف قريته الجميلة مشخصا إياها :

تظل جدائل الزيتون طول العام مرخية
على دار لنا في وحشة الأطلال منسية
يلوح ركامها المهجور أشباحا ضبابية
وفيما يسقط الزيتون في الريح الخريفية
بلا أعقاب قنديل يعل سنا الألوهية
تفيض بحيرة مسحورة الأضواء قدسية
وحقل التين، بعد البين، ملعب ألف جنيه
توزع في محاريب الدجى أصداء مرثية
تظل البومة الحدباء ، والخفاش والغربان
تحوم على جدار ، كان للأحلام يوما ..كان
أقريتنا ،نفرت إليك أسراب العصافير

---

[٢] د. نعيم اليافي ، تطور الصورة الفنية ، ص ١١٠.

[٣] د.علي عشري زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة ، ص ٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رسائل من كنوز الشرق خضراء التعابير ..[١]

لقد أعطى الشاعر ارتخاء جدائل الزيتون صفة العمل الإرادي ، فصارت مرخية بإرادتها إنه فيما يصور حزن الزيتون ويشركه في الشعور بالمأساة بكلمة " مرخيـــة " يصنع شيئا أكثر من ذلك ..يجعلك تحس أن الزيتون فعل ذلك بإرادته من فعل (تظل). وعندئذ تخرج من هذا البيت الحزين بشعور رائع هو أن نفس الشاعر تتوهج بالحيوية والتوثب والاستعداد وحب الأرض التي تضم الزيتون والـــريح الخريفيـــة والبحيـــرة المسحورة ،وفي هذا استعارة مكنية رائعة، وتستمد الصورة نبضها من عناصر الطبيعة التي تدخل في الخلق الفني حيث الخفافيش والغربان وأسراب العصافير .

وتموج القطعة السابقة بصورة لونية جميلة فكنـــوز الشـــوق كانـــت (خضـــراء التعابير) وفي هذا تجسيد لما هو معنوي ، فالتعابير اكتست لونا أخضر كي تعبر عـــن الحب والأمل .

وعلى أية حال نستطيع أن نضع المسلمة الأولى التي يقوم عليها تشكيل الصـــورة الفنية في القصيدة السابقة وهي (اخضاع الطبيعة لحركة النفس وحاجتها) .[١]

وبذلك يكون للشاعر كل الحق وكل الحرية فـــي تشـــكيل الطبيعـــة والتلاعـــب بعناصرها وفق تصورات والشاعر الخاصة .

وفي قصيدة (من بحر يافا النسيم) يشخص الشاعر منزله ، فعلى أكتافـــه تطـــل الدوالي ويضحك النبع ليفيض بالماء :

هل الدوالي على أكتاف منزلنـــــا هوى العصافير أم لافئ تغشاه
وفاض بالضحكات النبع ،أم رجعت جرارهن بلا ماء صبايـــــاه
نسيم يافا أمل رأسي إلى سنـــــة أحياك في حلم بستان ،وأحيـــاه
وخلني لو شراعا فيك،ضائعـــــة أيامه ومروج الوهم دنيـــــاه
ينوب عني لديك الطير، ظلتـــــه ستائري وجيوب السقف مأواه
شباكي الراصد الغربي ، لفتتـــــه شوق إليك وتلويح ذراعـــــاه[٢]

---

[١] بحيرة الزيتون ، ديوان عائدون ، ص ٤٢.

[١] عز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر، ١٢٦.

[٢] من بحر يافا النسيم ، ديوان واحة الجحيم ، ص ٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد جعل الشاعر للمنزل أكتافا كالإنسان كما جعل النبع إنسانا يضحك للدلالة على غرارة مائه ..وهذا تشخيص للطبيعة يضفي عليها الحركة والحياة وفي البيت الأخير صورة فنية رائعة ، فقد أعطى للشباك صورة الإنسان الذي يلتفت بلهفة وشوق وذراعاه تلوحان .

وعموما فتشخيص الطبيعة هنا ليس مجرد عملية تزيينية بيد أن (روح الشاعر تحن إلى عالم مثالي غائب وجسده أسير المادة فيبقى خياله أبدا على سفر بين العالمين).[٣]

وهكذا تصبح الأدوات الحسية والمادية أدوات مثيرة للأحاسيس والمشاعر (والشاعر كالرسام يستخدم هذه الأدوات ولكنها لا تؤدي وظيفتها على الوجه الصحيح إلا بتوجيه من الشاعر)[٤] . وهذا التوجيه مصدره أفكار الشاعر وأحاسيسه . وبعبارة أخرى أصبحت الصورة (تقدم لا حسب طبيعة الشيء بل حسب إحساس الفنان به)[٥].

والواقع أن الطبيعة أضحت ملاذا للشاعر يجد فيها عالما مثاليا أو معادا لما يفتقده في واقعه المتأزم عندما يثقل عليه الواقع ،خاصة إذ لم يعد الشاعر يعنى بحرفية الشكل الخارجي وما فيه من تطابق ، لأنا لتطابق أو التشابه ليس شأنا إبداعيا ، وتصبح الطبيعة وفقا لهذا المنظور موضوع تأمل واستبصار أو ما يسمى بالحلول الشعري :

عندما ينشر المساء على الأفق ... جناحين من ظلام الغروب
يجلس الشاعر المعذب في السفح ... كئيبا مع الخيال الكئيب
جذع زيتونة وخفقة آه ... من ضلوع المنى ،وصرخة ذيب
وانطلاق مع الخيال عميق ... وانسراح مجنح في الغيوب
يا لدنياي ،عالم مغلق السر ... عصي على اللبيب اللبيب
إن صحبي توزعوا الموت والذل ... بعيدا في كل أفق غريب
تلك آثارهم تذوب على الرمل ... كخطوي على المتاه الرحيب
كم تأملت في سني،فأبصرت ... جدار الفناء جد قريب
كان لي موطن يرف هناء ... في ضلوعي ونشوة في وجيبي
لي في كل خطوة منه ذكرى ... وعناق مع الضحى والمغيب
وحديث إلى الرمال ونجوى ... للأصيل الملون المخضوب[١]

---

[٣] خالدة سعيد ، حركية الإبداع ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٧٩، ص ٥٣.

[٤] عز الدين اسماعيل ، التفسير النفسي للأدب ، ص ١٠٨.

[٥] د. نعيم اليافي ، تطور الصورة الفنية في الشعر العربي ، ص ١١٠ .

[١] قصيدة جبهتي تنكر الخيانة ، ديوان العيون الظماء للنور ، ص ٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كانت الأبيات الأولى في وصف الطبيعة ثم أعقبها الشاعر وصف لحالته النفسية وكأن منظر الغروب كان منسجما مع إحساسه وانفعالاته .

وقد شخص الشاعر في الأبيات السابقة الطبيعة من خلال الصور البصرية واللونية فهناك عناق مع الضحى والمغيب وحديث مع الرمال ونجوى للأصيل وكلها صفات أضفاها على الطبيعة فزادها حركة وحيوية إنسانية.

وهكذا فقد (أصبح تفاعل الشاعر مع الطبيعة تفاعلا حيا ، فلم تعد الطبيعة هذا الشيء المنفصل عن تجربة الشاعر وإنما أصبحت مظاهر الطبيعة رموزا لحالته الشعورية). [٢]وهذا المذهب الذي يخلع فيه على الطبيعة ما يعتمل في نفسه من مشاعر كان واضحا في شعر يوسف الخطيب.

وعموما فإذا كانت قصائده في الطبيعة قد نجحت في إبراز موقفه منها فهي في الوقت نفسه تحقق الوحدة الفنية الشعورية التي تحدثنا عنها فلم تنقسم الصورة فيها على نفسها ولم تتناقض ، وإنما أثارتها عاطفة واحدة سائدة ، حيث تآزرت عناصر القصيدة على إبراز أثر كلي وموحد.

٣- الصور النفسية

لقد استطاع الشاعر أن يتصور بإبداعه الصور الوجدانية التي تقوم على رصد العاطفة واضطراب المشاعر حيث أصبحت الصورة الشعرية إطارا للأحاسيس ، بل إن أحاسيس الشاعر تصبح هي البؤرة الحقيقية التي يتركز حولها الوصف والخلفية الأساسية لكل المشاهد. وما الصورة في الشعر إلا (تعبيرا عن حالة نفسية معينة يعانيها الشاعر إزاء موقف معين من مواقفه مع الحياة).[١]

وأي صورة داخل العمل الفني إنما تحمل من الأحاسيس وتؤدي من الوظيفة ما تحمله وتؤديه الصورة الجزئية الأخرى المجاورة لها بحيث تفضي كل صورة إلى ما بعدها . وقد وفق الشاعر يوسف الخطيب في معانقته للحقائق الجوهرية وتغلغله في صميم ذاته فهو يقول :

لست أنا إياي ،ما هذه ... كفي،ولا السيف بها سيفي
ولا حصاني من تعليته ... بالأمس،في غاشية العسف
وجيعة روحي وبي غربة ... عني ...واقفوا ، عبثا، طيفي

[٢] محمد زكي العشماوي ، الأدب وقيم الحياة المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٤،ص١٠٨.

[١] محمد زكي العشماوي ، قضايا النقد الأدبي، ص ١٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مات الذي في ..ترى كنتـــــه أم نحن كنا اثنين في عطـــف
أم ما توسمت على جبهتـــــي ما كان إلا ألق الزيـــــــف
غيري الذي أصهل في روحـــه لكنني أخنق في الجـــــوف
قد ضاع مني الشوط لما أرتمي بيداء لا تعيا على خـــــف[٢]

لقد كانت صورة المعاناة والعذاب تتصدر المقاطع الشعرية السابقة لتشير في لمح ذكي إلى واقع الحال الذي صار يضغط على الشاعر في تلك المرحلة.

(وقد تفقدا الصورة طبيعتها الحسية إلى حد يجعلها لا تكون صورة على الإطلاق وإنما تصبح مجرد هيكل ، ومع ذلك فهي تمثل إحساس لا يقل عن الإحســاس الــذي تولده لو كانت درجة قصوى من الحسية والوضوح).[٣]

ومن ثم فانه لا يكفي النظر في الصورة بمعزل عن نفسية الشاعر إذ أنها تعبــر عن نفسه وإحساسه .

والصورة ذات الأبعاد الذهنية تدل على نمو وتطور تجربة الشاعر التي دفعته إلى البحث عن الجديد سواء في شكل القصيدة ومضمونها أو أحد أركانهــا كالصــورة أو اللغة.

والواقع أن تجربة الشاعر وصدق عاطفته وبعد خياله الشعري ساعدت في تطور رسم الصورة الشعرية لديه :

تسائل عن حلي وعن هم ترحالــي وما زاد أسفاري ومرساة أشعـــاري
أقول وبي قصد الغريب وكبـــره لي الراحة العزلاء والهدف الغالـــي
وحسبي جبن ضيئات جراحـــــه ضياء رذاذ النجم في الفلك العالـــي
تحديت أن شعبي يباع وموطنـــي يباح وأن أغلي الحصى قوت أطفالي
وبلغت في غار العذاب رسالتـــي تنزل جبريل الخيام فأوحى لـــــي
حرام على عيني الرقاد وأمتـــــي شتات وآفاقي تناثر أطـــــــلال
لأبتدرن الصبح قبل اشتعالـــــه وأورث في عمق السكينة زلزالـــي
ترحلت لا أرضى الرضا عند لــذة ولي هم موتور، وهمة جبـــــــار
ومذ قلت في رهط الملوك نبوءتـــي تغربت في أهلي وشردت في داري[١]

---

[٢] واحة الجحيم ، ص ١٤٦.

[٣] ريتشاردز ، مبادئ النقد الأدبي ، ١٧٢.

[١] واحة الجحيم ، ص ١٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تطالعنا في الإبيات السابقة صورة المفكر العربي برسالته وهمومه والحمل الثقيل الذي يحمله على كاهله بأمانة وإخلاص ليصبح مطاردا في أهله مشردا في كل بقعة من بقاع الأرض ثمنا لقول كلمة الحق .

وقد استعان الشاعر بالصورة التراثية لتأكيد الفكرة الأساسية وتعميقها ، فغلي الحصى ، وغار العذاب ، وجبريل الخيام ..صور معروفة في التراث الإسلامي حيث يعرف كلنا قصة تلك الأعرابية التي كانت تغلي الحصى لتوهم أطفالها بأن في القدر طعاما، وهي قصة من عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وغار حراء وجبريل عليه السلام صور مستوحاه من التاريخ الإسلامي مع التفرقة بين المسميات ، فغار حراء عند الشاعر هو غار العذاب ، لكننا على أي حال نلاحظ أن الصور كانت ذاتية معبرة عن ذات الشاعر الحزينة القلقة ، وقد استخدم الاستعارة المكنية مشبها جبينه بالفلك العالي الذي لا يتأثر برذاذ النجوم .

ويبدع يوسف الخطب في صوره الشعرية في المقطع التالي:

أقول وبي قصد الغريب وكبره ... لي الراحة العزلاء والهدف الغالي
لي الكلمات الحمر تتسغ من دمي ... وما كان إلا من دمي زاد أسفاري
وبوركت آلام الجموع تميمة ... تودق أعصابي وتلهم أشعاري
رؤاي اكتناز الليل غيما وأنجما ... وأشرعة كالثلج يبحرن في قار[١]

نلاحظ أن استخدام الشاعر لأسلوب تبادل مدركات الحواس كما في البيت الثاني ، إذ أن الكلمات تتسغ من دم الشاعر لا من فمه . وما هذه الصورة إلا لتعميق الإحساس بالألم والمعاناة . واللون الأحمر كما هو معروف لدينا رمز للموت وعموما (فان ألوان الأشياء وأشكالها هي المظاهر الحسية التي تحدث توترا في الأعصاب وحركة في المشاعر) [٢]فهي مثيرات حسية يتفاوت تأثيرها في الناس ، لكن الشاعر استطاع أن يستخدم اللون الأحمر لتوصيل أحاسيسه وانفعالاته ..كما تظهر لنا الصورة اللونية من خلال إبحار الثلج في القار . إذ جسدت لنا تلك الصورة معاناة الشاعر والأمة وهي بذلك تشبه الثلج في الصورة السابقة .

---

[١] واحة الجحيم ،ص ١٦٨،

[٢] عز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر ، ص ١٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والشاعر (حين يستخدم الكلمات الحسية بشتى أنواعها لا يقصد أن يمثل بها صورة لحشد معين من المحسوسات بل الحقيقة إنه يقصد بها تمثيل تصور ذهني معين له دلالته وقيمته الشعورية).[٣]

وضمن ماسبق فان يوسف الخطيب استخدم الصور الحسية بشكل واضح لإيصال الفكرة الشعورية لديه ، فاكتناز الليل والغيم والأنجم والأشرعة المبحرة في بحر القار كلها صور حسية لكنها مرتبطة ارتباطا مباشرا بإحساس حاد عميق بالغربة والألم حيث يظهر من خلال الصور تلك ، التناقض بين الآمال والأحلام وبين الواقع المرير.

وهكذا فاننا نجد الصورة الشعرية المشعة قد اتسع إطارها وتشعبت ظلالها وإيحاءاتها كأنها مرايا متعددة وضعت في أماكن مختلفة كما يقول سي . دي . لويس بحيث يعكس الموضوع وهو يتطور في أوجه مختلفة. [٤]

وهكذا سيطرت الرؤيا الداخلية للشاعر على صوره الشعرية فجعلتها صورا ذات وجود نفسي داخلي تحرص على الداخل أكثر من حرصها على العلاقات الخارجية ومن هنا نسجل التحول الكبير في الصورة الفنية من وصف العالم المادي الخارجي إلى عالم الشاعر الداخلي ومن ثم التعبير عن الحالات النفسية والشعورية .

وبذلك تجاوز الشاعر يوسف الخطيب الأداء التعبيري القديم المعروف بنزعته الغنائية والخطابية – كما في المراحل الأولى – إلى الاهتمام بالبحث عن الصورة الحية والعميقة التي ترتبط ارتباطا وثيقا بحالة الشاعر النفسية.

٤- الصورة المركبة

هناك وسلة أخرى من وسائل الصورة الفنية جديرة بالاهتمام ، وهي تشكيل مشاهد عن طريق تجميع مجموعة من الصور الجزئية المتآزرة وهذا ما يعرف (بالصورة الكلية) أو الصورة المركبة وهي (تتألف من تسلسل مجموعة من العناصر قد لا تبدو منطقية لأول قراءة ولكنك لا تلبث بعد تأمل أن تتحسس الخيط الذي يربط بين هذه الذخيرة من الصور الإيحائية الحركية) [١]. ونعني بذلك أن الشاعر لا يعتمد إلى إبراز الفكرة أو الحالة الشعورية على صورة واحدة ، بل يعمد على إثراء الصورة بصور أخرى مماثلة ، وإذا كانت هذه الصور تبدو للوهلة الأولى غير مترابطة، إلا أن ثمة خيطا يجمع بينهما بحيث تكون مشهدا واحدا يوحي بإحساس موحد:

---

[٣] عز الدين اسماعيل ، التفسير النفسي للأدب ، ص ٧٠.

[٤] دي سي لويس، الصورة الشعرية ، ص ٩٠-٩١.

[١] د. محمد زكي العشماوي ، الأدب وقيم الحياة المعاصرة ، ص ١٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الليلة ينبع من دمهم نهر الأردن
ثلاثة أودية من عسل قان
لثلاثة أزمان
فيصيرون وضوء الأرض ، وضوء الشمس
يصيرون الأب والابن ، وروح القدس
ثلاثة أثلاث في جمع أحد ...[٢]

نحسن بالصورة السابقة تسلسل الأفكار ، فكل سطر يفض لما بغده بشكل مترابط منسق وفي قصيدة (أغنية انتصار لطروادة) يمجد الشاعر الموقف السوري في مواجه التحشدات الأجنبية المعادية في إطار قصيد ملحمي أشبه ما يكون بلوحة من يوم الطوفان ، استعار الشاعر اسطورة (طروادة) المدينة الشامخة التي تصدت للجيوش الإغريقية الغازية.

كأن قبل اليوم لم يغم على مدينة مساء..
والنهر ضاع من لهاته نشيد،
لا شاعرا هناك يسأل الضفاف مقطعي غناء
كانت تمد عنقها شجية الدعاء
مآذن الشام،
كأذرع نحيلة تلوح في الغمام
لون النجوم حال ، ضلت الطيور في السماء
فلا البروج لا القلاع لا الحصون،
ثقي إذا تنفس الطاعون في الفضاء
آخيل جاء..[١]

الفكرة الأولى أو الصورة الأولى في هذه اللوحة السابقة هو الاعتداء الذي تعرضت له دمشق وما حل بالمدينة من خطر ، ثم ينتقل الشاعر إلى الفكرة الثانية وهي صورة النضال وبداية الكفاح والتي نقلها لنا تدريجيا:

وكانت المدينة التي تفيأت وراء سورها البحار
لأنها مدينة النضال ..منذ خضب الثرى نضال

---

[٢] يوسف الخطيب ، ديوان رأيت الله في غزة ، قصيدة سريناد ضوء القمر ، ص ٤١.

[١] ديوان عائدون ، ص ٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تضيء من جراح شعبها معابر الليال
تمزق الحصار ..تلوه الحصار ..،والحصار
فموجة تطاول الذرى ،وموجة إلى انحسار

فالمدينة في هذه اللوحة بدأت النضال (حيث موجة تطاول الذرى وموجة إلى انحسار) يصف الشاعر لنا تدريجيا قصة نضال هذه المدينة العظيمة الشامخة .

ثم يصل بنا إلى الفكرة الثالثة وهي انتصار المدينة المحاصرة :

لكن في اللهيب ، في الدخان ، في الدماء
مثل نبوءة الربيع في طلائع السحاب-
كان مخاض أمة تطهرت على محارق العذاب..
النازحون راجعون في مسالك الشعاب،
أحراس أنطاكية تدق عودة الغياب،
فلن يعيش غاصب ، مد الدجى قد انحسر
بركان ثورة ..ضمير أمة قد انفجر
كأن قبل اليوم ما أحست الضلوع ما الحياة
وما ارادة الحياة آخيل مات،
يد الفداء قلمت أظافر القدر
وقلمت أظافر القضاء

ثم ينتقل بنا الشاعر ليصف المدينة بعد نشوة الانتصار وهو المشهد الأخير في القصيدة :

كان الصباح ملعبا ..أرجاؤه الفساح
شذى انتصار ..
والغوطة الخضراء كانت طوق غار
على جبين الشام
والرياح ..كانت الرياح
تذرو رماد هيكل الحصان
كأن قبل اليوم لم يلح على مدينة صباح[١]

[١] ديوان عائدون ، ص ٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبهذا المشهد اكتملت ا لصورة المركبة في القصيدة السابقة ، فبعد النصر أشرقت المدينة بنور الصباح .وقد كان بناؤها بشكل دائري مغلق يربطها رابط شعوري واحد لتؤدي في النهاية إلى الصورة المركبة . وهي في الأبيات السابقة ذات ظلال متكاملة يمكن اعتبارها صور متدرجة في طريقها إلى الصورة المركبة تتجسد من خلال الظلال التالية:

١- الظل الأول : الحصار

٢- الظل الثاني : المقاومة

٣- الظل الثالث : النصر على الأعداء

وينتهي مصطفى سويف إلى أن (الشاعر لا يبدع قصيدته بيتا بيتا بل يبدعها قسما قسما، فهو يمضي في شكل وثبات في كل وثبة تشرق عليه مجموعة من الأبيات دفعة واحدة أو تنساب هذه المجموعة دون أن يتوقف الشاعر قليلا أو كثيرا) .[٢]

وفكرة الوثبات هذه تقودنا إلى مبدأ هام حول وظيفة الصورة الفنية وعلاقتها بالتجربة ، وقد حدد الدكتور محمد حسن عبد الله لذلك ثلاثة مستويات هي : (الصورة – الوثبة –القصيدة) .[١]

وعلى هذا الأساس ينبغي علينا فهم الصورة في إطار القصيدة ككل ، فلا نلجأ مثلما تعودنا إلى عزلها .

وضمن السياق نفسه يقول الدكتور نظمي بركة (لقد جاءت الصورة في الشعر الفلسطيني ، لا سيما الذي أعقب النكبة وكأنها تبتعد عن الصور البلاغية المعروفة ببساطتها في التركيب ويسرها من تشكيل إلى تشكيل جديد يعتمد على الامتداد النفسي والتركيب الدلالي والتوليد المعنوي لدرجة أصبح معها تقسيم الصورة أو تحويلها إلى أشكال بلاغية شيئا صعبا لذلك تكون بناء موحدا متكاملا لا يجوز معه فصل جزئياتها والاستغناء عن بعضها . وتأتي كلها نابضة بالحركة متكاتفة في إعطاء ملامح ودلالات مشرقة وموحية للصورة) .[٢]

وفي القصيدة التي تناولناها تجمعت الصورة المركبة من عناصر عديدة كاللغة والأسطورة والتكرار والمواقف الدرامية والشخصيات الأسطورية المقتبسة من الماضي لتؤدي بنا في النهاية إلى الصورة النهائية ، صورة انتصار المدينة المحاصرة (دمشق).

---

[٢] مصطفى سويف ، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ ، ص ١٩٢.

[١] محمد حسن عبد الله ، الصورة والبناء الشعري ، ص ٨٩.

[٢] نظمي بركة ، الاتجاه الرومانسي في الشعر الفلسطيني المعاصر ، ص ٢٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ – الإيقاع الخارجي

أولا: الوزن

أ – الشعر التقليدي

ب – شعر التفعيلة

ج – السطر الشعري

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المجموعات الشعرية ليوسف الخطيب

المجموعة الشعرية	العيون الظماء للنور	عائدون	واحة الجحيم	رأيت الله في غزة	بالشام أهلي والهوى بغداد	المجموع
عدد القصائد	١٤	١٥	١٧	١٠	٨	٦٤
عددمرات التفعيلة	–	–	–	–	–	–
الرجز	–	٤	٤	–	٢	١٠
الرمل	٢	١	١	١	١	٦
الكامل	١	٢	٣	١	–	٧
الوافر	–	٢	١	٤	–	٧
الخفيف	٨	٣	–	١	–	١٢
البسيط	–	–	٥	٢	٢	١٠
السريع	١	١	١	–	–	٣
المتدارك	١	–	–	–	١	٢
المتقارب	١	١	–	١	٢	٥
الطويل	–	–	٢	–	–	٢
المنسرح	–	١	–	–	–	١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا : الشعر العمودي

تأثر يوسف الخطيب بالأوزان الخليلية التي تدربت أذنه عليها، فقد اشتملت مجموعته الشعرية الأولى (العيون الظماء للنور) على أربع عشرة قصيدة منظومة كلها على البحور العربية التقليدية . وفي ديوانه الثاني (عائدون) الذي اشتمل على خمس عشرة قصيدة واحدة منها فقط نظمت على الشعر الحر.

أما ديوانه (واحة الجحيم) الذي أظهر فيه تطورا بارزا في الموسيقى الشعرية فقد اشتمل على سبع عشرة قصيدة سبع منها نظمت على الوزن الخليلي وهي على التوالي : الطريق إلى يافا"، "من بحر يافا النسيم " ، " أجراس مندلبوم " ، " في المضمة" ، "ولو رضيت خلاء النفس" ، "مطالع جزائرية "، " سيأتي الذي بعدي ".

أما في ديوانه" بالشام أهلي والهوى بغداد " المكون من ثماني قصائد فاننا نعثر على قصيدتين منظومتين على الوزن الخليلي وهما : (ما شعله البعث) و (هذي الملايين) بتفعيلاته المنتظمة.

وفي ديوانه (رأيت الله في غزة) نعثر على عشرة قصائد ثلاث منها فقط منظومة على الوزن الخليلي وهي (المعلقة الفلسطينية) و (عناقا لك الصبح) و (الطريق إلى محمد) .

إذن فقد كان الشاعر ينظم في كل المراحل الشعرية المختلفة على الوزن الخليل مما يدل على تفضيله ذلك النوع من الوزن ، وإن كان قد نوع في بعض الأحيان باستخدامه للسطر الشعري واعتماده على التفعيلة كما هو في ديوانه (واحة الجحيم) . إلا أن الحقيقة البارزة هي أن يوسف الخطيب يظل من أقدر الشعراء في التنويع الشعري في كل المراحل وبمهارة بارزة كما سيتضح .

وهذه المعاني الفنية التي تطرق لها، كانت تتناسب مع طبيعة هذا البحر (الذي هو أصلح للعنف منه للرفق)[١] ، مما يدل على التفات الشاعر إلى ما قيل عن مناسبة المتقارب للمعاني الفخمة القوية :

[١] موسيقى الشعر العربي ، د. صابر عبد الدايم ١٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عناقا لك الصبح رغم الظلام ويأأ ملاً غا ئراً في الألم

ا ا ه ا / ا ا ه ا ه / ا ا ه ا ه / ا ا ه ا ا ا ه ا / ا ا ه ا ه / ا ا ه ا ه / ا ا ه

فعولن فعولن فعولن فعول فعول فعولن فعولن فعو

(قبض) (حذف)

عناقا لك النا ر، تحت الرماد ويا ثو رة في بطون الخيم

ا ا ه ا / ا ا ه ا م / ا ا ه ا ه / ا ا ه ا ا ا ه ا / ا ا ه ا ه / ا ا ه ا ه / ا ا ه

فعولن / فعولن / فعولن / فعول فعولن / فعولن / فعولن / فعو

(قبض) (حذف)

بلى قد نشرت قلوع النجوم على هائج الليل آن آدلهم

ا ا ه ا / ا ا ه ا / ا ا ه ا م / ا ا ه ا ا ا ه ا / ا ا ه ا ه / ا ا ه ا ه / ا ا ه

فعولن فعول فعولن فعول فعولن فعول فعولن فعو

(قبض) (حذف)

دع الريح تعصف بنا ما تشاء فان لها جنبات الخضم

ا ا ه ا / ا ا ه ا ه / ا ا ه ا ه / ا ا ه ا ا ا ه ا / ا ا ه ا ه / ا ا ه ا ه / ا ا ه

فعولن فعولن فعولن فعول فعول فعولن فعولن فعو

(قبض) (حذف)

هنا أمة من لبان الزمان غذت لحمها من ثدي الألم[1]

ا ا ه ا / ا ا ه ا ه / ا ا ه ا ه / ا ا ه ا ا ا ه ا / ا ا ه ا ه / ا ا ه ا ه / ا ا ه

فعولن فعولن فعولن فعول فعولن فعولن فعولن فعو

(حذف)

يظهر التقطيع السابق وجود علة (الحذف) التي تلزم سائر أعاريض الأبيات وهذا جائزا في القواعد الخليلية .

أما في قصائده التي يحن فيها لوطنه بربوعه وتلاله وينظم الشاعر تلك القصائد على بحر " البسيط" إذ أن طبيعة هذا البحر الايقاعية (تتفق مع الشجن والتذكر والحنين)[2].

---

[1] رأيت الله في غزة ، ص٧١.

[2] عبده بدوي ، دراسات في النص الشعري ، ص٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا ما يفسر كثرة شيوع استعمال هذا البحر عند يوسف الخطيب حيث ارتفعت أسهم هذا البحر في ديوانه الثالث " واحة الجحيم " إذ كان الشاعر في ذلك الوقت لا يزال في منفاه في هولندا ..حيث نظمت قصائد مثل " جنون في ضوء القمر " و "من بحر يافا النسيم" و " قل لنا شعرا" . وهي كلها قصائد تتناول الحنين للوطن حيث يقول يوسف الخطيب :

وزائر لي من يافا ، بباقيتي أضمه بر موش العين ألفاه
ا ا ا ا ه / ا ا ا ه / ا ه ا ه ا ا ه / ا ا ا ه ا ا ا ا ه / ا ا ا ه / ا ه ا ه ا ا ه / ا ه ا ه
متفعلن فاعل مستفعلن فعلن متفعلن فعلن مستفعلن فاعل

(قطع)

يضيء ناقدتي يدري السبيل إلى قلبي..أوسده قلبي وأرضاه
ا ا ا ا ه / ا ا ا ه / ا ه ا ه ا ا ه / ا ا ا ه ا ه ا ه ا ا ه / ا ا ا ه / ا ه ا ه ا ا ه / ا ه ا ه
متفعلن فعلن مستفعلن فعلن مستفعلن فعلن مستفعلن فاعل

وكيف أهل لنا في الدار أعينهم مشدودة خلف وعد الصبح ترعاه
ا ا ا ا ه / ا ه ا ا ه / ا ه ا ه ا ا ه / ا ا ا ه ا ه ا ه ا ا ه / ا ه ا ا ه / ا ه ا ه ا ا ه / ا ه ا ه
متفعلن فاعلن مستفعلن فعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعل

نسيم يافا أمل رأسي إلى سنة أحياك في حلم بستان وأحياه
ا ا ا ا ه / ا ه ا ا ه / ا ه ا ه ا ا ه / ا ا ا ه ا ه ا ه ا ا ه / ا ا ا ه / ا ه ا ه ا ا ه / ا ه ا ه
متفعلن فاعلن مستفعلن فعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعل

(خبن)

وحين يتحدث الشاعر عن الثأر يستخدم بحره " البسيط " وهو معروف بأنه (يسرع على اللسان ، وقيل أنه سمي بذلك لأن كثرة الأسباب فيه تمكن من سرعة النطق به)[١].

[١] عبده بدوي ، دراسات في النص الشعري ، ص ٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمعروف أن نغمة الإنشاد (تتغير تبعا للحالة النفسية ، فهي عند الفرح والسرور سريعة متلهفة مرتفعة وهي في اليأس والحزن بطيئة حاسمة)[١] .

ولعل هذا ما جعل الشاعر يختار البحر المناسب لعاطفته المتأججة الثائرة والتي تتطلب إيقاعا سريعا يتناسب مع إحساسه . حيث يقول :

أما ترانا في الدجى نغتلي وموعد الثأر ينادينا
ا ا ه ا ا / ا ه ا ه ا ا ه / ا ه ا ا ا ا ه ا ا / ا ه ا ا ا ه / ا ه ا ه
متفعلن مستفعلن فاعلن متفعلن مستعلن فاعل
(قطع)

إن كنت لا تعرف من أمتي فاسأل عن العرب الميامينا
ا ه ا ه ا ا / ا ه ا ا ا ه / ا ه ا ا ا ه ا ه ا ا / ا ه ا ه ا ا ه / ا ه ا ه
مستفعلن مستعلن فاعلن مستفعلن مستفعلن فاعل
(قطع)

تكاد من سورة آلامنا نتخذ الحقد لنا دينا
ا ا ه ا ا / ا ه ا ا ا ه / ا ه ا ا ا ه ا ا ا ه / ا ه ا ا ا ه / ا ه ا ه
متفعلن مستعلن فاعلن مستعلن مستعلن فاعل
(خبن) (طي) (قطع)

سنلتقي يوما على موعد للثأر في يافا وفي الكرمل
ا ا ه ا ا / ا ه ا ه ا ا ه / ا ه ا ا ا ه ا ه ا ا ه / ا ه ا ه ا ا ه / ا ه ا ه
متفعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن مستفعلن فاعل
(قطع)

يقول إبراهيم أنيس (إن نبضات القلب تزيد كثيرا في الانفعالات النفسية التي قد يتعرض لها الشاعر في أثناء نظمه)[٢] .

وضمن هذا السياق فقد كانت الأبيات السابقة متفقة بوزنها مع انفعال الشاعر الهائج حيث كان الجرح لا يزال فائرا.

---

[١] إبرهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ط٥ ، ١٩٨١، ص ١٧٤.

[٢] المصدر السابق ، ص ١٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعل أروع النماذج الشعرية للنمط العمودي المتميز الأوزان هو قصيدة (مطالع جزائرية) المكونة من ثلاثة وعشرين مقطعا تتخللها ستة أوزان مختلفة توزعت حسب المعاني التي كان يطرحها الشاعر وهذه الأوزان كانت : الرمل- الكامل – الرجــز- الطويل – الخفيف- البسيط.

يقول الشاعر في بعض المقاطع :

٤

وبدت لمبس ، فألف معتصم يتفحم الأوراس باللهب

ا ا ا ا ا ه / ا ا ا ا ا ه / ا ا ا ه ا ا ا ا ا ه / ا ا ا ا ا ه / ا ه ا ه ا ا ه / ا ا ا ه

متفاعلن متفاعلن متفا متفاعلن متفاعلن متفا

(حذذ)

وتصيح صوب القدس فاطمة فتخالها ليست من العرب

ا ا ا ا ا ه / ا ه ا ه ا ا ه / ا ا ا ه ا ا ا ا ا ه / ا ه ا ه ا ا ه / ا ا ا ه

متفاعلن متفاعلن متفا متفاعلن متفاعلن متفا

(حذذ)

٥

ربابتي نوح صعلوك وآلهتي تمر وعند طلول الجن أحلامي

ا ا ا ا ا ه / ا ه ا ا ه / ا ه ا ه ا ا ه / ا ا ا ه ا ه ا ا ا ا ا ه / ا ه ا ه ا ا ه / ا ا ا ه

متفعلن فاعلن مستفعلن فعلن مستفعلن فعلن مستفعلن فاعل

(قطع)

أباح شعبي أنو شروان وانحسرت موائد الروم عن قطعان أيتام

ا ا ا ا ا ه / ا ه ا ا ه / ا ه ا ه ا ا ه / ا ا ا ه ا ا ا ا ا ه / ا ا ا ه / ا ه ا ه ا ا ه / ا ه ا ه

متفعلن فاعلن مستفعلن فعلن متفعلن فاعلن مستفعلن فاعل

٦

أنت لم تفقد أخا في الحرب لم تنظر إلى طفلك يقتل

ا ه ا ا ه ا ه / ا ه ا ا ه ا ه / ا ه ا ا ه ا ه / ا ا ا ه ا ه

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فا علاتن فعلاتن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خشب يدي وتحشبت رئتي فأنا لديك اللعبة الخشب

/ه١١١ه١١١ه١١١ه١١١/ /ه١١١ه١١١ه١١١ه١١١/

متفاعلن متفاعلن متفا متفاعلن متفاعلن متْفا

أوفياءٌ نحن في المشرق ضحينا من الأكباد بالذبح السخي

/ه١ا١ه١ا١ه١ا١ه١ا/ /ه١ا١ه١ا١ه١ا١ه١ا/

فاعلاتن فاعلاتن فعلات فا علاتن فاعلاتن فاعلا

وتأثرنا خطى أعناقنا الحدباء نستنجبئ في حجر الولي

/ه١ا١ه١ا١ه١ا١ه١ا١ه١ا/ /ه١ا١ه١ا١ه١ا١ه١ا/

فعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاع لاتن فعلاتن فاعلن

في القصيدة المقطعية السابقة ينتقل الشاعر بنا من وزن إلى آخر ، والملاحظ في تلك القصيدة أن الرجز قد احتل أكبر نسبة في المقاطع حيث بلغ عددها ستة وذلك لما في هذا البحر من خفة وسهولة حيث أطلق عليه العروضيون بأنه مطية الشعراء .

وعلى اية حال فقد احتل ذلك البحر أهمية عند الشاعر في ديوانيه الثاني والثالث (عائدون) ، (واحة الجحيم) .

بعد أن احتل الخفيف مركز الصدارة في ديوانه الأول (العيون الظماء للنور) حيث بلغ عدد القصائد المنظومة على البحر الخفيف ثمانية من مجموع أربع عشرة قصيدة ولعل هذا ناجم عن موسيقاه التي تتصف بالخفة والسهولة فهو (ساطع النغم ...بارز الموسيقى ...وله جزالة ورشاقة)[1] وهو ما يفسر اهتمام الشاعر به في مجموعته الأولى والتي كان يتناول فيها قضايا تتطلبه الانفعالات الثائرة والأحاسيس الغائرة.

وهكذا فقد اعتمد يوسف الخطيب على الأوزان الخليلية بمختلف أنواعها . ولعل شغف الشاعر بالأوزان الخليلية وبحور الشعر العربي جعله لا يتوقف عن كتابة ذلك النوع من الشعر العمودي حتى في أشد النماذج الشعرية جرأة لديه مثل (واحة الجحيم) الذي يتكون من سبع عشرة قصيدة نظم سبعا منها على الوزن العمودي .

[1] صابر عبد الدايم ، موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور ، ص١١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شعر التفعيلة

إن التفعيلة هي الوحدة الصوتية النغمية في الشكل الايقاعي للنص الشعري لـــدى يوسف الخطيب ، وقد حافظ في مجموعاته الشعرية عموما على استخدام تفعيلة البحر الصافي..وتتضمن مجموعته الشعرية الثانية على قصيدة واحدة منظومة علـــى شـــعر التفعيلة وهي قصيدة" أغنية انتصار لطروادة" المنظومة على تفعيلة الرجز التي أشـــار إليها الشاعر في معرض حديثه عن تجربته الشعرية.

والواقع أن هذه المحاولة في كتابة الشعر الحر جاءت متأخرة نســـبيا فـــي شـــعر يوسف الخطيب ، حيث كتبت عام ١٩٥٧ ، ويعلل الشاعر هذا التأخير قائلا: " لم أشأ أن أمثل بين يدي قارئي بمثل هذه القصيدة الحرة إلا بعد أن تيقنت من مقدرتي التامـــة على إغنائها " بعوضها الفني" الضروري ..الذي يمثل هنا لا في مجـــرد تهـــذيب أو ترتيب تفعيلات أسطرها النهائية..وإنما باشباعها بالقدر نفسه بمضمونها الشعري فوق العادي الذي يستطيع الشاعر أن يشيع ما بين سطورها إيقاعه الملحمي الخاص "[١].

والواقع أن يوسف الخطيب بدا متهيبا من خوض تلك التجربة نظرا لأن هذا النوع من القصائد يتطلب قدرا هائلا من التعويضات الفنية ودقة الصنعة اللغوية التي قد تؤثر سلبا على شحنة الشعور وتدفع بالشاعر إلى الاهتمام بالشكل على حساب المضمون.

وقد نظم الشاعر تلك القصيدة في وقت كانت الحشود الأجنبية تحاصر دمشـــق . وقد شبه دمشق في تلك الأبيات بطروادة تلك المدينة الشامخة التي تصـــدت للجيـــوش الإغريقية الغازية وانتصرت عليها.

كأن قبل اليوم لم يغم على مدينة مساء — عدد التفعيلات

ا ا ا ا ه / ا ه ا ا ا ه / ا ا ا ا ه / ا ا ا ا ه / ا ا ه

متفعلن مستفعلن متفعلن متفعلن ← زيادة سبب ثقيل /٤/

زحاف (خبن)

النهر ضاع من لها ته النشيد

ا ه ا ا ا ه / ا ا ا ا و / ا ا ا ا ه

←

[١] يوسف الخطيب ، مجموعة قصائد مستقلة ، ص ٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مستفعلن متفعلن متفعلان /٣/

(خبن) (تذييل)

لا شاعرٌ هناك يسأل الضفاف مقطعي غناء

اهاهاه اهاهاه اهاهاه اهاهاه اهه

مستفعلن متفعلن متفعلن متفعلن زيادة سبب ثقيل /٤/

(خبن) (خبن) (خبن)

زحاف

كانت تمد عنقها شجية الدعاء

اهاهاه اهاهاه اهاهاه اهه زيادة سبب ثقيل /٣/

مستفعلن متفعلن متفعلن

(خبن) (خبن)

مآذن الشآم

اهاهاه اهه زيادة سبب ثقيل /١/

متفعلن

(خبن)

كأذرع نحيلة تلوح في الغمام

اهاهاه اهاهاه اهاهاه اهه زيادة سبب ثقيل /٣/

متفعلن متفعلن متفعلن

زحاف (خبن)

فلا البروج لا القلاع ..لا الحصون

اهاهاه اهاهاه اهاهاهه /٣/

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

متفعلن متفعلن متفعلان

زحاف (خبن) (تذييل)

يتكون المقطع الشعري السابق من ثمانية أسطر شعرية تتفاوت طولا وقصرا حيث لا يخضع السطر الشعري إلى نسق طولي ثابت من حيث عدد التفعيلات . كما أن الشاعر قد استخدم كل ما يلحق بالتفعيلة من علل وزحافات تؤكد حرية يوسف الخطيب في توظيف التفعيلة وفقا للدفقة الشعورية التي تنتابه .

ويبدأ الايقاع هادئا في السطر الأول حيث يلحظ المتلقي أن الشاعر يستخدم الجمل الخبرية التي حملت إيقاعا هادئا يكشف عن نبرة استسلامية حزينة بسبب سوء أحوال المدينة المحاصرة بالأعداء .

وحيث يصف الشاعر تلك المدينة نلحظ حروف المد التي توحي ببطء الإيقاع مثل الجمل (تمد عنقها شجية الدعاء ..مآذن الشآم ...) بالإضافة إلى تسكينه لحروف الروي للإيحاء بالسكون والهدوء المخيم على تلك المدينة وهو هدوء ما قبل العاصفة كما نلحظ حرف الهاء بالآهات والأنين ..مثل قوله (والنهر ضاع من لهاته النشيد ..كانت تمد عنقها ..)

وحيث يبدأ الشاعر وصف ذلك التصدي للهجوم والمقاومة باستبسال وشجاعة يتزايد عدد التفعيلات لتسارع الإيقاع :

عدد التفعيلات

لكن في اللهيب في الدخان في الدمار

ا ه ا ا ه ا ا ه ا ا ه ا ا ه ا ا ه ه

مستفعلن متفعلن متفعلن ← زيادة سبب ثقيل /٣/

مثل بنوءة الربيع في طلائع السحاب

ا ه ا ا ا ه ا ا ه ا ا ه ا ا ه ا ا ه ه

مستعلن متفعلن متفعلن متفعلان /٤/

(طي) (خبن) (خبن) (تذييل)

كان مخاض أمه

ا ه ا ا ا ه ا ا ه /٢/

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مستعلن متفعلن

(طي)

تطهرت على محا رق العذاب

١١٥١١ه ١١٥١١ه ١١٥١١ه ه /٣/

متفعلن متفعلن متفعلان

زحاف (خبن) (تذييل)

اللاجئون راجعون في مسا لك العذاب

١٥١١٥ه ١١٥١١ه ١١٥١١ه ١١٥١١ه ه /٤/

مستفعلن متفعلن متفعلن متفعلان

(خبن) (تذييل)

أجراس أنطاكية تدق عودة الغياب

١٥١١٥ه ١٥١١٥ه ١١٥١١ه ١١٥١١ه ه /٤/

مستفعلن مستفعلن متفعلن متفعلان

(قطع) (خبن) (تذييل)

وهران تشرب النبيذ حرة

١٥١١٥ه ١١٥١١ه ١١٥١١ه /٣/

مستفعلن متفعلن متفعلن

زحاف (خبن)

بركان ثورة ..ضمير أمة ..قد انفجر /٤/

١٥١١٥ه ١١٥١١ه ١١٥١١ه ١١٥١١ه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مستفعلن متفعلن متفعلن متفعلن

كأن قبل اليوم ما أحست الضلوع /٣/

١١٥١١ه / ١٥١١٥ه / ١١٥١١ه / ١١ ه ← زيادة سبب ثقيل

متفعلن مستفعلن متفعلن

يظهر لنا في المقطع السابق تسارع الإيقاع حيث يحمي الوطيس وتشتد المعركة حيث كان مخاض أمة وبركان ثورة يتفجر ، فنلاحظ تزايد عدد التفعيلات خاصة في الأسطر الشعرية التي تتناول الحديث عن وصف المعركة والثوار .

ثم يعود الإيقاع إلى التباطؤ من جديد:

عدد التفعيلات

كان الصباح ملعبا / أرجاؤه الفساح

١٥١١٥ه / ١١٥١١ه / ١٥١١٥ه / ١١ ه

مستفعلن متفعلن مستفعلن زيادة سبب ثقيل /٣/

(خبن)

شذى انتصار

١١٥١١ه ه

متفعلان ← تذييل /١/

(زحاف خبن)

والغوطة الخضراء كانت طوق غار

١٥١١٥ه / ١٥١١٥ه / ١٥١١٥ه ه

مستفعلن مستفعلن مستفعلان (تذييل)

على جبين الشامِ

١١٥١١ه ١٥١٥ /١/

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

/

متفعلن مستفع

(خبن)

والرياح كا نت الرياح

ا ه / ا ا ه ا ا ه / ا ا ه ا ا ه /٢/

لن متفعلن متفعلان

(خبن) (تذييل)

تذرو رما د هيكل الحصان

ا ه ا ا ه ا / ا ا ه ا ا / ا ا ه /٢/

مستفعلن متفعلن

(خبن)

في المقطع السابق عادت المدينة إلى هدوئها وبهجتها . فالصباح كان (شذى انتصار ..والغوطة الخضراء طوق غار ..) لقد عاد الإيقاع إلى الهدوء من جديد .لكنه هذه المرة هدوء ما بعد العاصفة ، إنه هدوء مبهج مفرح مما جعلنا نلحظ قلة عدد التفعيلات في بعض السطور الشعرية يصل إلى الواحد وذلك للشعور العام بالارتياح إذا انزاح ذلك الألم الذي كان يخيم على أجواء المدينة،وقد لجأ الشاعر إلى التدوير العروضي في السطرين الرابع والخامس حيث اختلت الوقفة العروضية ، وهذا يدل على قدرة الشاعر على تجاوز حدة القيد العروضي.

ولم تنحصر دلالة الإيقاع في الموسيقى وإنما أخذ الايقاع يمتد إلى الحروف فأصبحنا نلحظ سيطرة حروف مثل لحاء والشين بما في ذلك حروف الروي وذلك لما توحي به هذه الحروف من الشعور بالفرح والابتهاج والنشوة كما في قوله (والرياح كانت الرياح)و (الصباح – الفساح – صباح) و (شذى) كما قلت حروف المد التي توحي بالانفعال والألم والتي كنا نراها في المقطع الأول أثناء وصف الحصار .

وهكذا أظهر الشاعر براعة وفنا بارزين في استخدامه للإيقاع المناسب للحالة الشعورية المسيطرة .

وقد وصف الشاعر صلاح عبد الصبور هذه القصيدة قائلا :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(إنها قصيدة من أطيب الشعر وخلت من هذا الذي يعاب على الشعر الحديث)[١] ليدلل هذا الشاعر الكبير على مهارة يوسف الخطيب وإبداعه الفني من خلال اقتحامه عالم الشعر الحر وإن كانت تلك المحاولة المبكرة هي المحاولة اليتيمة – على حد قول الشاعر نفسه – الذي بدا متحفظا في تكرار تلك المحاولة ليستعيض عنها بالسطر الشعري والتدوير العروضي كما سنرى .

ثانيا : السطر الشعري

تقوم القصيدة الشعرية القديمة على توالي الأبيات المستقلة موسيقيا حيث يشكل كل بيت وحدة موسيقية قائمة بذاتها ، ويشتمل البيت على شطرين متماثلين موسيقيا. وقد أولى الناقد القديم البيت الشعري جل اهتمامه فكان من الشعراء من ذاع صيته من خلال بيت شعري واحد مما يدل على أن الشاعر والمتلقي ينظران إلى بيت الشعر كوحدة مستقلة عن القصيدة.

ومع تقدم العصر وقف الشاعر العربي المعاصر وقفة جديدة محاولا أن يحقق طفرات فنية على المستوى الموسيقي وذلك وفق ما تتطلبه المرحلة الجديدة.

كما تمكن الشاعر المعاصر أيضا من التخلص من القيود العروضية ، فقد أخرج قصيدته من هندسة التوازي بين الشطرين محطما بذلك الوحدة الموسيقية للبيت الشعري وفي الوقت نفسه لم يلتزم هندسة جديدة قد تصبح في العصر التالي قيدا جديدا، بل اعتمد على التجدد وعدم الثبات وأصبح الانسجام الحاصل بين رؤية الشاعر وإحساسه في لحظة الكشف والإبداع هو الذي يحدد طول السطر الشعري الجديد أو قصره ، وذلك وفق ما تمليه عليه حركته النفسية.

(فالسطر الشعري هو الجملة الموسيقية التي ينبع منها النغم أو الدفقة وتتألف كل دفقة أو جملة من عدد من التفعيلات التي تقل وتكثر ، وتطول وتقصر ، وفق وظيفتها أو دورها في العمل ، ووفق ارتباطها بالحالة الانفعالية للفنان أيضا)[٢].

ولقد بنى الشاعر يوسف الخطيب سطره الشعري على أساس التفعيلة التي يتعامل معها بحرية تامة، ويختار العدد الذي ينسجم مع تدفقاته النفسية في نوع من التوافق مع الموروث الموسيقي من ناحية ، ومع الانطلاق إلى آفاق جديدة تعتمد على الادهاش وعدم التوقع من ناحية أخرى .

---

[١] مجلة الآداب البيروتية ، العدد الثاني ، فبراير ، ١٩٥٨، ص ٨٤.

[٢] نعيم اليافي ، أوهاج الحداثة ، دراسة في القصيدة العربية الحديثة ، ١٩٩٣، ص ٢٥، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتبتدى جمالية الايقاع في النص الشعري المعاصر من خلال القصيدة ككل ، ومن هنا لم يعد الشاعر المعاصر يهتم بالبيت الشعري (وإذا كان هم الشاعرالتقليدي أن يجود بناء البيت الشعري فقد صار هم الشاعر الحديث أن يتقن بناء القصيدة من حيث هي ككل) [١].

وبذلك لا يمكن للمتلقي الاكتفاء بقراءة سطر شعري واحد حتى لو اكتمل المعنى بل لا بد من قراءة النص الشعري بشكل كلي لأن موسيقية القصيدة تكمن في هيكلها العام وليس السطر الشعري سوى جزء منها.

وقد حافظ السطر الشعري لدى يوسف الخطيب على الوقفة الدلالية حيث ينتهي المعنى الجزئي للسطر بانتهائه ، ولعل وجود الرابط العقلي المنطقي الواعي بين الأسطر هو الذي يعطي المعنى العام للنص الشعري .

يقول يوسف الخطيب في قصيدة بعنوان : (جنون في ضوء القمر) :

أهلوك يا دارتا أهل الرياح ،
١ه١١ه١ه١ / ١ه١١ه١ / ١ه١١ه١ه١
مستفعلن فاعلن مستفعلن ف
لهم في النور أشرعة ،
علن / مستفعلن / فعلن
في الرعد أجنحة
مستفعلن / فعلن
جن الرياح همو،
مستفعلن / فعلن
سكانها ....
مستفعلن
أ إذا رق النسيم بأذيال الخيام
فعلن / مستفعلن / فعلن / مستفعلن / ف
فمن يدري السبيل لأذيال الخيام

[١] عز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر ، ص٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علن مستفعلن فعلن مستفعلن ف

وهل إلا الصبا الكرملي

علن / مستفعلن / فاعلن م

الزائر الفرح

تفعلن / فعلن

يتكون المقطع الشعري السابق من تسعة أسطر شعرية تتفاوت طولا وقصرا من حيث عدد التفعيلات وهي مبنية على البسيط بثنائيه (مستفعلن – فاعلن) ويلاحظ المتلقي الحرية الواضحة للشاعر في استخدام التفعيلة وفقا للدفقة الشعورية التي يسح بها.

وقد استخدم الشاعر الزحافات الممكنة في هذا البحر حيث يظهر استخدامه للخبن من تفعيلة فاعلن لتصبح فعلن كما أنه استخدم التدوير العروضي إذ قام بتقطيع الجملة الشعرية الطويلة موزعا إياها على الأسطر السابقة .

ويشعر القارئ بوجود كلمات اخرى تبتدى من خلالها النقاط (...) وتوحي بتوقف الكلمات في حلق الشاعر .

وفي قصيدة (رأيت الله في غزة) يستخدم الشاعر تفعيلة (الوافر) "مفاعلتن" منوعا في عدد التفاعيل حسب الحالة الشعورية المسيطرة ليكون جملا شعرية منفصلة عن بعضها حتى لتغدو كل جملة قائمة بذاتها :

حليبك في دم الشهداء ساقية

مفاعلتن / مفاعلتن / مفاعلتن

تهيم على جهات الأرض

مفاعلتن مفاعلتن / م

ثم تصب في بحرك

فاعلتن / مفاعلتن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يظهر السطر الأول مكتمل المعنى ، بيد أنه يحتاج إلى رابط تفسيري فيأتي السطر الثاني ليفسر حقيقة المعنى ، ويلحظ المتلقي أن السطور التالية تؤدي دور الشرح والتوضيح . ومن هنا اعتمد الشاعر في بناء مقطعه الشعري على الأسطر المترابطة ضمن وحدة منطقية .

ويعود في المقطع الثاني ليبدأ بالكلمة ذاتها التي بدأ فيها مقطعه الأول :

حليبك خمر دالية
مفاعلتن / مفاعلتن

يعب كؤوسها الندمان
مفاعلتن / مفاعلتن / مُ

ثم يكون من دمهم
فاعلتن / مفاعلتن

طلى ثغرك
مفاعلتن

وهكذا ينتهي المقطع الشعري الثاني بحيث نحس بترابط الأسطر الشعرية ليفسر كل سطر ما سبقه ، وها هو يبدأ مقطعه الشعري الثالث بكلمة (حليبك) للمرة الثالثة إذ يوحي ذلك التكرار بأن هذه الكلمة نقطة ارتكاز نغمي:

حليبك غيمةٌ بيضاء
مفاعلتن / مفاعلتن / مُ

تشرب منك لون الجرح
فاعلتن / مفاعلتن / مُ

ثم تغوص في صدرك
فاعلتن / مفاعلتن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويستخدم الشاعر التدوير العروضي في الجملة الشعرية السابقة حيث أن آخر حرف يتصل مع ما يليه من السطر التالي ،وهذا يتيح الفرصة أمام المتلقي لالتقاط النفس نظرا لطول الجملة الشعرية .

ويستمر التدوير العروضي إلى أن يصل الشاعر إلى التفعيلة الأخيرة في الجملة حيث تكتب التفعيلة الأخيرة كاملة مما ينبئ نهاية الجملة الشعرية وكأن كل جملة شعرية مستقلة بذاتها ، وإن كانت ترتبط بما بعدها برابط شعوري موحد يشدها لما بعدها.

ولو ذهبنا نتتبع النماذج الشعرية لوجدنا أنها كثيرة وخصوصا في ديوان " واحة الجحيم " ولكن منعا للرتابة والتكرار فاننا سنكتفي بإيراد قصيدة واحدة من الديوان المذكور وهي بعنوان " لو ميتا يا وطني ألقاك":-

١-لو ميتاً يا وطني ألقاك ..لو أمشي
مستفعل / مستعلن / مستفعلن / مستعف

٢- لك الدنيا على رمشين ..لو
علن / مستفعلن / مستفعلن

٣ – آتيك في خاطرة ..لو هاجسا
مستفعلن / مستعلن / مستفعلن

٤ – أعبر في بال الربى ..لو
مستعلن / مستفعلن / مس

٥ – حفنة من الثرى هائمة على
تفعلن / متفعلن / مستعلن / متفـ

٦ – جنون الريح عمرها ، وتنتهي
علن / مستفعلن / متفعلن / متفـ

٧ – إلى ثراك لا أناشد الوجود
علن / متفعلن / متفعلن / متفع

٨ –غير ذاك
لن / متفع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٩ – أن أشيع فيك
لن / متفعلن/ م
١٠– أن أراك
تفعلان تذييل [١]

وبتأثير التدوير نحس أن هذا المقطع قطعة موسيقية متشابكة يصعب فصل بعضها عن بعض ، إذ استمرت القصيدة متدفقة بموسيقاها من بدايتها حتى النهاية ، وقد ساهمت الأداة (لو) في اضفاء جو من الإيقاع التتابعي الذي يسرع في القراءة دون انقطاع .

وقد بدا عدد التفعيلات يقل تدريجيا إلى أن وصل إلى تفعيلة واحدة كما هو في السطر الأخير وذلك لينسجم الإيقاع مع الدفقة الشعورية .

ونظرا لأن الشاعر استخدم التدوير العروضي فان آخر حرف يتصل مع ما يليه من السطر التالي كما هو في السطر الأول والرابع والخامس والسادس والسابع وهذا يتيح فرصة أمام المتلقي لالتقاط النفس نظرا لطول الجملة الشعرية .

ومن ناحية أخرى نجد أن عدد التفعيلات كان ينسجم مع إحساس الشاعر العميق بالحنين والشوق حيث نشعر بطول أنفاس ذلك الشاعر اللاهث وراء وطنه .

وقد سيطرت حروف المد في المقطع السابق لتوحي بانفعال الشاعر وألمه وتضفي على النص إيقاعا بطيئا هادئا.

[١] يوسف الخطيب ، مجموعة قصائد مستقلة ، ص ٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : ظواهر إيقاعية :

أ – مزج البحور

ب– التدوير

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ظواهر إيقاعية

١– مزج البحور :

وفيها تتنوع الأوزان تبعا للمقاطع الشعرية التي تؤلف بمجموعها القصيدة الكاملة. فينتقل الشاعر بينهما على التوالي أو التناوب وما تقتضيه الرؤيا الخاصة .

يقول يوسف الخطيب :

ففي قصيدة بعنوان (نشيد الثورة) ابتكر يوسف الخطيب نمطا جديدا من الأوزان حيث مزج بين تفعيلتي الهزج(مفاعلين) والرجز (مستفعلن) في منطقة القافية والروي حيث يقول في المقطع الأول :

باسم التراث ، ثائرون ، باسم الشعب	مستفعلن /متفعلن /مفاعيلنّ
باسم الغد النبيل ، فليمر الرعب	مستفعلن/متفعلن/مفاعيلنّ
جناهنا على المدى	متفعلن/متفعلن
يلفحها هجير الشمس	مستعلن/مفاعيلن
مشرعة على الردى	مستعلن/مستعلن
تضرب في جبين اليأس	مستعلن/مفاعيلنّ
إزميلها المقدود من ذراع الشعب	مستفعلن/مستفعلن/مفاعيلنّ
إنا ندق بوق البعث	مستفعلن/مفاعيلنّ
ندني إلى الجذور الحرث	مستفعلن/مفاعيلنّ
أيتها الحياة ، بالدم	مستعلن/متفعلن/١١ه زيادة سبب ثقيل
خطي على الثرى ، وأقسمي	مستفعلن/متفعلن/١١ه زيادة سبب ثقيل
أن لنا الخلود والصباح الرحب	مستفعلن/متفعلن/مفاعيلنّ

في الأبيات السابقة ابتكر الشاعر يوسف الخطيب إيقاعا خاصا شبيها بإيقاع الطبول ووقع الخطى الصارم وذلك باقحام (مفاعيلن) على سياق (مستفعلن) في منطقة القافية والروي مقتبسا بذلك ما تضمنته موسيقى العروض الإلهية في الآية الخامسة والخمسين من سورة الواقعة ..."فشاربون شرب الهيم" "مستفعلن مفاعيلن " ...وذلك – على حد قوله – لاشباع "مفاعيلن" بالامتلاء لتصبح "مفاعيلن" بتشديد النون الساكنة في قصيدته .

وقد أطلق الشاعر على هذا النوع من الإيقاع المبتكر " إيقاع الواقعة " نسبة إلى تلك السورة الكريمة وتيمنا بجرسها الموسيقي الصارم .

ثانيا: التدوير:

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعد التدوير من أبرز الملامح الايقاعية في شعر التفعيلة (وهو لون من الحرية يلتمسه الشاعر الذي كان مقيدا بأسلوب الشطرين) [١].

والتدوير كظاهرة موسيقية (ارتبط لدى أكثر من شاعر متمرس أو كبير باتجاه فني معين وبأسلوب تعبيري معين أيضا وتوشك هذه العلاقة بين ظاهرة التدوير والأداء القصصي أن تكون حقيقة لا يمكن التغافل عنها أبدا)[٢].

إذ إن لأسلوب السرد الذي يتصف بالتتابع والاسترسال دور مهم في خلق أداء موسيقي له صفة التتابع المستمر ، وواضح أن التدوير هو الظاهرة الموسيقية التي تتصف بمثل هذه الصفات وتحمل بتكوينها المتكرر متطلبات التلاحق الايقاعي الذي ينسجم مع الأحداث المتلاحقة ...

ومن هنا اعتمد الشاعر المعاصر في استخدام التفعيلات على حريته التامة في تطويل السطر الشعري أو تقصيره ، حسب الدفقات الشعورية التي يحس بها بحيث لا يتوقف إلا بعد انتهاء ذلك الفيض [وليست وحدة الشطر في الشعر الحر بما فيه التدوير، كما أن التدوير في الشعر الحر ، لا يتطلب بالضرورة شطر الكلمة إلى جزأين بحيث يكون جزء في نهاية الشطر الأول والجزء الآخر في بداية الشطر الثاني][٣] وخير مثال على هذا النوع من القصائد في شعر يوسف الخطيب هو قصيدة "دمشق والزمن الرديء" تلك القصيدة التي حازت على إعجاب معظم النقاد والأدباء .

إذ نظم يوسف الخطيب تلك القصيدة عقب كارثة الانفصال الوحدوي السوري المصري عام ١٩٦١م يقول الشاعر :

(كنت في الحقيقة وعلى الدوام قد أقمت عازلا صلبا كسور الصين العظيم ما بين جميع آلامي ومعاناتي الذاتية المريرة في دولة الوحدة ..وبين الوحدة في ذاتها كشرط موضوعي وحتمي لأي حضور عربي فعال في روح العصر ...لولا أن طامة كبرى في تاريخنا المعاصر – هي في تقديري الثانية بعد كارثة فلسطين – ستزلزل أركان وجودنا العربي ..عندما سقطت دولة الوحدة التي (لا يغلبها غلاب) ..من هنا أحسست بقريحتي تشتعل شعرا وتزدحم أفكارا ، وتتفجر صورا ، على شاكلة فريدة لم اعهدها من قبل !!فأي شعر سأكتب وأي إلهام سيحتوي أبعاد هذه الفاجعة؟..هل سأضع قصيدة عمودية عتيقة تهندس طوفان الشعور الذي يجتاحني عبر أقنية فاترة متوازية متناظرة ؟ أم ماذا ..لكن أهم ما استذكرته أخيرا هو ما قد أنجزته شخصيا في محاولة

---

[١] د. صابر عبد الدايم ، موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور ،ص٢٢٠.

[٢] محسن اطميش ، دير الملاك ، ص ٣٣١.

[٣] طراد الكبيس (التدوير في القصيدة العربية) ، مجلة أقلام ، ١٥٤ ، س ٣، ١٩٧٨،ص٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(الطوفان) في المرحلة الأولى الجامعية ، عندما قمت بتدوير تفعيلات (الكامل) الست على مستوى القصيدة كلها بدون أي توقف عند (الأعاريض) وباقتصار التوقف عند (الضروب) فقط !! وفجأة هنا وكما يتفجر النبع من قلب الصخر من ضربة إزميل واحدة وجدتني أتساءل بفرح اكتشاف أرخميدي ..ولماذا التوقف أيضا حتى عند (الضروب) !..فكان من ثم أن أقلعت بملحمتي السابقة)[١] .

وتعتبر تجربة التدوير في (دمشق والزمن الرديء) قفزة فنية بارزة في شعر يوسف الخطيب ، وقد نظمت هذه القصيدة عام ١٩٦١ مما يدلل على أن الشاعر من الرواد في مجال التدوير العروضي .

ففي هذه القصيدة ، استذكر الشاعر محاولاته السابقة ، في التدوير العروضي ، مع إجراء تعديل ،بحيث لا يتوقف هذه المرة عند الضروب أو الأعاريض لقد أقلع الشاعر في تلك القصيدة بجملة عروضية أولى مكونة من خمسين تفعيلة متصلة على – الكامل – ثم أردف تلك الجملة في بضعة أبيات مقيدة التدوير حسبما أسماها هو .

يقول شاعرنا في الجملة الأولى :

أيلول عا
متفاعلن / م

واقبل التاريخ ينفض في
تفاعلن / متفاعلن / متفا

جبين الشام نعليه ، وأنت تمص شريا
علن / متفاعلن / متفاعلن / متفاعلن / مت

ن القتيلة ، والرجال البله حولك يعقدون
فاعلن / متفاعلن / متفاعلن / متفاعلن

ن التاج والخياطة الغرباء يبتدعون وهم
متفاعلن / متفاعلن / متفاعلن / متفاعلن / م

م إزارك السور
تفاعلن / متفا

[١] يوسف الخطيب ، مجموعة قصائد مستقلة ،ص ٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ي فاهنأ يا مليك الشا
علن / متفاعلن / متفا

م قيصر يجتبيك على تخوم الشرق بوابا
علن / متفاعلن / متفاعلن / متفاعلن / متفا

أميرا في بني غسان ، يملأ راحتيك دمى
علن / متفاعلن / متفاعلن / متفاعلن / متفا

إذا آنتشتادما ....يلقاك في سروا
علن / متفاعلن / متفاعلن / متفا

لك القصبي ظاهر رومةٍ وتسوق قافلة الـــ
علن / متفاعلن / متفاعلن / متفاعلن / متفا

حريم إليه يتخم من حريم الشرق تتخم أن
علن / متفاعلن / متفاعلن / متفاعلن / متفا

ت من لثم الأصابع فاتخما من قبل أن
علن / متفاعلن / متفاعلن / متفاعلن

ينتبه الحراس واضطجعا أرائك لم
متفاعلن / متفاعلن / متفاعلن / متفا

تكن
علن

أيلول عاد ، وعاد عمال الخليفة باللذا ئذ
متفاعلن / متفاعلن / متفاعلن / متفاعلن / مت

والحريم
فاعلن

يتكون المقطع الشعري السابق من خمسين تفعيلة على " الكامل " . وقـد اشـتمل السطر الشعري الواحد على ما يقرب من الثلاث إلى الأربع تفعيلات – كحد أقصى –

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذلك حسب الدفقة الشعورية المسيطرة على الشاعر ، وكأن السطر الشعري في المقطع السابق لا يكتمل إلا من خلال القراءة الكلية للمقطع الشعري .

وذلك لأن السطر الشعري بشكل عام يعد جزءا من كل ، فلا يكتمل معناه إلا من خلال القراءة الكلية في إطار البناء العام للنص الشعري ، وتنسجم الأسطر الشعرية السابقة مع الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر ويبدو هذا الانسجام من خلال الترابط النفسي بين الأسطر الشعرية السابقة ، ومن هنا يؤدي كل سطر وظيفته من خلال التسلسل المنطقي القائم على ترابط الخواطر والشعور .

وقد لجأ الشاعر إلى التدوير العروضي في المقطع السابق إذ أن آخر حرف يتصل مع ما يليه من السطر التالي حتى انه اطلق على الجملة السابقة (بالجملة المطلقة التدوير)[١] .وهذا يعود بطبيعة الحال إلى طول الجمل الشعرية التي تعتمد على دفقات الشعور وتناميها.

وتجنبا للرتابة والملل في تلك المقاطع اعتمد الشاعر التقفية الداخلية ضمن المقطع الواحد وذلك لتخليصه من عبء الرتابة. وقد حاول أن يحرر الوحدة النغمية من حاجزين ؛ أولا: من إسار القافية التقليدية ، وثانيا: من نشاز البتر في القصيدة الحرة.

ويمزج الشاعر بين هذا النمط من الشعر الذي يعتمد على الجملة الشعرية وبين النمط التقليدي القائم على البيت بشطريه المتساويين مع نمط الشعر الحر الذي يعتمد التفعيلة الواحدة في بنائه ، إذ أنه وضع بعض المقاطع العمودية في سياقها حيث يتحدث عن ذاته في المقطع التالي فيقول:

ولو أنني لم أبل قيصر في الجليل ... وفي تلال القدس ، لم أخرج عليه
لبقيت في رعوية الظل الكبير ... وسقت ما شيتي ..ووجداني...إليه
لكنني أنا من بلوت القيصر البدوي، ... أدريه وأدرك ناجذيه
إني القتيل ، وتلك من جرحي اليواقيت ... اللعينة علقت في منخريه
منذا يشد اللحم فوق العظم (يا بعثا) ... نموت ، ولا نرد على يديه

أيلول عاد،
مدينة التجار يفتحها المغول ،

[١] يوسف الخطيب ، مجموعة قصائد مستقلة ، ص ٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعاد تيمورلنك ينتخب الجماجم ، ساحبا
رد فيه في الزرد الثقيل على طلول
أمية ...رباه ، مات الزرع
طلع الغوطتين
على مهب الريح رجع خياشيم الطاعون ،

وهكذا استخدم الشاعر في التعبير عن الواقع المرير وهو واقع الانفصال المقاطع الموصولة لكنه حين عبر عن صوته عبر عنه بالشكل ا لعمودي الموروث بكل ما فيه من نبرة وفخامة إيقاع وكأنما يريد أن يجعل نبرة صوته أعلى من كل النبرات . وقــد بدا في تلك الأبيات (كمن يقدم على ذبح أمه واعيا)[١]:-

وحليب ثديك يا دمشق ، لبيد أكتاف
الرجال ، فأين ، لانضبا...
من للطريق إذن ؟ وما وجه العروبة
إن يكن في وجهك اغتربا
إني بكيت – عداك – من وطني الشقي
حواضرا، منسية وربى
وبكيت أنطاكية..وأقمت عند
مدافن الأردن منتحبا
إني رثيت مدائني السبع العجاف،
رثيت فيها القش ، والخشبا
وعييت عندك في المصيبة،
كيف أرثي الشام ،
إن لم أدفن العربا[٢]

لقد بنى الشاعر قصيدته السابقة على محورين متوازيين :

الأول : تصوير الواقع العربي بعد الانفصال واستعمل له المقاطع الموصولة.

والثاني: أثر هذا الواقع في النفس واستعمل له المقاطع العمودية.

فالمقاطع الموصولة إنما هي موضوعية (إن جاز لنا التعبير) يكون فيها أيلــول رمزا للهزائم والعار وقيصر وتيمورلنك وعمال الخليفة..

---

[١] د. حسني محمود ، شعر المقاومة الفلسطينية في المنفى ، ص ١٦٥.

[٢] يوسف الخطيب ، ديوان واحة الجحيم ، ص ٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن هذا التقابل بين المقاطع الموصولة والعمودية وما يرافقها من تقابل بين الواقع والذات، بين الجماعي والفردي ، والتأثير المتبادل بينهما أعطى القصيدة بناء متسقا دون رتابة ، تتنوع فيه الايقاعات تبعا لتعدد الحالات .

وللتخفيف من التدوير ومن أجل زيادة الايقاع الحركي لجأ الشاعر إلى المزج بين التساؤل والحوار :

- أعرفت من أنا ؟
- لا !...
- أنا العربي من جبل الخليل ،

ضللت وافترقت دروبي ...

أنا من حملت على جهات الأرض فاجعة

التراب الخصب والزمن الجديب

وهكذا فقد ظل يوسف الخطيب يتنقل في القصيدة السابقة بين المقاطع الموصولة والعمودية إلى أن وصل بنا إلى نهاية مفتوحة توّجها باستفهام:

تُرى،

من يفلح التاريخ !!...

من يعطي التشارين الأجنة !!...

من يفي نيسان بالوعد الكبير ...

وفقد لفتت هذه القصيدة انتباه النقاد إذ علق غسان كنفاني على هذه القصيدة قائلا : (بوسع القارئ أن يلاحظ هذه القفزة التي حققها يوسف الخطيب دون كبير عناء ، فالقصيدة هذه مبنية على طراز لم يشهده الشعر العربي من قبل ..وفي رأيي أن دمشق والزمن الرديء ليست هامة في معانيها فحسب بل هي هامة لأنها نقطة فاصلة في معركة أدبية طاحنة ما زلنا نخوض فيها ..وهي قصيدة تهدى إلى دعاة قصيدة النثر لأنها أحسن دفاع عن الكلاسيكية وعظمتها وطاقتها العجيبة على التجدد والتجديد..)[١]

ويقول حسني محمود : (قد يكون يوسف الخطيب الشاعر العربي الأول الذي يجمع في هذه القصيدة بين الأنماط الفنية للشعر العربي ..ولربما تمكن بهذا الأسلوب من الفيض بكل ما في نفسه ووجدانه وعقله من صور وعواطف وأفكار سكبها بموسيقى نافذة أخاذة من إقامة التوازن بين نثرية الفكر ولدونة الصور وطراوة العواطف حتى ليكاد النموذج يظفر بدموع العزة في عيون الرجال النبلاء) [١].

---

[١] غسان كنفاني ، مجلة الحرية البيروتية ،أيلول ،١٩٦٢، مقالة بعنوان يوسف الخطيب والكلاسيكية .

[١] د. حسني محمود ، شعر المقاومة الفلسطينية في المنفى ، ج٣، ص١٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما خالد علي مصطفى فيقول : (إن يوسف الخطيب في أفضل نماذجه التي تضمنها ديوانه "واحة الجحيم" بغض النظر عن الشكل العروضي يفصح عن مقدرة في خوض أية تجربة شعرية جديدة بالمستوى نفسه الذي يكتب فيه القصيدة التقليدية ، ومن دون أن يخسر شيئا في كلتا الحالتين) [٢].

وأما الشاعر يوسف الخطيب فقد كان له تعليق حول هذه التجربة حيث قال : (لقد هدتني تجربة التدوير هذه إلى إمكانية التأليف الهارموني أو التساوقي في شعرنا العربي ..لقد اجتذبتني إلى حد الغواية والإغراء لمعاودة ارتياد رؤوس الينابيع التراثية العالية لا لمجرد اكتشافها وحسب ..)[٣].

وعلى العموم فسوف نلاحظ أن تلك التجربة التي تحدث عنها الشاعر وتحدث عنها النقاد أيضا قد تكررت في معظم النماذج الشعرية في ديوانه الثالث مثل قصيدة "جنون في ضوء القمر[٤] "و"لو ميتا يا وطني ألقاك[٥] " و" القصيدة الحجرية "[٦] و"العرس السماوي "[٧] . وغيرها ، لكن " دمشق والزمن الرديء" تبقى من أروع النماذج في هذا المجال ..

---

[٢] خالد علي مصطفى ، الشعر الفلسطيني الحديث ، ص ١٧٧.

[٣] يوسف الخطيب ، مجموعة قصائد مستقلة ، ص ٩٢.

[٤] (٥) (٦) (٧) : واحة الجحيم الصفحات : ٢٥-٣٣-٧٩-١٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا :القافيـــــــة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعد القافية عنصرا رئيسيا في القصيدة ولم تتخل عن أهميتها على امتداد تاريخ تطور القصيدة العربية . وإذا كان اعتبار القافية ركنا أساسيا في القصيدة وليس محل خلاف فلا يعني هذا وقوفنا أمام إبداع الشعراء وتطويرهم لإمكانيات القصيدة ، وإن نظرة فاحصة لإنتاج الشعراء الذين كتبوا القصيدة الحرة ،تعطينا صورة واضحة لعنايتهم بالقافية بأشكالها المتنوعة

ولا خلاف على أهمية القافية وفائدتها ، إنما يكمن الخلاف على وظيفتها حيث كانت في القصيدة التقيلدية عامل عزل بين أبيات القصيدة . إذ كانت (تلزم بالوقوف وتعنيه حتى عندما لايقف عندها القارئ) [١]من حيث انها في القصيدة الحرة أصبحت (جزءا من عوامل التواصل النفسي)[٢] إذ أنها (تتيح للقارئ الوقوف والحركة في آن واحد)[٣].

ومن ثم هناك نمطان رئيسيان في القافية هما: القافية العمودية والقافية الحرة ، وتحت هذين النمطين تندرج أنظمة من القوافي متعددة وهي :

أولا : القافية الموحدة ويندرج تحتها نظامان :

١- القافية العمودية الموحدة .

٢- القافية العمودية المتغيرة.

ثانيا: القافية الحرة ويندرج تحتها :

١- القافية الحرة المقطعية .

٢- القافية الحرة المتعددة.

٣- القافية الحرة المرسلة .

أولا: القافية العمودية:

استخدم يوسف الخطيب القافية العمودية وكتب في الشكل الحر ثم عاد مرة أخرى إلى الشكل العمودي في دواوينه الأخيرة مما يدل على أن القافية العمودية لم تفقد وظيفتها عند الشاعر، ويندرج نظامان في إطار القافية العمودية عند الشاعر :

١- **القافية الموحدة** : وهي القافية العمودية التي تسير على المنهج الاتباعي بالتزام روي واحد على امتداد القصيدة كلها . ويتجلى ذلك النوع من القافية عند يوسف

---

[١] عز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر ،ص١١٤-١١٥.

[٢] صالح أبو اصبع ، الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة ، ص ٢٤٣.

[٣] عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر ، ص ١١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخطيب في قصائده: أرض الميعاد [١]، عرش الفداء[٢] ، حكاية لاجئ[٣] ،وجد[٤]، والمغاوير[٥] .

وفي قصيدة له من بحر البسيط نظم الشاعر " المعلقة الفلسطينية" التي تكونت من إثني عشر مقطعا تخللها مئة وسبعة وثلاثون بيتا نظمت كلها على روي " الراء " المضمومة مما يبرهن على قدرة الشاعر في النظم على تلك القافية ، ونظرا لطول تلك القصيدة سنكتفي بإيراد بعض المقاطع:

١- غد القيامة :

آت على الدهر ، خلف القهر ،إعصار دم يصيح ورايات وثـــــوار
ومشرعات جباه سطرت غضبـــا من وعدها النور أو من وقدها النار
ومد شعب كيوم الحشر لجتـــــه طوفان ثأر على الآفاق هـــدار

٢- دني بأعلى الدنى :

صبي حليبك يا أماه فيـض روى حتى تعربد أشواق وأشعـــار
قد غربتني وراء الحلم سيدتـــي إليك،عنك متاهات وأسفـــار

٣ – لعنت قابيل :

ناديت لبنان يا قربان مجـــزرة هلا ارتوى من نزيف الشرق جزار
لعنت قابيل لا انفكت تطـــارده على الخليقة من كفيـــه أوزار
وإن دعا المسجد الأقصى بنـازلة سيقت إليه تعلات وأعـــذار
لا بارك الله في قوم وإن كثـــروا وعدهم عن يسار المجد أصفـــار

٤ – مخاض القهر :

قل للدخيل ركبت اليم ساجـــية أمواجه وفؤاد اليم زخـــار
آت غد من مخاض القهر طفلتـــه قد أنجبته عذارى الحلم أبكـــار
فكن دخانا فقد لاقيت زوبعـــة إن كلت صاعا فكيل الشعب قنطـار

في القصيدة السابقة استطاع يوسف الخطيب أن يحقق التوازن بين النظام اللغوي بما فيه من قواعد النحو والصرف من جهة وبين النظام العروضي من جهة أخرى،وهذا يدل على الموهبة الفذة التي أوتيها شاعرنا . وفي قصيده له بعنوان " هذي الملايين " التي تكونت من ستة وستين بيتا ،نظم الشاعر قصيدته على روي الباء المكسورة فيقول .

---

(١) ،(٢) العيون الظماء للنور ، ص ٥٨-٧٦.

(٣)، (٤)،(٥) ديوان عائدون صفحات : ١٩،٢٥،٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أكاد أومن من شك ومن عجــب هذي الملايين ليست أمة العــربِ
هذي الملايين لم يدر الزمان بها ولا بذي قار شدت راية الغلـــبِ
ولا تنزل وحي في مرابعهـــا ولاتبوك روت منها غليل نبـــيِ
تبدلت همم الصحراء وا أسفــا بياعة النفط عن خيالة الشهـــبِ
تدري العروبة من أبناء بجدتها من المحامون بالأرواح والقضــبِ
من الذين إذا أنت لنا زلـــــة يافا ، تنهدت الأصداء في حلـــبِ
آمنت بالشام روح البعث تسكنها ما جلق هذه ، بل كعبة العــرب[١]

لقد استخدم الشاعر روي الباء المكسورة في الأبيات السابقة، والملاحظ أن الشاعر قد اختار لقصيدته حرف "الباء " رويا لقافية القصيدة ،ومعروف لما لهذا الحرف مــن قيمة صوتية موسيقية تناسب جو القصيدة وايقاعها الحماسي الشديد، فالباء صوت شديد مجهور واختيار الشاعر لها يتناسب مع طبيعة التجربة الشعرية التــي تتحــدث عــن الحروب وشحذ الهمم فهي تعطي موسيقى فخمة تتفق مع المعنى .

ولنأخذ نموذجا آخر تلعب فيه القافية دورها المناسب موسيقيا ومعنويا في قصيدة له بعنوان "عناقا لك الصبح " وقد قيلت عقب حزيران الأسود ويبدو فيها الشاعر عائدا إلى جذوره التراثية – شكلا ومضمونا – :-

عناقا لك الصبح رغم الظــلام ويا أملا غائرا في الألـــــم
عناقا لك النار تحت الرمـــاد ويا ثورة في بطون الخيـــم
بلى ، قد نشرت قلاع النجــوم على هائج الليل آن ادلهـــــم
أقرب في الليل آتي الصبـــاح وأشدو على الجرح آتي النغــم
هنا أمة وعرة صهـــــــوة كجمح الكميت إذا ما التجـــم
هنا أمة فرعها في السمـــــاء وفي كبد الأرض منها قـــــدم
هنا أمة من لبان الزمـــــان غذت لحمها من ثدي الألـــــم
ويمضي على دربها الصاعدون ويرتد عنها الردي الكهـــــم

هنا أمة لا هرقل تأبـــــــى عليها ولا عز كسرى عجــم[١]

تتكون القصيدة السابقة من تسعة وأربعين بيتا مبنية كلهــا علــى روي الجــيم . وتحقق القافية في هذا النموذج إيقاعا معنويا وموسيقيا في الوقــت ذاتــه . واســتطاع

[١] ديوان بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص٤٩.
[١] ديوان رأيت الله في غزة ، ص٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشاعر تصوير الحالة الشعورية من خلال هذه القافية الساكنة التي تشبه الحشرجة معبرة عن الغيظ المكبوت إذ أنها تشحذ الهمم وترفع الهزائم بعد هزيمة نكراء ، وما أحوجنا الآن لهذا النوع من القصائد..

٢ – القافية العمودية المتعددة :

وهي القافية التي تتعدد فيها أحرف الروي بالتتابع سواء كان ذلك على أساس تنويع القافية في القصيدة العمودية غير المقطعية أو في القصيدة العمودية المقطعية. وقد استخدم الشاعر يوسف الخطيب هذه القافية في معظم أشعاره العمودية سواء المقطعية وغير المقطعية كما سنرى .

ففي قصيدته " مشيئة الجبار " كان الشاعر يلتزم في كل عشرة أبيات بحرف روي موحد،وكذلك في قصيدة بعنوان " أسطورة النسر والخفاش " حيث نلاحظ في مقطع يستخدم حرف روي واحدا:

صاحبي ، إن تملأ الكأس دموعا فهو حسبي
لم يعد في الناي أفراح أغنيها لشعبي
كل أحزان الثكالى نابضات ملء قلبي

أدر الخمرة يا ساقي على كل حزين
كي ترانا في لهيب الحزن أو في نارالأنين
نتلظى ، كلنا ينضح بالثأر الدفين

في بلادي خدر يعقد أوصال النيام
في بلادي لم تزل تأوي خفافيش الظلام
عبر كهف الليل تختال على كل حطام

كان في القمة نسر يدرك النجم علاء
جامح في ملعب الأرياح يرتاد السماء
في مدى عينيه نلقى عالما رحبا مضاء
يا لشعبي ريعت القمة بالنسر المصار

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ودع الأيام في نيسان في عمر الشباب
فإذا الغابة نهب للأفاعي والذئاب[١]

في الأبيات السابقة يتنقل الشاعر في قوافيه بعد كل مقطع حسب الحالة الشعورية المسيطرة . فحين تحدث عن الحزن والأنين في المقطع الأول جاء بروي النون الساكن والمسبوقة بالياء ليدل على المشاعر المكبوتة الصامتة .

أما حين تحدث عن أوصاف ذلك الشهيد النسر فكانت الهمزة المفتوحة هي الروي المناسب لهذا المعنى .

وهكذا ظل الشاعر يراوح في قافيته بين المقاطع الشعرية حسب المعنى المناسب لها. فكان يختار قافيته بعناية فائقة كما لاحظنا .

وفي قصيدته " العندليب المهاجر " قسم الشاعر تلك القصيدة إلى عشرة مقاطع كل مقطع منها يتكون من ستة أبيات انتظمت كلها على روي محوري واحد ، ففي المقطع الأول يتحدث عن الشجن واللهفة للوطن فتأتي النون المكسورة لتكون الروي المناسب لهذا المعنى .

أما في المقطع الثاني حين يبدا الشاعر يتحدث عن آلامه وآهاته فتكون التاء الممدودة هي الروي المناسب لذلك :

أتراك مثلى يا رفيق تمر في الزمن
عبر المهالك والليالي السود والمحن
لا صاحب يرخي عليك غلالة الشجن
تذرو بقية عمرك الصادي بلا ثمن
لكأن في عينيك بعض اللمح من وطني

أكاد ألمح في وجومك لون مأساتي
جرحي وملحمتي وتشريدي وآهاتي
أنا هاهنا يا صاحبي أقضي عشياتي
أرثي بجانب حورة الشلال أمواتي
وجعلت صدري كهف أشباح وأصوات
كمخالب عصبية تستشرف الآتي

[١] ديوان عائدون ص ١٥ وهي مهداة إلى روح الشهيد عدنان المالكي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا يظل الشاعر يراوح بين قافية وأخرى بعد كل مقطع حيث تكون القافية في المقطع التالي (منصرم ، هرم ، الألم ، القدم ، صنم ، دمي)

أما في المقطع الرابع فتكون كالتالي (النار – أسرار – العاري – آذار – الدار – تذكار).

بينما في المقطع الخامس تأتي على الشكل التالي (البلد – الكبد– صفد – بيـد – الرغد – الكمد).

وهكذا يستمر الشاعر في التنويع في قوافيه حتى يصل إلى المقطع العاشر والأخير ليثبت بذلك مهارته على الاتيان بالقافية المناسبة للمعنى الذي يتناولـه فـي مقطعـه الشعري .

وفي قصيدته " الطريق إلى يافا"نلاحظ استخدامه للقافية العمودية المقطعية حيـث ينوع في قوافيه وفق تنوع مقاطعه الشعرية حيث يقول :

١- آلتنا الحدباء

ضرعنا جف ولا زرع وأربى القحط،
في أرواحنا العمى الوجيعة .
والدروب احتقنت موتى وكنا البائعين
الأرض ،والأرض المبيعة
كيف ضيعنا زمان الوصل، ضيعناه
غشينا على الإثم الذريعة
أمة جاحدة ، أم يبس الثديان
من يافا على ثغر الرضيعة

٢ – رحلة الصيف

أقفرت من وحيها الصحراء لما اندلعت
في الأرض بالبعث السخي
تلك مد العين ، أطلال زمان
غائب في وهج الآل قصي
ها هنا نحن – بلا يافا – متاع السيد
المولى ، وميراث الصبي
قد نسينا، ومضغنا القات واسترخى
على أفيونة القلب الخلي
وافترشنا الزمن السائب ، سويناه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ظلا وحصيرا وعبي

٣ – صلاة إلى النار

العيون ارتسمت وحلا من الرعي
تبت الرعيان ملء الأرض، تب الكلأ
المسموم، تب الوشم ، تبا
ثم حانت لفتة أعلى، فكان الله
نيرانا على الكون وشهبا

ويستمر يوسف الخطيب في التنويع بقوافيه عبر المقاطع الشعرية الستة حيث يقول في المقطع الخامس :

٥ – بيوت الناس

هل يشت البال عن قرميدك الوردي
يا يافا ، وفي أية دنيا...!؟
إن نغب عنك ، فكي نلقاك حتى
في ربى الجنة– إيذانا ورؤيا..
نحن يا يافا ارتقاب الصبح ، لا أجفاننا
تسهو ، ولا نلمح شيا

٦ – الطريق إلى يافا

يوم غاب الضوء عن يافا، اختبأنا الليل
وانسدت على السلب المغارة
واغتربنا في المدى الأسفل، نقتات
العمى ، ننلز في درع المحاره
نحن من أغمض في الصبح ، من استمهل
من نام على الدرب نهاره

في الأبيات السابقة كانت القافية مقطعية إذا كانت في المقطع الأول كلمات القافية (الشريعة– الوجيعة – المبيعة – الذريعة – الرضيعة..) .

أما في المقطع الثاني فقد تغيرت القوافي لتصبح (طي – بابلي– نسي– نبـــي – سخي – قصي – بدوي – صبي ...) .

أما في المقطع الثالث فقد كانت القوافي تتمثل في (عشبا – تبا– شـــهبا– شـــعبا– نأبى..).

وفي المقطع الرابع كانت القوافي تتمثل في (القديم – العظيم – كليم – وخيم ..).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي المقطع الخامس تغيرت القافية لتصبح كالآتي (دنيا– رؤيا– شيا – أيا –نأيا– سعيا – وحيا) .

أما في المقطع السادس والأخير فقد تغيرت القافية لتصبح (المغارة – التجـــارة – المحارة – نهاره – مراره – حجاره – جداره – بشاره).

ثانيا: القافية الحرة

وهي بدورها تنقسم إلى ثلاثة أنماط :-

أ – القافية الحرة المقطعية:

ويتم فيها تنويع القوافي بحيث تقف كل قافية عند حدود المقطع وتتغير مـــع كـــل مقطع جديد، وقد تتمثل بتكرار قافية أساسية في كل مقطع ســـواء كانـــت واحـــدة أو مزدوجة . وفي قصيدة بعنوان " أنهض من جنازتي وأموت " يراوح الشـــاعر قافيتـــه حيث جاءت القوافي المتعانقة إذ يشترك السطر الأول في كل مقطع مع السطر الثالث في حرف روي . والسطر الثاني مع السطر الرابع في حرف روي آخر ، إلى أن يقفل المقطع بإحدى هذه القوافي المتعانقة المتوالية:

كأنني الآن جمع أمتي ..أموت
والعربي الأخير
أذبح في غزة ، في صيدا، وفي بيروت
من عنق شعبي الصغير

لكنني إذ يشرب السكين خمر صدري
أحسن أنني أقوم
أحس أن وسع الأرض ، مولدي وقبري
وأن ليلتي نجوم

وهاأنا أنهض من جنازتي وأمشي
يسكنني ، القاتل والمقتول
كأن خلف كل عطفة وعاء نعشي
وخلف كل برهة – أيلول

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وها أنا ملاحق للأمم المتحدة
هويتي ..مخرب ..وجلف
أنى حملت نكبتي في جبهتي المتقدة
يقول لي العالم ..قف !!

وقفت حافيا وراء باب أمتي العظيمة
أدقه على قلوب مغلقة
في الليل ، والثلج ،وفي مخالب الجريمة
حتى غدت يداي مطرقة
وصرت ضيف أمتي ، وصار جسمي الوليمة
وهيأت لي ، خيمة ومشنقة !!

ولم أزل أسق من مرحلة لمرحلة
أجر ثقل الصليب
وأستحيل جمرة ، فثورة ، مجلجلة
خلاص موطني الحبيب

قل عني الطفل الذي يوسم من حليبه
أو سمني قتيل حب
بي جسد المسيح موثقا على صليبه
في عالم بدون قلب
يا راجمي شعب فلسطين على ذنوبه
من منكمو بلا ذنب !!

نعم ..أنا طفقت في شوارع المدينة
يا أيها القضاة
لعنت في الساحات أسماءكم اللعينة
وقلت إنكم طغاة

وساقني الجند أمامكم بتهمة الجنون

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال لي العالم :قف
لا تسألوني أيها الملحفون من أكون
فإنني سأعترف

في الأبيات القليلة السابقة دلالة كافية على استخدام الشاعر لهذا النمط من القافيـــة المقطعية بمهارة فنية بارزة إذ استخدم القوافي المزدوجة المتعانقة التي تتناوب بين كل سطر وآخر ، ليقفل بإحداها المقطع الصغير والذي يتكون في الغالب من أربعة أبيات.

فلو أخذنا كمثال على ذلك المقطع الأول حيث كانت القوافي المتعانقة على التناوب كالتالي (أموت ، الأخير / بيروت، الصغير) أما في المقطع الثاني فكانـــت القـــوافي المتعانقة واضحة وهي كالتالي(صدري ، أقوام / قبري ، نجوم).

وهكذا دواليك ليستمر الشاعر في السير على هذا المنوال من القوافي المتعانقة إلى نهاية المقطع الأخير الذي أقفله بروي الفاء الساكنة :

نعم ....نعم ....نعم ...
أنا الذي قتلت حارس الدجى
أنا الذي سرقت شعلة السماء
وساقني الجند أمامكم...بتهمة الجنون
وقال لي العالم...قف
لا تسألوني أيها المحلفون من أكون
فإنني سأعترف !!
سأعترف !!
سأعترف !![1]

ويقفل الشاعر باعترافه مقطع القصيدة الأخيرة مكررا حرف الفـــاء الـــذي يفيـــد التأفف والتألم من الظلم والقهر الذي يعانيه شعبه الحزين المقهور ..

ب – القافية الحرة المتعددة :

وهو النمط الثاني من أنماط القافية في الشعر الحر ، حيث يقـــوم فيهـــا الشـــاعر باستخدام العديد من القوافي في القصيدة الواحدة ودونما انتظام محدد في اســـتخدامها . وقد تتشابك القوافي وتتداخل في القافية المتغيرة بحيث يستعمل الشاعر القافية ويتركها وقد يعود إليها بعد أن يستخدم قافية أخرى. وهكذا دونما انتظام في استخدامها.

وهذا نموذج من قصائد يوسف الخطيب بعنوان " الخروج إلى البادية " :

---

[1] ديوان بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص ٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحب اثنتين ...ووحدك أنت إلهة حبي
وأترك عنوان روحي على شفتيك
وأعطي لغيرك مفتاح قلبي
وأشهد أني عشقت جميع النساء
وأن هواي اتساع عيون الظباء
لأنك توحيدهن وهن تشابيهك الرائعات
وأكتب فوق نجوم السماء ..اعترافي

أحب اثنتين ...وما بين حب اثنتين
سأعقد أوتار قلبي أسلاك قيثارة
وأمتد في وجع الليل طول أغاني الحداة
وفي عطش الرمل طول ضفاف الفرات
سأمتد...حتى أطوق عطفيك بين يدي
من الغوطتين ...إلى الرافدين
فلو خلعتني جميع القبائل فيمن أحب
فلي من أبي "ربذة " ما تزال
سأمضي إليها وحيدا ، وذاتي
وأعزف للجن تحت شموس الفيافي
سأحمل بستان ورد على شفتيّ
وآتي ببادية الشام أعقاب أهلي
وأحدس بين الأثافي أطلال داري
وأزرع واحة نخل لعيني دمشق
وفي عشق بغداد ، غابة غار
وأحلف لامرأتين يمين العبادة
حتى ترق لأحزان نفسي قلوب الضواري
وأصرخ ..
أصرخ ..
أصرخ حتى الجنون
وأوفد أشعار وجدي على صهوات السوافي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الأبيات السابقة كانت القوافي المحورية هي الفاء الملحقة بالياء حيث تنوعت القوافي في المقاطع السابقة دونما انتظام ،ففي المقطع الأول كانت هناك أربع قــواف متنوعة ومتغيرة وهي (حبي – قلبي / النساء – الطباء/شفتيك – الرائعات) ، إلا أن الشاعر كان يقفل كل مقطع بقافية محورية أساسية تتكرر في نهاية كل مقطع إلـــى أن يختم قصيدته بالقافية ذاتها حيث يقول في المقطع الأخير :

فيا عجبا ...

ما ستكتب عني رؤوس السيوف

إذا كان من أحمر القلب حبر دواتي

ولو كان أن علقوني دموع القوافي !!

كيف ترى يشنقون دموع القوافي !!

وهكذا تنوعت القافيةعند يوسف الخطيب حيث كان يقفل مقاطعه بقافية محوريـــة واحدة لا تتغير طوال القصيدة ثم يعود لينهي قصيدته بها.

وفي قصيدة بعنوان : "سريناد والقمر الأسمر " ، يراوح الشاعر في قوافيه إلا أنه كان يجعل القافية المحورية تتكرر عبر المقاطع الشعرية إلى أن ينهي القصيدة بأكملها بتلك القافية:

الليلة ينبع من دمهم نهر الأردن

ثلاثة أودية من عسل قان

فيصيرون وضوء الأرض وضوء الشمس

يصيرون الأب والابن وروح القدس

ثلاثة أثلاث في جمع أحد

الليلة ينضج من دمهم تفاح الصفصاف

وكرمة ترشيحا

والليلة يتعمد من دمهم أطفال أريحا

والليلة يشتعل الجرمق فاكهة ونبيذا

ويضيء على البرية زيتون صفد

الليلة هم آتون العرس ثلاثة عرسان

وثلاثة أقمار تتغسل في جدول بستان

فتضرجن الحناء نساء فلسطين

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تطبين الأنداء نساء فلسطين
تفتحن مروجا خضراء نساء فلسطين
عليكن الليلة أن تحملن ثلاثة آلاف ولد !!

في الأبيات القليلة السابقة نلاحظ تنوع القوافي مما يكسب القصيدة إيقاعات مختلفة مع احتفاظ الشاعر بقافية محورية أساسية طوال القصيدة .

وقد كانت القافية المحورية في الأبيات السابقة في الكلمات الآتية [أحد– صفد–ولد] ويحوي المقطع الشعري الأول على قافيتين اثنتين غير محوريتين وهما : [الأردن – قان – أزمان] و [الشمس – القدس].

أما المقطع الشعري الثاني فقد اشتمل على ثلاث قواف متنوعة هي:

[الصفصاف ، ترشيحا – أريحا/نبيذا].

أما القوافي غير المحورية في المقطع الثالث فقد جاءت في الأسطر : الأول والثاني والثالث والرابع والخامس وهي على التوالي : [عرسان – بستان – فلسطين – فلسطين – فلسطين].

وبهذا يختم الشاعر مقطعه مرة أخرى بقافية أخرى محورية أساسية احتفظ بها طوال القصيدة ، وإن كان في المقاطع التالية ينوع فيها ويغير حيث يقول في المقطع التالي:

ليجيء في هذه الليلة جيل الوعد ..
الجيل المعقود النطفة من ألق البرق
وتحت هزيم الرعد ..
الجيل الصاعقة البارقة
الأجنحة ، الأشرعة ،الأنواء ..
ليجيء في هذه الليلة من بطن الأرض
الجيل الرافع بالضم مدينة "نعم "
من " لاء " الرفض ...
الجيل المغذوة عيناه رحيق الشمس
المتلوة أذناه أساطير الشهداء ...

ففي المقطع الأول كانت هناك ثلاث قواف هي :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

[الرعد – الوعد – والبرق – البارقة] أما القافية المحورية فكانت في السطر الخامس من المقطع الأول .

أما المقطع الثاني فقد كانت القوافي المتنوعة في الأسطر الأول والثاني والثالث فهي ثلاث قواف هي على الترتيب [الأرض – نعم – الشمس].

وقد أقفل مقطعه بالقافية المحورية وهي (الشهداء) .

ثم يراوح الشاعر في قوافيه لتصبح القافية المحورية بين المقاطع هي النون الساكنة ثم بعدها السين الساكنة إلا أنه يعود في المقطع الأخير ليكرر القافية الأولى التي افتتح بها قصيدته وهي الدال الساكنة .

الليلة هم آتون العرس ثلاثة عرسان
وثلاثة أقمار تتغسل في جدول بستان
فتضرجن الحناء ...نساء فلسطين
تطبين الأنداء ..نساء فلسطين
تفتحن مروجا خضراء ..نساء فلسطين
عليكن الليلة أن تحملن ثلاثة آلاف ولد!!

وهكذا استخدم الشاعر القافية الحرة المتغيرة في أشعاره ليبرز بذلك مهارته الفنية وابداعه الفني حيث نوع في القوافي مع احتفاظه بقافية محورية أساسية تشكل دوما أعلى نسبة في القوافي ليختم بها قصائده .

وباستخدامه لتلك القوافي المتعددة كان الشاعر ينوع في إيقاعاته ليكسب قصائده جرسا موسيقيا معينا يتلاءم مع الموقف الذي يعالجه .

ج – القافية الحرة المرسلة :

تتمثل هذه الظاهرة في تحرر القصيدة تحررا كاملا من القافية إلا ما جاء منها عرضا . وإذا كانت القافية المرسلة تطرح غياب هذا الإيقاع العذب الذي تحققه القافية، فان القصائد المرسلة تتراوح في جودتها باختلاف إمكانية الشعراء أنفسهم ، فإرسال القافية يحتاج إلى امكانيات شاعرية تحقق تعويضا عن فقدان هذا العنصر الموسيقي المهم في القصيدة .

ولعل إحساس الشعراء بأن الجرس الموسيقي الذي تحققه القافية بتكرارها يقف حجر عثرة أمام انسياب الإيقاع الداخلي الذي يتحقق باسترسال المعنى – هذا الإحساس

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هو الذي حدا بهم لإرسال قوافيهم ، وذلك لأنه لا يمكن فصل الجرس الموسيقي عن المعنى إذ أن (الجرس يسند المعنى وأنه ليست له قيمة جمالية مستقلة في ذاته ، وهذا هو أساس الزخرفة اللفظية ، صغيرة كانت أم كبيرة ، وليس الوزن إلا عنصرا واحدا من عناصر الجرس)[١] .

ولعل معظم قصائد يوسف الخطيب التي أرسلت القوافي كانت من القصائد المدورة لأنها تحتاج إلى نفس موسيقى واحد في قراءتها إذ تصبح بعض قوافيها نوعا من التقفية الداخلية.

يقول الشاعر في قصيدة (بالشام أهلي والهوى بغداد)

في المقطع الأول :

بعيدة ، بعد ، مغانيها أغانيها
وقطر الكروم
من واعدتني الماء...والصحراء
والحلم ..وعلم النجوم
وهي الأفق التي مثلها الأفق هنا
ويوميء البرق إلى أنها...هناك
تقوم بواباتها السبع على جداول السنا
وتخلد الشمس على قبابها..وتحلم الأفلاك
فمن رسولي عندها الليلة أني هنا
لعل لي وعدا وعينيها
ومنديلا ..وقنديلا على شباك
ومن رسولي أنني عابر سمتها
وأن قلبي نازل بيتها لا يريم[١]

في الأبيات السابقة نلاحظ أن الشاعر قد تحرر تماما من القافية إلا أنه اعتمد التقفية الداخلية بين الأبيات من خلال الكلمات [مغانيها– أغانيها / بواباتها – قبابها / منديلا– قنديلا / سمتها– بيتها].

كما حقق الشاعر التوافق الصوتي من خلال مجاورة حروف مثل : النون ، الياء، الميم، السين ، الهاء . وهي من الأصوات اللينة التي تنسجم مع الحالة النفسية

[١] إليزابيث درو ،مصدر سابق ، ص٥٠.

[١] بالشام أهلي ، ص ١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المسيطرة ، كما ساهمت حروف المد في إثراء النص وإبطاء الإيقاع ليتمشى مع حالة الحزن الكامنة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب – الإيقاع الداخلي

١- التكرار

٢- التقفية الداخلية

أولا : التكرار

التكرار ظاهرة موسيقية قديمة في الفنون الانسانية ، وهي تنشأ عن ثبات لحظة شعورية في أعماق الشاعر لتسجل وقوفا في خط الزمن الأفقي الممتد . ويعد التكرار ظاهرة موسيقية ومعنوية في آن واحد معا، فعندما يتكرر حرف أو كلمة أو مقطع نشعر بوجود نغم أساسي من خلال لزوم التكرار ، وفي الوقت نفسه نجد أن حروفا معينة في نص شعري ما يسهم في بناء القصيدة حيث تكتسب الألفاظ أهمية دلالية واسعة المدى تجعل من التكرار في معظم الأحيان أحد أهم مفاتيح القصيدة الشعرية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذ أن تكرار صوت من الأصوات في قصيدة بعينها يثري الإيقاع الداخلي بلون موسيقي خاص ، فالشاعر (حين يطرق المعنى العنيف تكون موسيقى ألفاظه غيرها في المعاني الهادئة الرقيقة) [١].ولما كانت الكلمة تتألف من مجموعة من الأصوات/الحروف التي يؤدي تكرارها في سطر شعري واحد أو على مستوى مقطع شعري إلى تكثيف صوتي كبير ، فإننا سنتناول تلك الكثافة الصوتية وأثرها في تشكيل إيقاعات موسيقية متناغمة من خلال بعض الأصوات التي استفاد الشاعر من الطاقة الكامنة فيها..

يقول الشاعر في قصيدة بعنوان " جنون في ضوء القمر " :

أهلوك يا دارتا أهل الحنين
رؤى أسمارهم ،
ورؤى أشعارهم ،
ورؤى لفح النسيم به ...
يا للجدائل وهج الماس

اعتمد الشاعر في الأبيات السابقة على موسيقى السين بشكل واضح حيث أحسسنا بنغم صفيري هادئ يضفيه صوت السين كما أن تكرار حرف الراء من خلال تكرار كلمة (رؤى) ثلاث مرات عبر عن حالة القلق الداخلي ، إذ أن الراء من الحروف المكررة القلقة.

كما نلاحظ اهتمام الشاعر بتكثيف صوت السين والشين معا في المقطع التالي حيث يقول :

عيناي عبادتا شمس ،
تفتحتا صوب النسيم،
وفي الأعماق أغنية تصحو،
تجيش،
تذاري الموج...
يا ذكرا مندوفة في شعاع البدر ،
يغزلها لحن ،
وينشرها
هل وشوشت عن سروة سروة

[١] إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، ص ٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما لملم العمر في شبّاب راعية

تكرر حرف العين سبع مرات في الأبيات السابقة مما أعطى كثافة صوتية لهـذا الصوت المعبر عن الألم والحزن ، إضافة إلى ما يضفيه صوت الوشوشة بالاعتمـاد على موسيقى السين والشين فأحسسنا بنغم صفيري في الأبيـات السـابقة ، أضـفاها صوت (الوشوشة) الذي أشاع نوعا من الهمس الداخلي ضمن بنية النص الداخليـة ، ونلاحظ اهتمام الشاعر بتكثيف صوت الشين الذي تكرر خمس مرات في تلك الأبيات كما أغنت ظاهرة التقديم والتأخير الإيقاع الشعري في الأبيات السابقة حيث قدم الشاعر شبه الجملة على الفاعل بقوله : (وشوشت عن سروة سروة) فلو أن يوسف الخطيب قال (وشوشت سروة عن سروة) لتسارع الإيقاع وتصاعدت حدته ،ولذلك قام الشاعر بالفصل بين الفعل والفاعل لكي يحافظ على هدوء السرد الذي كـان يتنـامى بهـدوء وروية.

وهكذا فقد تعامل يوسف الخطيب مع ظاهرة التقديم والتأخير وفق الإيقاع الخاص الذي يعي متطلبات الموقف الشعوري الذي يحس به كما تضافرت الأصوات الصفيرية بإثراء ذلك الإيقاع.

وفي مقطع آخر من القصيدة يقول الشاعر :

ربي
أفض نورك الرسلي في
ألق الصحراء
من ألق دربي
ويعتم في قلبي السبيل لها
ربي
ومابرحت نهب السراب
خطى شعبي
أما أفق يوحي إلي
أما شلالة من رحاب الضوء
تغمرني !!...

لو رحنا نتتبع الجرس الموسيقي للحروف فقد تكـررت الأصـوات الصـغيرية مماشكل ترددا موسيقيا متناغما حقق إيقاعا هادئا. ولم يقتصر التكرار على الأصوات المهموسة فقط بل تعداه في بعض القصائد إلى الأصوات العنيفة التي أشـار إبـراهيم أنيس إلى أنها أنسب الحروف للمعاني العنيفة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإذا كان اجتماعها بنص محدد فان ذلك يعني تسخير الموسيقى القوية والعنيفة:[١]

سأقد من حجرٍ قلبي،
ومن حجرٍ بي
ومن حجرٍ حتى الهواء،
وحتى الماء من حجر

همسي وأدعيتي
حجرتها حجرا
حتى ليقلعني البارود من جبل
قلعا،
وتشرخني ناب الحديد

لقد تكررت الأصوات العنيفة في الأبيات السابقة بحيث ساهم توظيفها في خدمة المعنى الشعري الذي يوحي إليه الشاعر وهو تحجر المشاعر وتصلبها. وفي قصيدته " دمشق والزمن الرديء" لجأ إلى تكثيف الأصوات العنيفة في قوله :

أيلول عاد
وأقبل التاريخ ينفض في
جبين الشام نعليه ، وأنت تمص شريان
القتيلة ، والرجال البله حولك يعقدون
التاج ، والخياطة الغرباء يبتدعون وهم
إزارك السوري ...
فاهنأ يا مليك الشام
قيصر يجتبيك على تخوم الشرق بوابا

يشكل تكرار الأصوات العنيفة في الأبيات السابقة كثافة صوتية تغني القصيدة بإيقاع خاص ، بتناسب مع جلال الموقف ومهابته . إنه موقف غضب وسخط يقتضيان أن يكون الإيقاع قويا كما هو في القصيدة السابقة .

وقد تقوم الهندسة الصوتية في النص الشعري لدى يوسف الخطيب على تكرار جملة معينة تشكل نقطة ارتكاز نغمي في القصيدة السابقة نفسها والتي تكررت فيها

[١] إبراهيم أ،يس ، موسيقى الشعر ص٤٣ والحروف المشار إليها هي (الخاء والقاف والجيم والضاد والصاد والطاء والظاء).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجملة الفعلية" أيلول عاد " حيث تكررت أكثر من مرة مع بداية كل جملة شعرية موصولة التفعيلات وهنا تشكل كلمة " أيلول" إشعاعا نغميا يبث إيحاءات دلالية واسعة ففي المقطع التالي من القصيدة السابقة يقول يوسف الخطيب : " أيلول عاد " " وعاد عمال الخليفة باللذائذ والحريم " . وهكذا يستمر مع بداية كل جملة شعرية موصولة ثم يعود إلى المقطع العمودي ليعود إلى الجملة الشعرية حتى نهاية القصيدة مرة أخرى . كما يعد تكرار الجملة بأكملها وهي " أيلول عاد " عامل توكيد نغمي يربط بين أجزاء القصيدة بيد أن فاعلية التكرار تزداد من خلال تركيزه على الاسم (أيلول) وتقديمه على الفعل لما لهذه الكلمة (أيلول) من دلالات نفسية معينة .

وقد تشكل الكلمة التي تتكرر في بداية السطر الشعري توقيعة نغمية تمنح النص نوعا من التوقع لدى المتلقي . يقول الشاعر :

حليبك في دم الشهداء ساقية
تهيم على جهات الأرض
ثم تصب في بحرك

حليبك خمر دالية
يعب كوؤسها الندمان
ثم يكون من دمهم طلى ثغرك

حليبك غيمة بيضاء
تشرب منك لون الجرح
ثم تغوص في صدرك

ساعد تكرار كلمة (حليبك) على الكشف عن الحالة الوجدانية الطاغية على مضمون القصيدة وهو الشعور بأن (غزة) في الأبيات السابقة لم تكن مجرد أرض بل هي أم تبكي أبناءها الشهداء .

كما شكلت كلمة (يافا) في قصيدته (جنون في ضوء القمر) توقيعة نغمية أخرى، حيث أظهر التكرار حالة تكثيف شعورية ولدت إيقاعا خاصا :

يافا مؤرقتي–
يافا الرحيل لها..
يافا الجنون ..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد قام الشاعر بتوظيف التكرار في خدمة المعنى وذلك بعد أن خضعت هذه الظاهرة لسيطرة الإحساس الذي دفع بالأسلوب نحو التكرار . كما ساهمت حروف كلمة (يافا) في إعطاء كثافة صوتية لحرفي الياء والفاء . فـ(الفاء) من الأصوات المهموسة الرخوة التي يصاحب النطق بها أن النفس أثناء مروره بمخرج الصوت يحدث نوعا من الحفيف فيضفي على النص شعورا بالحزن والألم .

أما (الياء) فهي من أصوات اللين التي هي بطبيعتها أوضح من الأصوات الساكنة. (فأصوات اللين تسمع من مسافة عندها قد تختفي الأصوات الساكنة أو يتم الخطأ في تمييزها، ففي الحديث بين شخصين بعدت المسافة بينهما قد يخطئ أحدهما سماع صوت ساكن ولكنه يندر أن يخطئ سماع صوت لين)[1] ولعل هذا سر استخدام الشاعر لهذه الكلمة بالذات في المقطع السابق .

وهكذا نجد تناسقا صوتيا بين حروف الكلمات في النص السابق منسجما مع الحالة النفسية للشاعر ولا تخفى علينا حروف المد في الأبيات السابقة وما توحي به من تنهدات [الرحيل – الجنون – يافا – مؤرقتي] مما ساعد على خلق إيقاع بطيء ينبئ عن حالة الشوق والحنين التي يعانيها الشاعر . وهكذا استطاع أن يمزج بين التناسق الصوتي للألفاظ وبين حالته النفسية ببراعة واضحة .

وفي قصيدة (بالشام أهلي والهوى بغداد) يكرر الشاعر كلمة (بعيدة) خمس مرات في المقطع الأول من القصيدة لتساهم تلك الكلمة بكل دلالاتها وإيحاءاتها الصوتية في إثراء النص وإشاعة نوع من الإيقاع الداخلي الحزين الهادئ :

بعيدة ، بعد ، مواعيد الهوى
بعيدة ، بعد ، مرافئ الحنين
من أعزل الرؤيا على مثالها
وأذرع الأفق ...وأطوى السنين
بعيدة
بعد نجوم المنافي
وعد رمل السواقي
وإن جسمي لمضنى وإن قلبي حزين
بعيدة ، بعد ، مغانيها، أغانيها

[1] صابر عبد الدايم، موسيقى الشعر ص٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يشكل التكرار في النص السابق ضرورة إيقاعية..حيث إن تكرار كلمة (بعيدة) بكل إيحاءاتها ودلالاتها ساهم في إثراءالنص وإعطائه إيقاعا هادئا . وتأتي كلمة (بعد) في المرتبة الثانية لتشكل نقطة ارتكاز نغمي هامة بعد الكلمة السابقة مباشرة ، لتوقف من تسارع الإيقاع .

والملاحظ أن هناك تمازجا بين القيمة الصوتية والقيمة النفسية للحروف ، فلو أخذنا نتتبع النص لوجدنا أن الشاعر كرر أصواتا مثل :الدال . العين . النون. الياء . الميم . فتكرار (العين) إثنتا عشرة مرة في النص السابق يطلعنا على ما في جرس هذا الحرف من مرارة وتعبير عن الوجع ، أما حرف الدال الذي تكرر عشر مرات في النص فهو يعبر عن صوت الحزن والألم ، ويقول عنها علماء الأصوات إنها صوت من أصوات القلقلة لأنها تحتاج إلى تحريك فهي (صوت انفجاري مجهور يتذبذب معه الوتران الصوتيان وهذا ما يؤدي إلى هزة الشوق ورعشة الفؤاد) [١].

وقد اشار ابراهيم أنيس إلى أن (مجاورة الأحرف الشبيهة بأحرف المد وهي: اللام. النون . الميم. الواو . الياء . الراء) . (لأي حرف من حروف الهجاء تستسيغه الآذان ولا يتعسر فيه النطق)[٢] وقد حقق يوسف الخطيب ذلك الانسجام الصوتي من خلال مجاورة الأحرف في كلمات مثل[الحنين –السنين – حزين– السواقي) . فهي أصوات ترتاح لها الأذن وتهدأ معها النفس إذ أن التشكيل الصوتي (صدى للشعور القائم في النفس يبين عنه ويجسده وينبئ عن صدق التجربة وتفوق الأداء الشعري)[٣].

كما شكلت حروف المد في النص السابق توافقا صوتيا حقق للقصيدة إيقاعا بطيئا يوميء إلى حالة الحزن المترسبة في ذات الشاعر . لقد استكان يوسف الخطيب إلى يأسه وهدأت ثورته فجاء إيقاعه بطيئا متثاقلا يعكس مشاعره الحزينة . ويتكرر المقطع السابق في القصيدة مرتين ، مرة في بدايتها وأخرى في نهايتها مما يوحي بتعلقه العميق بهذا المقطع حيث ساهم التكرار هنا في بناء القصيدة من حيث ارتباط البداية بالنهاية.

ولم يقتصر التكرار على المقطع السابق بل إن الشاعر لجأ إلى هذا النوع من التكرار المقطعي في قصيدة بعنوان " سريناد القمر الأسمر " التي يرثي فيها ثلاثة شهداء قائلا في بداية القصيدة ونهايتها:

الليلة هم آتون العرس ثلاثة عرسان

---

[١] المرجع السابق ، ص ٣٢.

[٢] إبراهيم أنيس ،موسيقى الشعر ، ص٢٢.

[٣] د. صابر عبد الدايم ، موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور ، ص٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثلاثة أقمار تتغسل في جدول بستان
فتضرجن الحناء نساء فلسطين
تطيين الأنداء نساء فلسطين
تفتحن مروجا خضراء نساء فلسطين
عليكن الليلة أن تحملن ثلاثة آلاف ولد !![1]

وظف يوسف الخطيب التكرار في المقطع السابق لخدمة الإيقاع العام للقصيدة مما ولد إحساسا بمتعة الإدراك من خلال التكرار الذي يتوقعه المتلقي أثناء القراءة .

وفي المقطع السابق تتكرر الصيغة الصرفية (تفعلن) ثلاث مرات في قوله (تضرجن ، تطيين ، تفتحن)وذلك للإيحاء بالمعنى العام للنص . وعلى الرغم من أن التكرار يولد إيقاعا رتيبا في بعض الأحيان ، إلا أنه هنا انسجم مع الموقف الشعري الذي يصوره الشاعر ، فالمطلوب من نساء فلسطين وأمهاتها الصبر والصمود والتحدي مما دفع الشاعر إلى استخدام أسلوب إنشائي من خلال صيغ الأمر ، كما أن استخدامه للحروف المشددة ساهم في ارتفاع حدة الإيقاع ليتناسب بدوره مع جلال الموقف ومهابته . ويوحي تكراره لعبارة " نساء فلسطين" بالفخر والاعتزاز لدى الشاعر، وعموما فالمقطع بأكمله يوحي بالإجلال والمهابة والتقدير .

التقفية الداخلية

لقد حقق يوسف الخطيب في قصائده أنماطا من الإيقاع الداخلي القائم على تناسق حروف الكلمات وانسجامها موسيقيا بشكل قد ينفصل في بعض الأحيان عن القافية الظاهرة والمتمثلة في حرف الروي ، إذ ساهم تحرر الشاعر من قيود القافية في محاولة ابتكار روابط موسيقية داخلية تسهم في إغناء القصيدة وتخليصها من عبء الرتابة والملل:

أيلول عاد ،

[1] يوسف الخطيب ، (رأيت الله في غزة) ص ٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأقبل التاريخ ينفض في
جبين الشام نعليه ، وأنت تمص شريان
القتيلة ،والرجال البله حولك يعقدون
التاج ، والخياطة الغرباء ، يبتدعون وهم
إزارك السوري ...

فاهنأ ياماليك الشام
قيصر يجتبيك على تخوم الشرق بوابا
أميرا في بني غسان ، يملأ راحتيك دمى
إذا انتشتا دما ..يلقاك في سروالك
القصبي ظاهر رومة وتسوق قافلة
الحريم إليه ..يتخم من حريم الشرق تتخم

في الجملة السابقة استخدم التقفية الداخلية كتعويض عن عدم التزامه بقافية محددة مما أدى إلى تعميق الإيقاع فتتصادى في أذن المتلقي ووعيه كلمات مثل (يعقــدون – يبتدعون / أميرا – بوابا / دمى – دما / سروالك القصبي – إزارك السوري / يتخم – تتخم).

كما ساهمت حروف المد في الأبيات في خلق ذلك الانسجام بين الموسيقى والحالة النفسية للشاعر الذي كان ينظر بعين التهكم والسخرية للواقع المعيش من خلال كلمات [إزارك السوري – سروالك القصبي – مليك الشام – تخوم الشرق].

معلوم لدينا أن التقفية الداخلية يلجأ إليها الشاعر في القصائد المدورة ولعل هذا ما دفع الشاعر في القصيدة السابقة إلى استخدامها ليحرر القصيدة مــن عــبء الرتابــة والملل، وفي قصيدته " جنون في ضوء القمر " لجأ إلى التقفية الداخلية ليغني الإيقــاع الداخلي وليعوض بذلك عن غياب القافية الخارجية، يقول في إحدى المقاطع :

أهلوك يا دارتا أهل الرياح،
لهم في النوء أشرعة،
في الرعد أجنحة
جن الرياح همو،
سكانها،
ما شعلة اللوز السماوي ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من نوار لوزتنا،
ليت الحنين جناحي مهره،
فعلى توقيهما يعتلي توقي.

إن كلمات مثل (أهلوك- أهل / أشرعة – أجنحة / شـــعلة – نـــوار / اللـــوز – لوزتنا / توقيهما – توقي] ساهمت في إثراء الإيقاع الداخلي بما حوته مـــن تجـــانس لفظي معزز بأسلوب التوازي الجملي بين كلمات مثل : (في النوء أشرعة، في الرعـــد أجنحة) ليثري الإيقاع بالتتابع . وفي قصيدته (لو ميتا يا وطني القاك) يقول الشاعر :

في أمد انتظارنا، وفي وجيبي
أسأل يا معذبي ، ويا حبيبي
لو ميتا يا وطني ألقاك ...لو أمشي
لك الدنيا على رمشي ...لو
حفنة من الثرى هائمة على
جنون الريح عمرها ، وتنتهي
إلى ثراك ...لا أناشد الوجود
غير ذاك...
أن أشيع فيك...
أن أراك..

لقد استخدم الشاعر ألفاظا مثل (وجيبي – حبيبي – معذبي / ذاك – منك – ثراك – أراك) وهي ألفاظ ذات جرس موسيقي هادئ حيث ساهمت حروف المد في تلـــك الكلمات في إبطاء الإيقاع لتتناسب مع الدفقة الشعورية الحزينة.

وساهمت (لو) في إضفاء جو من الإيقاع التتابعي الذي يوحي بالتواصـــل بـــين الأبيات دون انقطاع ...ويوحي تكرارها بسيطرة الإحساس بالشوق واللهفة والحنين.

أما قصيدته (بالشام أهلي) فقد استخدم الشاعر الألفاظ ذات الجـــرس المناســـب للفكرة التي تطرحها معاني القصيدة حيث يقول :

بعيدة ....حتى أقاصي البعد
حتى الوجد ..حتى السهد ...أحلامي وأسفاري
يا جلق الحلم ...وبغداد السرى
أنت التي مثلها الحب ...هنا
ويوميء الحزن إلي أنها...هناك
فلو تلوحين لعيني خلال الضباب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإن رمزا عنك يكفيني

ولو تقومين ، على الوهم ، وهج السراب

فإن برقا منك يسقيني

حلفتك الغربة ...والتوق ...ونار العذاب

إن تقتليني ...فلا ترديني

لقد اختار يوسف الخطيب الألفاظ الشعرية بدقة متناهية ، ولذلك ترك لنفسه الحرية في رسم إيقاع القصيدة برؤياه الداخلية، وهذا التوجه الإيقاعي نابع من صميم الموقف الوجداني الذي يحس به الشاعر ونلاحظ في المقطع السابق ألفاظا مثل (البعد – الوجد– السهل / هنا– هناك / تلوحين – تقومين/ عنك – فيك / رمزا – برقا/ تقتليني – ترديني).

كما نشهد تواصلا في الأفعال أسهم في تواصل الإيقاع واستمراره بحسب الدفقة الشعورية التي يحس بها الشاعر . وتجمع هذه الأفعال علاقات قائمة على التسلسل المتدرج في رسم الموقف الشعري . وقد جاءت الأفعال المسبوقة بأداة الامتناع لامتناع (لو) –والتي أفادت التمني في الأبيات السابقة – لتولد نوعا من التوازي الإيقاعي بينها وبين الجمل التوكيدية التي جاءت بعدها في قوله :

(فلو تلوحين لعيني ...فان رمزا عنك يكفيني – ولو تقومين على الوهم ...فان برقا منك يسقيني) .

حيث نلاحظ أن السطر الشعري المسبوق بالأداة (لو) كان يخلفه مباشرة سطر آخر توكيدي وذلك للإيحاء بأن الشاعر كان يبحث عن مجرد بصيص من الأمل وليؤكد على أهمية الموقف بالنسبة له من خلال التقابل الذي ظهر بين التمني والتوكيد من خلال الحرفين (لو – إن) وكل هذا ساهم في خدمة الإيقاع الداخلي وإثرائه .

وقد ساهمت حروف المد في المقطع السابق في إعطاء النص إيقاعا هادئا متثاقلا يتناسب مع إيقاع الشاعر الداخلي الحزين .

وهكذا فقد استخدم يوسف الخطيب التقفية الداخلية في قصائده بمهارة منتقيا بها الألفاظ المناسبة بعناية بارزة ، معتمدا في ذلك على حركته النفسية ، وبهذا استمدت الحركة الموسيقية أهميتها من داخل السطور ، بشكل يتماوج مع أجزاء القصيدة بكاملها، ومن هنا انطبع الإيقاع بطابع خاص ينسجم مع صوت الشاعر الداخلي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خاتمة البحث

تتبعنا في الدراسة السابقة حياة الشاعر يوسف الخطيب وشعره لنصل إلى غايتنا المنشودة في إظهاره بصورة مستقلة تهتم بجوانب حياته وشعره ، بعد أن كانت متناثرة في بعض الكتب بشكل لا يوصل إلى الدقة التي تزود الدارس أو المتلقي بالمعلومات الكافية عنه .

هذا ، ومن خلال الدراسة المذكورة نصل إلى نتائج أبرزها ما يلي :

أولا: من خلال استقراء ترجمة الشاعر تبين لنا أنه عاش حياة مليئة بالبؤس والمعاناة والآلام وفي الوقت نفسه غنية بالتجربة الأدبية والصحفية الحياتية .

ثانيا: ارتبطت التجربة الشعرية عند يوسف الخطيب بالتجربة الروحية والنفسية، ومع كل مرحلة جديدة تأخذ الكلمات والعناصر الفنية شكلا مختلفا للتعبير الفني وللإيحاء والتأثير .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا كانت الدراسات الحديثة بمنهجيها الاجتماعي والنفسي لا تعزل بيئة الشاعر عن نتاجه الإبداعي ، فاننا لمسنا علاقة واضحة بين يوسف الخطيب الإنسان ويوسف الخطيب الشاعر ، فانعكس الواقع في الفن ، والفن في الواقع ، فبدالنا وكأنه مرآة ذات وجهين: الأول يمثل شخصيته بكل أبعادها النفسية والاجتماعية، والآخر يمثلها بأبعادها الفنية والابداعية .

ثالثا : ظلت القضية الفلسطينية المحور الرئيسي في أشعاره طوال المراحل الشعرية المختلفة، حيث نقل لنا من خلال أشعاره الوطنية والقومية هموم ومآسي شعبه الفلسطيني وأمته العربية، فقد كان شاعرنا وطنيا وقوميا يحس بالشمولية العربية والالتزام الوطني الواسع ،كما جاءت أشعاره معبرة عن طموح الأمة العربية بأكملها.

يتضح من خلال أشعار يوسف الخطيب فكرة القومية العربية والدعوة إلى نبذ الأحقاد وتسوية الخلافات ، لا سيما بين الأحزاب السياسية المنشقة ، حيث باتت تلك الفكرة ، هما يؤرق الشاعر ويلهب أشعاره .

رابعا: بتتبع النواحي الفنية التي وردت في أشعاره كالخيال والصورة يمكننا القول بانه امتاز بقدرته على إبداع الصور المختلفة التي ساير فيها واقع أمته وشعبه .

وقد اعتمد في انتقاء صوره على الطبيعة الخلابة التي تتمتع بها بلاده والتي نشأ وترعرع بين أحضانها ، كما اعتمد أيضا على القرآن والمصادر التراثية والمواقف التاريخية .

كما جاءت صوره خالية من الغموض والإبهام مما جعلها تميل نحو البساطة والوضوح لتتناسب وطبيعة المرحلة التي يعيشها الشعب الفلسطيني . إلا أنه استطاع أن يكثف الرموز السياسية بشكل واضح ، فالمغول وقيصر وكسرى وتيمورلنك وشعرة معاوية ومسيلمة ، هي رموز سياسية معروفة في التاريخ القديم ، وترمز لأهل الربا والفساد من حاشية الملوك وأعوانهم ، إذ لا يلبث هؤلاء أن يختفوا في عصرمن العصور حتى يظهروا من جديد . كما اتخذ الشاعر من أبي ذر مثالا يحتذى به في الزهد ، وكأن يوسف الخطيب باعتكافه الشعر وتركه الأحزاب السياسية جانبا ، مثل أبا ذر في محنته .

خامسا: أما من حيث اللغة فقد كتب الشاعر قصائده بلغة شعرية متميزة وأسلوب شعري حديث مستخدما كافة انماط التعبير الشعري في لغته ، وأما استخدامه للتراث بمختلف أشكاله في شعره فكان يهدف من ورائه أساسا إلى إحياء أمجاد الأمة ، وذلك بتوظيفه الجوانب المشرقة فيه جاعلا منه إحدى الوثائق التي تبرهن على عروبة فلسطين وأصالة الأمة العربية وعراقتها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سادسا : ومن خلال دراستنا لموسيقاه الشعرية تبين لنا أنه استطاع أن يمزج بين بعض البحور ، فقد استطاع أن يحرك من التفعيلات القديمة الحانا جديدة عذبة . وما قصيدته (دمشق والزمن الرديء) إلا دليلا على قدرته على الابتكار العروضي ليثبت قدرته الهائلة على تطويع الأوزان الشعرية حسب الدفقة الشعورية المسيطرة .

كما استطاع أن يشيع في ألفاظه موسيقى خفيفة هامسة وذلك يندر أن نجده عن شعراء كثيرين ....مما يجيز لنا أن نطلق على يوسف الخطيب لقبا آخر هو (الشاعر الموسيقي).

المصادر والمراجع

أولا: الأعمال الشعرية

١- العيون الظماء للنور – المطبعة العمومية – دمشق – ١٩٥٥.

٢- عائدون – دار الآداب – بيروت – ط١- ١٩٥٩.

٣- واحة الجحيم – دار الطليعة – بيروت – ط١—١٩٦٤.

٤- بالشام أهلي والهوى بغداد- دار فلسطين للنشر والثقافة- ط١ – دمشق – ١٩٨٨.

٥- رأيت الله في غزة – دار فلسطين للنشر والثقافة – ط١ – دمشق – ١٩٨٨.

٦- مجموعة قصائد مستقلة – دار فلسطين للنشر والثقافة ط١ – دمشق – ١٩٨٨.

ثانيا : المراجع العربية

- إحسان عباس – تاريخ النقد الأدبي عند العرب – بيروت- دار الآفاق – ١٩٧١.
- أحمد ساعي – حركة الشعر في سورية من خلال أعلامه – دمشق – دار المأمون للتراث – ١٩٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- جابر عصفور – الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي – القاهرة – دار المعارف –١٩٧٣.
- حسني محمود – شعر المقاومة الفلسطينية في المنفى – ج٣– عمان – الدار العربية للتوزيع والنشر –١٩٨٤.
- خالد علي مصطفى –الشعر الفلسطيني الحديث – بغداد – وزارة الثقافة والفنون – ١٩٧٨.
- خالدة سعيد – حركية الإبداع – بيروت – دار العودة – ١٩٧٩.
- رجاء عيد –فلسفة الالتزام في النقد الأدبي – الاسكندرية – منشأة المعارف – ١٩٨٦.
- ساسين عساف – الصورة الشعرية في إبداع أبي نواس – بيروت – المؤسسة الجامعية للدراسات – ١٩٨٢.
- السعيد الورقي – لغة الشعر العربي الحديث – دار المعرفة الجامعية – ١٩٩٨.
- صابر عبد الدايم ، موسيقى الشعر بين الثبات والتطور ، القاهرة، مكتبة الخانجي،١٩٩٣.
- صالح الأشتر – في شعر النكبة– مطبعة جامعة دمشق – ط١ – ١٩٦٠.
- صالح ابو إصبع – الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة – المؤسسة العربية للدراسات والنشر– بيروت – ١٩٧٩.
- عبد الحميد جيدة – الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر – بيروت – مؤسسة نوفل – ١٩٨٠.
- عبد الرحمن الكيالي – الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين – دمشق – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – ١٩٧٥.
- عبد القادر القط ، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٨.
- عبده بدوي – دراسات في النص الشعري – القاهرة – دار قباء – ١٩٩٧.
- عز الدين اسماعيل : ١– الأدب وفنونه – القاهرة – دار الفكر العربي – ١٩٧٦ – ط٦

٢– التفسير النفسي للآداب – دار المعارف – القاهرة – ١٩٦٣.

٣– الشعر العربي المعاصر – قضاياه وظواهره – القاهرة– دار الكاتب العربي – ١٩٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- علي جعفر العلاق – قصائد مختارة من شعراء الطليعة – بغداد – دار الحريـــة – ١٩٧٧.
- علي عشرى زايد : ١-استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر – القاهرة – دار الفكر العربي – ١٩٩٧.
٢- عن بناء القصيدة العربية الحديثة – القاهرة – دار الفكـــر العربي ١٩٨١.
- عمر الدقاق – الاتجاه القومي في الشعر المعاصر – ط٢ – حلب – مكتبة الشرق– ١٩٦٣ .
- غالي شكري – أدب المقاومة – دار المعارف – القاهرة – ١٩٧٠.
- غسان كنفاني – أدب المقاومة في فلسطين المحتلـــة – بيـــروت – دار الآداب – ١٩٦٦.
- كامل السوافيري – الشعر الفلسطيني في مأساة فلســـطين – ١٩٦٣- القـــاهرة – مطبعة نهضة مصر .
- ماهر حسن فهمي – الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث – معهد البحـــوث والدراسات العربية – ١٩٧٠
- محسن اطيمش – دير الملاك – بغداد – دار الرشيد – ١٩٨٢.
- محمد حسن عبد الله – الصورة والبناء الشعري – القـــاهرة – دار المعـــارف – ١٩٨١.
- محمد زكي العشماوي – ١- الأدب وقيم الحياة المعاصرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الاسكندرية – ١٩٧٤
٢-قضايا النقد الأدبي المعاصر – الاسكندرية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٥.
- محمد عطوات- الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر – بيـــروت – دار الآفاق الجديدة – ١٩٩٨.
- محمد غنيمي هلال – النقد الأدبي الحديث – مطبعة نهضة مصـــر – القـــاهرة – ١٩٩٧.
- محمد القاضي – الأرض في شعر المقاومة الفلسطينية – تونس – الدار العربيـــة للكتاب – ١٩٨٢.
- محمد النويهي – قضية الشعر الجديد- القاهرة – دار الفكر – ط٢ –١٩٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- مصطفى السحرتي –الشعر العربي المعاصر في ضوء النقد الحديث – القاهرة – مطبعة المقتطف – ١٩٤٨.
- مصطفى سويف – الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر –القاهرة – دار المعارف – ١٩٥٩ .
- مصطفى ناصف – مشكلة المعنى في النقد العربي – القاهرة – دار القلم – ١٩٦٥.
- ناصر الدين الأسد – الحياة الأدبية في فلسطين والأردن حتى عام ١٩٥٠– عمان – مؤسسة عبد الحميد شومان – ٢٠٠٠.
- نزار الكيالي – دراسة في تاريخ سورية السياسي المعاصر – دمشق – دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر – ط١–٢٠٠٠.
- نظمي بركة – الاتجاه الرومانسي في الشعر الفلسطيني المعاصر – غزة – دار الفجر – ١٩٩٥.
- نعيم اليافي – ١–تطور الصورة الفنية في الشعر العربي المعاصر – دمشق – اتحاد الكتاب العرب .

  ٢– أوهاج الحداثة ، دراسة في القصيدة العربية الحديثة – ١٩٩٣– منشورات اتحاد الكتاب العرب .
- واصف أبو الشباب – شخصية الفلسطيني في الشعر المعاصر – بيروت – دار العودة – ١٩٨١.
- يعقوب العودات – من أعلام الفكر والآداب في فلسطين – عمان – جمعية المطابع العسكري – ١٩٧٦.

المراجع العربية المترجمة

- أي .ايه ريتشاردز – مبادئ النقد الأدبي – ترجمة مصطفى بدوي –القاهرة – المؤسسة المصرية العامة– ١٩٦٣.
- اليزابيت درو– الشعر كيف نفهمه ونتذوقه – ترجمة محمد إبراهيم الشوش – مكتبة منيمنة –١٩٦١.
- دي لويس – سيسل – الصورة الشعرية – ترجمة احمد الجنابي – بغداد – وزارة الثقافة والإعلام – ١٩٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- رينيه ويلك وأوستن وارين- نظرية الأدب – ترجمة محـــي الـــدين صـــبحي – دمشق- الفنون والآداب ، ١٩٧٤.

موسوعات عربية

موسوعة المصطلح النقدي – المؤسسة العربية للدراسات- بيروت –المفارقة وصفاتها – تأليف دي سي ميويك –ترجمة عبد الواحد لؤلؤة .

ثالثا : الدوريات

- عبد القادر القط – تعقيب على قصيدة المغاوير – الآداب البيروتية – ع٢- س٣- أغسطس ١٩٥٥ .
- مطاع صفدي – مقالة بعنوان (شعرنا القومي وديوان العيون الظماء للنور) الآداب البيروتية – ع١-س٣- يناير ١٩٩٥ .
- نزار قباني – تعقيب على قصيدة ليوسف الخطيب في بـــاب قـــرأت فـــي العـــدد الماضي- ع١٠-س٥ – أكتوبر ١٩٥٧.
- صلاح عبد الصبور – قرأت في العدد الماضي –ع٣- س٦ – فبراير ١٩٥٨.
- يعقوب العودات – علام الفكر والأدب في فلسطين – مجلة الأديـــب – بيـــروت- ج١٠ – س٢٩ – أكتوبر ١٩٧٠ .
- محمد الأهواني – (الدراما والحياة) – مجلة الأديب – ج٥ – س ١٤ – مجلـــد ٢٧ – مايو ١٩٥٥.ص١٤ .
- طراد الكبيسي – (التدوير في القصيدة الحديثـــة)- أقـــلام العراقيـــة –س ١٣- ١٩٧٨.
- عبد الحميد يونس – (الملاحم كتاريخ وثقافة) – عالم الفكر –م١٦-ص١٤ –ع١- الكويت –١٩٨٥.
- يوسف الخطيب – (أمة عربية أو أمة يهودية ؟ ذلك هو الســـؤال)- دمشـــق – المعرفة السورية – ع٤٩ – س٥ – وزارة الثقافة والإرشاد القومي – ١٩٦٦.
- غسان كنفاني – (يوسف الخطيب والكلاسيكية) – الحرية البيروتية – أيلـــول – ١٩٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعا: الرسائل الجامعية

- اسماعيل محمد إصليح – أحمد دحبور وتجربته الشعرية – رسالة ماجستير – مخطوطة جامعة الجزائر – ١٩٩٥.
- خلود ترمانيني – البنية الفنية في شعر صلاح عبد الصبور – رسالة ماجستير – جامعة حلب – ١٩٩٨.

الملحـــــق

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit